

قصة الحضارة

ول وَايرنيل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الأول من المجلد الثاني

٦



تونس



بيروت

مقدمة المؤلف

إن الغرض الذى أبتغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أجبل الفكر فى أصل الحضارة اليونانية ونشأتها وترعرعها واضمحلالها من أقدم العهود التى تدل عليها آثار كريت وطروادة إلى أن فتحت رومة تلك البلاد ، وأن أدون ما أهدى إليه من بحوث فى هذا الميدان . وإلى لشديد الرغبة فى أن أرى هذه الحضارة المعقدة وأن أحس بها ، على ألا يكون إحساسى بها وروايتها مقصورين على البحث فى نهضتها وسقوطها بحثاً نظرياً مجرداً ، بل أريد به بحثاً يتغلغل فيما تشتمل عليه من عناصر حية كثيرة التباين ، متعددة الأنواع ، منها طريقة أهلها فى انتزاع الرزق من الأرض ، وفى تنظيم التجارة والصناعة ، وما قاموا به من تجارب فى الحكم الملكى المطلق ، والأرستقراطى والديمقراطى والدكتاتورى ، ومن ثورات على حكامهم ونظمهم ، ومنها عاداتهم وأخلاقهم وطقوسهم الدينية ومعتقداتهم ، وتربية أبنائهم وشئون أسرهم وتنظيم علاقاتهم الجنسية ، وبيوتهم ومعابدهم وأسواقهم ومسارحهم وميادين ألعابهم ، وأشعارهم ومسرحياتهم وتصويرهم ونحتهم وعمارتهم ومسيقاهم ، وعلومهم ومخترعاتهم وخرافاتهم وفلسفاتهم . أريد أن أرى هذه العناصر وأن أحس بها لا فى عزلتها النظرية العلمية ، بل فى تفاعلها الحى وأثر كل عنصر منها فى سائر العناصر ، وأن أبحثها من حيث هى حركة عامة شاملة يقوم بها كائن حى ثقافى عظيم ، له مائة عضو ومائة ألف ألف خلية ، ولكن له جسماً واحداً وروحاً واحداً .

ولم هذا العناء كله ؟ لأننا لا نكاد نجد شيئاً فى ثقافتنا الدنيوية - اللهم إلا آلاتنا - لسنا مدينين به لليونان ، فالألفاظ الإنجليزية الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب والهندسة ، والتاريخ ، والبلاغة ، وعلوم الطبيعة

والأحياء والتشريح والصحة والأقرباذين ، وفن التجميل والشعر والموسيقى ،
والمآسى والمسالى ، والفلسفة ، والدين ، والأدريه ، والتشكك ، والرواقية ،
والأبيقورية ، وعلم الأخلاق ، والسياسة ، والمثالية ، وحب الإنسانية ،
والكلية ، والاستبداد ، والبلوتوقراطية والدمقراطية ، كل هذه ألفاظ
يونانية لصور من الثقافة لم ناشئنا نحن لإنشاء بل إنها قد نصبت
وترعرعت - خيراً كان ذلك أو شراً - بفضل نشاط اليونان العظيم .
والمشاكل التى تقض مضاجعنا فى هذه الأيام - كتقطيع الغابات واستئصال
أشجارها وما ينشأ عن ذلك من تعرية الأرض وإزالة تربتها ، وتحرير
المرأة ، وتحديد عدد أفراد الأسرة ، والحفاظة على القديم المستعز ، وإجراء
التجارب على الحديد فى الأخلاق والموسيقى ونظم الحكم ، وفساد السياسة
والاعوجاج الخلقى ، والنزاع بين الدين والعلم ، وضعف المعنوية التى تستمدّها
الأخلاق من خوارق الطبيعة ، وحروب الطبقات والأمم والغارات ،
وثورات الفقراء على الأغنياء الأقوياء من الناحية الاقتصادية ، وثورات
الأغنياء على الفقراء الأقوياء من الناحية السياسية . والنزاع بين الديمقراطية
والدكتاتورية ، وبين الفردية والشيوعية ، وبين الشرق والغرب ، كل هذه
الأمر قد اضطربت بها حياة بلاد اليونان الباهرة المتألقة ، وكأنها قد
اضطربت بها لتعلم منها نحن ونفيد منها فى حياتنا . وقصارى القول أنه
ليس فى الحضارة اليونانية شيء لا ينير لنا سبل حياتنا .

وسنحاول فى هذا الكتاب أن ندرس حياة بلاد اليونان من حيث تفاعل
عناصرها الثقافية ومن حيث هى مسرحية كبرى ذات فصول خمسة
تبدأ بنهضتها وتختتم بسقوطها . سنبدأ بكريت وخضارتها التى أنيط عنها
اللاثام من وقت قريب لأن من كريت ، كما يبدو لنا ، ومن بلاد آسية
جاءت ثقافة ميسينى Mycenae وتيرنز Tiryns التى نشأت فيها قبل الأزمنة
التاريخية ، فحولت على مهسل المهاجرين الآخيين Achaeans والغزاة

الدورين Dorans إلى متحضرين ، وسنخصص بعض الوقت للدراسة عالم المحاربين والهيبن ، والقراصنة والمغنين ، الذى انتقل إلينا فى أشعار هومر القوية الجارفة ، وسنرغب نشأة أسبارطة وأثينة فى عهد ليكورج Lycurgus وصولون Solon ونتبع انتشار الاستعمار اليونانى فى جميع جزائر بحر إيجه ، وشواطئ آسية الغربية ، والبحر الأسود ، وأفريقية وإيطاليا وصقلية ، وفرنسا وأسبانيا ، وسنرى الديمقراطية تدافع عن حياتها فى مراثون Marathon ، ثم تبعث فيها نشوة الظفر قوة على قوتها ، فتظم نفسها فى عهد بركليز Pericles ، وتزدهر وتثمر أغنى حضارة عرفها التاريخ وسنطيل النظر مسرورين مغتبطين إلى العقل البشرى وهو يتحرر من الخرافات والأوهام ، فينشئ علوماً جديدة ، وينزل الطب على حكم العقل ، وينزل بالتاريخ من خوارق الطبيعة ومن الأجرام السماوية إلى العالم الأرضى ، ويبلغ الغاية التى لم يصل إليها عقل شعب آخر من قبل فى الشعر ، والتثيل ، والفلسفة ، والخطابة والتاريخ ، والفن ، وسوف نسجل فى هذا الكتاب ونحن آسفون محزونون ، ما اختتم به العصر الذهبى فى الحروب البلوبونيزية من خاتمة قضت فيها المدن اليونانية بعضها على بعض . وسنشاهد ذلك المجهود الجبار المنطوى على البسالة والشهامة والذى بذلته أثينة المضطربة المحتلة النظام لتستعيد قوتها بعد هزيمتها ، وسراها عظيمة حتى فى اضمحلالها تنجب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبليلز Apelles وبركستيلز Praxiteles ، وفيليب ودمستين ودييجين ، والإسكندر ، وسنرى فى أعقاب قواد الإسكندر الحضارة اليونانية ، أعظم وأقوى من أن نحتويها شبه الجزيرة ، فتحترق حدودها الضيقة وتفيض من جديد على آسية ، وأفريقية ، وإيطاليا ، وتعلم الشرق المستغرق فى تصوفه وباطنيته جلال الجسم والعقل ، وتعيد مجد مصر فى إسكندرية البطالمة ، وتغنى رودس بالتجارة والفن وتهض بالهنتسة على يد إقليدس فى الإسكندرية وأرخيديدس فى سرقوسة ، وتضع على أيدى زينون وأيقور أبقي الفلاسفات فى التاريخ ،

وتنعت تماثيل أفروديتي Aphrodite في ميلوس Melos واللاؤكوون Laocoön وانتصار سمثريس Samothracac ومذبح برجاموم Pergamum ، ونحاول عبثاً أن تعيد تنظيم سياستها وتبث فيها روح الشرف والوحدة والسلم ، ثم تهوى إلى أعماق الفوضى بسبب الحروب الداخلية وحروب الطبقات ، وتنضب مواردها ، ويقل عامرها ، وتفقد روحها المعنوية ؛ وتستسلم للأتوقراطية والحمول وتصوف الشرق ، وتكاد في آخر الأمر أن ترحب بالرومان الفاتحين ، فتورث بلاد اليونان الميتة على أيديهم أوربا علومها ، وفلسفاتها ، وآدابها وفنونها فتكون هي الأساس الثقافي الحي لعالمنا الحديث .

الكتاب الأول

تمهيد

في حضارة بحر إيجه

من ٣٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.

أهم الحوادث في الكتاب الأول

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ المذكورة هنا تقريبية ، وتاريخ الأفراد هي تواريخ السنين التي بلغ فيها نضجهم العقل ، وقد افترضنا أن هذه السنين هي التي تكون بعد أربعين عاماً من مولدهم ، أما تواريخ مولدهم ووفاتهم فنذكرها إن استطعنا في فهرس الأعلام . وتواريخ الحكام هي تواريخ حكمهم ، وإذا وضنا علامة الاستفهام أمام اسم واحد منهم فعنى هذا أن التاريخ لا تذكره إلا الرواية اليونانية وحدها .

ق ٢٠ .

- ٩٠٠٠ - العصر الحجري الحديث في كريت .
- ٣٤٠٠ - ٣٠٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٣٤٠٠ - ٢١٠٠ العصر الحجري الحديث في تساليا .
- ٣٤٠٠ - ١٢٠٠ العصر البرنزي في كريت .
- ٣٠٠٠ - ٢٦٠٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٣٠٠٠ - استخراج النحاس من قبرص .
- ٢٨٧٠ - أول استقرار معروف في طرودة .
- ٢٦٠٠ - ٢٣٥٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٢٣٥٠ - ٢١٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى .
- ٢٢٠٠ - ١٢٠٠ العصر البرنزي في قبرص .
- ٢١٠٠ - ١٩٥٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى .
- المجموعة الأولى من القصور الكريتية .
- ٢١٠٠ - ١٦٠٠ العصر النحاسي - الحجري في تساليا .
- ١٩٥٠ - ١٦٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى ،
- ١٩٠٠ - تدمير المجموعة الأولى من القصور الكريتية .
- ١٦٠٠ - ١٥٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المتأخرة .
- (الميسينية) ، المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
- ١٦٠٠ - ١٢٠٠ عصر البرنز في تساليا .
- ١٥٨٢ - تأسيس أثينا على يد سكريس .
- ١٥٠٠ - ١٤٠٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية الميسينية والسيكلادية المتأخرة .
- ١٤٥٠ - ١٤٠٠ تدمير المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
- ١٤٣٣ - دوكليد والطفان .

- ١٤٠٠ - ١٢٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينية الهيلادية (الميسينية) السيكلادية ،
 المتأخرة ، قصور تيرنز وميسينية .
- ١٣١٣ - تأسيس طيبة على يد كادموس .
- ١٣٠٠ - ١١٠٠ عصر سيطرة الآخيين على اليونان .
- ١٢٨٣ - عهد بيلوبس إلى إليس .
- ١٢٦١ - ١٢٠٩ هرقل
- ١٢٣٠ - ثيوس في أثينة ، وأديب في طيبة ، ومينوس وديدولوس في نوسس .
- ١٢٥٠ - ١١٨٣ « المدينة السادسة » في طروادة ؛ عصر أبطال هوهر .
- ١٢٢٥ - رحلة أجمن ن .
- ١٢١٣ - حرب السبعة على طيبة .
- ١٢٠٠ - ارتقاء أجمن ن المرش .
- ١١٨٣ - ١٢٩٢ حصار طروادة .
- ١١٧٦ - ارتقاء أورستيز .
- ١١٠٤ - غزو الدورين لبلاد اليونان .

الباب الاول

كريت

الفصل الأول

البحر المتوسط

إذا ما دخلنا أجمل البحار كلها وتركنا من خلفنا المحيط الأطلسي ومضيق جبل طارق ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليوناني . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا في هذا الميدان : « لقد نزلنا في شواطئ هذا البحر كما نزل الضفادع حول بركة الماء »^(١) . على هذه الشواطئ النائية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : في هيرسكوبيوم Hemeroscopium وأمپورياس Ampurias في أسبانيا ، ومرسيليا وتيس في فرنسا ، وفي كل مكان تقريباً بإيطاليا وصقلية . وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة في قوريني Cyrene بشمال أفريقية وفي نقراطس بدال النيل ، وبعثت مغامراتهم النشطة الحركة والحياة في جزائر بحر إيجه وشواطئ آسية الصغرى في ذلك الوقت البعيد ، كما تبخهما فيها هذه الأيام ، وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهن الواسعة على شواطئ اللردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءاً صغيراً من العالم اليوناني القديم .

ترى لماذا نشأت مجموعة الحضارات الثانية على شواطئ البحر المتوسط كما نشأت المجموعة الأولى قبل ذلك على ضفاف الأنهار في مصر وأرض الجزيرة

والهند ، وكما ازدهرت الثالثة بعدها على شواطئ المحيط الأطلنطى ، وكما
يحتفل أن تنشأ الرابعة على شواطئ المحيط الهادى ؟ هل كان السبب فى نشأتها
هو اعتدال مناخ البلاد المطلة على هذا البحر ؟ لقد كانت الأمطار السنوية
تروى الأرض وتخصبها فى الزمن القديم كما تروىها وتخصبها فى هذه الأيام (٢) ،
وكان البرد المعتدل يبعث فى أهل البلاد النشاط ؛ وكان فى وسع الأهلىن
يعيشوا فى الهواء الطلق طوال العام تقريباً ، تدفهم الشمس ولكنها لاتوهن
أجسامهم . ومع هذا فإن سطح الأرض حول هذا البحر وفى جزائره لا يبلغ
من الخصب فى مكان ما مبلغ أرض الأودية الغرينية فى أحواض الكنج
أو السند أو دجلة أو الفرات أو النيل . وقد يبدأ جفاف الصيف مبكراً عن
عادته ، أو قد يطول أكثر مما يستحب ، وتحد فى كل مكان فيه الأرض
الحديثة لا تبعد إلا قليلاً من القشرة الغرينية المتربة الرقيقة . وتقع إلى شمال
هذه الأراضي التاريخية بلاد معتدلة المناخ وإلى جنوبها أرض مدارية ؛ وكلها
أخصب منها تربة . ولما أضنى الجهد الفلاحين سكان شواطئ البحر المتوسط
وجزائره ، ووجدوا أن التربة لا تجود عليهم بما يعوض عنهم جهودهم ،
أخلوا يتخلون عن فلاحها شيئاً فشيئاً ؛ ويستبدلون بذلك زراعة الزيتون
والكرم . وكانت تلك البلاد تتعرض من حين إلى حين إلى أخطار الزلازل ،
فتنشق الأرض تحت أقدام السكان على طول بعض العيوب الأرضية التى
تعد بالمئين ، فترهبهم وتدفعهم إلى نوبات من التقى والإيمان . ولم يكن المناخ
هو الذى جاء بالحضارة إلى بلاد اليونان ، وأكثر الظن أن المناخ لم يكن سبب
قيام الحضارة فى قطر من الأقطار .

أما السبب الذى جذب الناس إلى بحر ليجه فهو جزائره . فلقد كانت هذه
الجزائر جميلة ؛ ولا ريب فى أن الملاح المتعب كان ينشرح صدره حين يرى
اختلاف ألوان التلال المظلمة التى تقوم كالهياكل فوق مياه البحر وتنعكس
عليها . وقبلما يجد الإنسان فى هذه الأيام مناظر أجمل من منظر هذه التلال

أو أكثر منها إثارة لحاسة الجمال . وإذا ما طاف الإنسان ببحر لإيجة أدرك لساعته لم أحب سكان هذه الشواطئ والجزائر بلادهم جهم للحياة أو أكثر منها ، ولم كانوا يرون كما يرى سقراط أن النى أشد ألماً من الموت . يضاف إلى هذا أن الملاح الذى كان بطوف بتلك البحار فى الزمن القديم كان يجد فى الجزائر مثورة كاللآلى فى جميع الجهات ، وكان يراها متقاربة فلا تكاد سفينة تبعد عن الأرض أكثر من أربعين ميلا ، سواء أكان مسافراً من الغرب إلى الشرق أم من الشمال إلى الجنوب . وإذا كانت هذه الجزائر البارزة فوق سطح الماء هى قلل سلاسل جبلية قديمة ، متصلة بعضها ببعض ، كسلاسل الجبال فى بلاد اليونان القارية ، طنى عليها البحر على توالى الأيام (*) ، فإن عين الملاح المرتقب كانت تقع على الدوام على قلة من هذه القلل المحيية كأنها تحييه وترحب بمقدمه ، وكانت أشبه بمنارات تهتدى بها السفن فى وقت لم تكن تهتدى فيها بالبوصله البحرية . وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه . فقد كان تيار مائى قوى أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر لإيجة ، وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال عمادية شواطئ البحر ، وكانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بانتظام فى فصل الصيف فتساعد السفن التى خرجت من موانئها لتأتى بالحلب والسملك والفراء من البحر اليكسينى Euxine (*) على العوده إلى موانئها فى

(*) كان اليونان يسمون البحر المتوسط **Ho Ponttos** أى الممر أو الطريق ، وكانوا يسمون البحر الأسود تسمية يراعون فيها التجميل فى اللفظ **Pontos Euxinos** البحر المحب للأضياف - وربما كان سبب هذه التسمية أنه يقابل السفن المقبلة من الجنوب بريح وتيارات معاكسة لها . وكانت الأنهار الواسعة التى تصب مائها فيه ، والفيضاب الكثير الذى يقلل من سرعة البحر يجعلان مستوى الماء فى البحر الأسود أعلى من مستواه فى البحر المتوسط ؛ ومن أجل هذا كان تيار مائى قوى يتدفق خلال مضيق البسفور (مخاضة الثور) الضيق ومضيق الد ذليل إلى بحر لإيجة ، وكانوا يسمون بحر مرمره البروپنتيس **Propontis** أى ما قبل البحر .

الشمال . وكان الضباب نادراً في البحر المتوسط ، كما أن أشعة الشمس التي لا تكاد تحتجب عنه ينشأ منها بالليل وبالنهار نسيم البر والبحر ، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى آخر الخريف أن يستعين في أى ثغر من ثغوره - إلا القليل النادر منها - بنسيم الصباح في خروجه منه وبنسيم المساء في عودته إليه .

في هذه البحار الصالحة للتجوال نَمى الفينيقيون الكسابون واليونان القواذب فن الملاحة وعلمها ، فبثوا فيها سفناً معظمها أكبر وأسرع من جميع السفن التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط قبلهم ولكنها كانت أبسر منها حركة ، وأضححت الطرق البحرية بين أوروبا وأفريقية من جهة وآسية من جهة أخرى مارة بقبرص وصيدا وصور أو ببحر إيجه والبحر الأسود ، وأضححت على الرغم من قراصنة البحر وما يهددها من أخطار ، أقل نفقة من الطرق البرية الطويلة الشاقة المعرضة للأخطار والتي كان ينقل عليها في الأيام الخالية الكثيرة من تجارة مصر والشرق الأدنى . وبذلك انجذبت التجارة وجهات جديدة ، وضاعفت عدد السكان الجديد ، وأوجدت ثروات جديدة ، فاضمحل شأن مصر ، وأعقب ذلك اضمحلال شأن أرض الجزيرة وفارس ، وأقامت فينيقية إمبراطورية من المدائن على ساحل أفريقية وفي صقلية وأسبانيا ، وازدهرت بلاد اليونان ازدهار الوردة المرتوبة .

الفصل الثانى

كشف كريت الثانى

« وفى وسط البحر القاتم كلون النيبذ أرض تسمى كريت ، وهى أرض جميلة غنية يحيط بها الماء ، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد ، كما أن بها تسعين مدينة^(١) . لما أنشد هومر هذه الأبيات ، ولعل ذلك كان فى القرن التاسع قبل الميلاد^(٢) ، كانت بلاد اليونان قد نسيت أو كادت تنسى ، وإن لم ينس الشاعر ، أن الجزيرة التى بدت له عظيمة حتى فى ذلك الوقت ، كانت فى وقت من الأوقات أعظم مما هى وقتئذ ثروة ، وأنها كانت تسيطر بأسطولها القوى على معظم نواحي بحر إيجه وعلى جزء من أرض اليونان الأصيلة ، وأنها قد أنشأت قبل حصار طروادة بألف عام حضارة من أعظم الحضارات الفنية فى تاريخ العالم . ولعل هذه الحضارة الإيجية التى كانت قديمة بالنسبة له بقدر ما هو نفسه قديم بالنسبة لنا ، هى التى عادت إلى ذاكرة هومر وهو يتحدث عن عصر ذهبي كان الناس فيه أكثر حضارة وأرق حاشية منهم فى أيامه المضطربة .

ولقد كان كشف هذه الحضارة المفقودة مرة ثانية عملا من أجل الأعمال فى تاريخ علم الآثار الحديث . فها هى ذى جزيرة تبلغ مساحتها قدر مساحة أكبر جزائر السكلديز عشرين مرة ، جوها جميل ، تنتج حقولها غلات مختلفة ، وتلاها كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الأشجار ، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب ، فهى فى منتصف الطريق بين فينيقية وإيطاليا ، وبين مصر وبلاد اليونان . ولقد أشار أرسطاطاليس إلى هذا

(١) كل تنواريخ الواردة فى هذا المجلد قبل الميلاد إلا إذا نص على غير ذلك أو كانت واضحة الدلالة على أنها بعد الميلاد .

الموقع الحسن وذكر أنه « هو الذى مكن مينوس Minos من إقامة إمبراطورية لها فى بحر إيجه »^(٥) . ولكن قصة مينوس ، التى يسلم بصحتها كل الكتاب الأقدمين ، وقد رفضها الكتاب المحدثون وعدوها خرافة من الخرافات . وقد كان من عادة المؤرخين قبل أيامنا هذه بستين عاماً لا أكثر أن يقولوا كما قال جروت Grote إن تاريخ الحضارة فى بحر إيجه يبدأ بغزو الدورين أو بعصر الألعاب الأولمبية ؛ ثم حدث فى عام ١٨٧٨ م أن عثر تاجر كريتى يسمى مينوس كلكيرينوس Minos Kalikairinos - وهو اسم من ألبق الأسماء للكشف الذى وفق إليه - عثر هذا التاجر على آثار قديمة فى سفح أحد التلال القائمة فى جنوب قندية^(*) . وزار شليمان Schliemann العظيم هذا الموقع فى عام ١٨٨٦ ، بعد أن لم يحض على كشفه عن ميسينى Mycenae وطروادة إلا زمن قليل ، وأعلن عن اعتقاده بأن تحت ثراه آثار مدينة كنوسس القديمة ، وأخذ يفاوض مالك الأرض فى أن يسمح له بيده أعمال الحفر على الفور ، ولكن المالك أخذ يساوم ويماحك وحاول أن يمكر به ، وكان شليمان تاجراً قبل أن يكون عالم آثار ، فتركه مغضباً ، وأضاع بذلك فرصة ذهبية لو اغتنمها لأضاف هو حضارة جديدة إلى حضارات التاريخ ، ومات بعد عام واحد من ذلك الوقت .

وفى عام ١٨٩٣ ابتاع دكتور آرثر ليفنز Arthur Evans عالم الآثار البريطانى من امرأة فى أثينة عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمام ، وقد أدهشه ما كان محفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن فى وسع عالم من العلماء أن يقرأها . وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت ، فحصل على إذن بالسفر إليها ، وأخذ يطوف فى أنحاء الجزيرة ويجمع منها ما يعتقد أنه نماذج للكتابة الكريتية القديمة . وفى عام ١٨٩٥ ابتاع جزءاً من الموقع الذى كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس وبعد أن قضى

(٥) العاصمة الجديدة للجزيرة واسمها الرسمى الحديث هرقلوم Heracleum

تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً في ذلك خمسين رجلاً أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز ، نقصد بذلك قصر مينوس . وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد في اتساعه ، وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذي لا نهاية له ، والذي اشتهر فيما يروى من القصص اليونانية القديمة عن مينوس ، وديدلس *Daedalus* ، وثيسبوس *Theseus* ، وأدرياني *Adriane* والمينوتور *Minotaur* . وكأنما شاءت الأقدار أن تؤيد ما أوحى به قريحة إيفنز إليه ، فعثر في هذه الخرافات وفي غيرها على آلاف من الأختام والأواح الصلصال ، عليها رموز تشبه الرموز التي جاء إلى كريت بتعقبها ، وكانت النيران التي دمرت قصور كنوسس قد حفظت هذه الألواح ، ولا يزال ما عليها من الكتابة التصويرية ومن الحروف الهجائية غامضاً يخفى قصة بحر إيجه القديمة(*) .

ولما ذاع نبأ هذا الكشف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار . وبينما كان إيفنز يعمل في كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين ذوى الجلد والعزيمة - هلبير *Halbherr* ، وبرنيير *Pernier* ، وسقنيوني *Savignoni* وبريني *Paribeni* - في حاجيا تريادا *Hagia Triada* (الثلاث المقدس) - تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة ، كما كشفوا في فستس *Phaestus* عن قصر لا يفوقه في سعته إلا قصر ملوك كنوسس . وفي هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر *Seager* ومستر هوس *Hawes* يقومان بأعمال الكشف في حفائر فاسلكي *Vasiliki* ، ومكلوس *Mochlos* ، وجورنيا *Gournia* ، وكان البريطانيون - هوجارث *Hogarth* ، وبوسنكوت *Bosaquet* ، ودوكنز *Dawkins* ، وميرز

(*) وظل إيفنز يعمل بجهد ومهارة في كنوسس سنين طوالاً ، ورح لقب فارس *Knight* مكاناًة له على جهوده ، وأنتم في عام ١٩٣٦ تقريره الرائع المسمى « قصر مينوس » في أربعة مجلدات .

Myres يتقبون في بليكسترو Palaikastro وپسيكرو Psychro وزكرو Zakro . واهتم أهل كريت أنفسهم بأعمال الحفر والتنقيب في ديارهم ، فأخذ زنثوديديز Xanthoudidis وهزidakis يحفران في مواقع المساكن والمغارات والمقابر القديمة في أركلوكوري Arkalochori وتيليسس Tylissus ، وكومازا Koumasa ، وشيمزي Chamaizi ، وانضوت نصف الأمم الأوربية تحت لواء العلم في الوقت الذي كان فيه ساستها يستعدون للحرب

ترى كيف تصنف هذه المادة الكثيرة — هذه القصور ، والرسوم ، والتمائيل والأختام ، والمزهريات والمعادن ، والألواح ، والنقوش ؟ — وإلى أى عصر من العصور الغابرة نضم ؟ وقد أرخ ليفنز ما كشف من الآثار حسب عمق الطبقات الأرضية التي وجدت فيها ، وما طرأ على أنماط الخرف من تطور تدريجي ، وما بين الآثار التي كشفت في كريت وما كشف في غيرها من البلاد من تشابه في الشكل أو في الغرض الذي صنعت من أجله ، والموازنة بين الطبقات التي كشفت فيها والطبقات التي يعرف تاريخها على وجه التقريب في غير كريت . وما من شك في أن هذه الطريقة لا تسلم من الخطأ ، ولكن البحوث التي أجريت فيما بعد ، وما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة ، تؤيدها تأييداً يتزايد على مر الأيام . وظل ليفنز يواصل أعمال الحفر تحت كنوس حتى قابلته على بعد ثلاث وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء ، وكان النصف الأسفل من الأرض التي حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجري الحديث — من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد ، محلى برسوم مكونة من خطوط بسيطة ، ومن لواب مغازل تستخدم في الغزل والنسيج ، ومن إلهات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابوني أو الصلصال ، وأسلحة وحجارة مصقولة ، ولم يكن من تلك البقايا أدوات من النحاس أو البرنز . وصنف ليفنز الفخار ووازنه بما وجد منه في مصر القديمة وبلاد النهرين ، وعلى أساس هذا التصنيف

قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجري الحديث وفي عصر ما قبل التاريخ ثلاثة عصور : العصر المينوي المبكر . والمينوي الأوسط ، والمينوي المتأخر . ثم قسم كل عصر من هذه العصور إلى ثلاثة أطوار .

ويمثل أول ظهور النحاس - أى أبعد الطبقات التى ظهر فيها عن سطح الأرض - قيام حضارة جديدة قياماً بطيئاً من مرحلة العصر الحجري الحديث . وقبل أن يحل العصر المينوي المبكر كان الكريتيون قد عرفوا كيف يخلطون النحاس بالقصدير ، وبدأ بذلك عصر البرنز ، وفي الطور الأول من العصر المينوي الأوسط تظهر أقدم القصور : فيقيم أمراء كنوسس ، وفستوس ، وماليا Mallia لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات ، ومخازن واسعة ، وحوائيت متخصصة ، ومذابح وهياكل ، ومجارى نهر المتكبر الغربى المتعجرف ، وتجعله يغض الطرف منها استحياء . ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة ، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة ، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التى كانت في العصر السابق .

وفي نهاية الطور الثانى من العصر المينوي الأوسط حلت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها في الطبقات الأرضية . فقد تهدم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته ، أو لعل ذلك كان على أثر غارة قامت

(*) لما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم طبقات المحتوية على أدوات نحاسية في كنوسس بعام ٣٤٠٠ ق. م. أى منذ ٥٣٠٠ سنة من وقتنا هذا ، وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها ، وإذا كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجري الحديث في كنوسس تشغل نحو خمسين في المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية ، فقد قدر ليفنز أن العصر الحجري الحديث في كريت بقى ٤٥٠٠ عام على الأقل قبل معرفة لمادن ، أ من عام ٨٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً . ولا حاجة إلى القول بأن تقدير الزمن بناء على عمق الطبقات الأرضية تقدير يختلف فيه العلماء كل لا اختلاف ، لأن معدل الرسوب قد يختلف في العصور المختلفة . وقد أدخل ليفنز في حسابه بطء هذا المعدل بعد أن تمركز موقع كنوسس ، ولم يعد موضعاً لمدينة عامرة في القرن الرابع قبل الميلاد . ولم توجد في كريت أدوات من العصر الحجري القديم .

بها فستوس التي ظل قصرها باقيا بعد ذلك فترة من الزمان . ثم أصاب فستوس ومكلوس ، وجورنيا ويليكترو ، ومدناً أخرى كثيرة في الجزيرة ، ما أصاب كنوسس من تخریب ، فترى الفخار قد غطاه الرماد ، والجرار الكبيرة في المخازن ملأى بالأنقاض . أما الطور الثالث من العصر المينوى الأوسط فطور ركود نسبي ، وقد يكون هو الطور الذى اضطربت فيه أحوال البلاد الواقعة في جنوب البحر المتوسط على أثر فتح المكسوس مصر ، ودام اضطرابها زمناً طويلاً(*) .

وفي العصر المينوى المتأخر يبدأ كل شيء من جديد ، فتتجدد آمال الإنسانية التي تصبر على كل بلوى ، وتسرى فيها روح الشجاعة ، وتبدأ الحياة مرة أخرى ، فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة في كنوسس ، وفستوس ، وتليسوس ، وحاجيا تريادا ، وجورنيا ، فتعمها الفخامة ، وتكثر المباني ذوات الأطباق الخمسة ، والنقوش البديعة ، وتوحى المباني الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر بركليز .

هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت في أفنية القصور ، وترى النساء والرجال يجالندون الوحوش لتسلية الرجال والسيدات ؛ وهؤلاء لا تزال وجوههم الأرستقراطية اليقظة الهادئة حية في المظلمات البراقة الباقية على الجدران الجديدة . وتتضاعف حاجات الأهلين ، وترق أذواقهم ، وتردهر الآداب ، وتنشأ مئات من الصناعات ، فيستطيع الفقراء أن يستمتعوا بالرخاء وهم يعملون ليمدوا الأغنياء بأسباب الراحة والنعم . وترى أبهاء الملوك تدوى فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التي يوزعونها أو يتسلمونها ، وأصوات الفنانين وهم ينحتون الفنايل ، أو يرسمون الصور ، أو يصنعون

(*) إذ أورد القارىء أن يعرف كم من الزمن دام كل طور من هذه الأطوار فليرجع إلى ثبت الحوادث المسلسلة في أول هذا الباب .

الفخار ، أو ينقشون النقوش ؛ وأصوات كبار الموظفين يعقلون
المؤتمرات ، ويستمعون إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم ، أو يعيشون
بالأوراق مبصومة بأختامهم الجميلة الدقيقة الصنع ؛ بينما ترى الأمراء ذوى
النخصر النحيل والأميرات المحليات بالجواهر ، المغريات ، العاريات
النحور ، يجتمعون فى وليمة ملكية يقدم لهم فيها الطعام على موائد تتلأأ
عليها صحاف البرنز والذهب . لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر
قبل الميلاد هما العهد الذى بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها وهما
عصر كريت الذهبى القديم .

الفصل الثالث

حضارة تستعاد من بقاياها

إذا شئنا أن نستعيد هذه الحضارة المدفونة مما بقى من آثارها — أى أن نفعل بآثار كريت المتفرقة ما فعله كوفيه Cuvier بالعظام البشرية المشتتة — وجب علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها ، وللخيال فيها شأن كبير ، لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية ، بعد أن ماتت من زمن طويل . وسيظل ما تنطوى عليه جزيرة كريت من معلومات مجهولاً خافياً على العالم حتى يقيض للأسرار المحبوة فى ألواحها عالم مثل شمبلون .

١ - الرجال والنساء

بين الكريتين ، كما تصورهم فنانونهم ، وبين البلطة المزدوجة التى تظهر كثيراً فى رموزهم الدينية شبه غريب . فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدق من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهى فى الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام ، ولكنه مبالغ فيه . وكلهم تقريباً قصار القامة نحاف ، لدن ، رشيقو الحركة ، ذوو أناقة رياضية . وهم بيض البشرة وقت مولدهم ؛ فأما نساؤهم اللاتى يلازم الظل فلهن وجوه بيض ، جرى عرفهم بأن تمثل فى صورهن ضاربة إلى الصفرة ؛ وأما الرجال الذين يسعون فى مناكب الأرض طلباً للرزق ، فقد لوحث الشمس وجوههم فاحمرت ، ولذلك كان اليونان يسمونهم كما كانوا يسمون الفينيقيين القوينيقيين أى الأرجوانى اللون ، وروؤسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض ، ومعارفهم حادة دقيقة ، وشعورهم وعيونهم سوداء

براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم في وقتنا الحاضر . ولا جدال في أن هؤلاء الكريكين فرع من جنس « البحر المتوسط (*) » ؛ والرجال منهم والنساء يرسلون شعرهم ، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم ، وبعضه في حلقات فوق جباههم ، وبعضه الآخر في غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم . ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة في غدائرهن ، أما الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى في قبورهم طائفة من شفرات الخلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليلة نظيفة حتى في القبور (١٠) .

وليس ملابسهم بأقل غرابة من أجسامهم ، فقد كان الرجال يضعون على رؤوسهم — إذا وضعوا شيئاً عليها لأنهم كانوا في أغلب الأحيان يتركونها عارية — عمام أو قبعات عراضاً ، وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التي كانت منتشرة في بداية القرن العشرين . وكانوا في العادة حفاة الأقدام ، عدا أفراد الطبقات العليا ، فقد كانوا أحياناً ينتعلون أحذية بيضاء من الجلد ، كانت عند النساء مزركشة جميلة في أطرافها ، مزينة سيورها بالخرز . ولم يكن الرجال في العادة يلبسون شيئاً على أجسامهم فوق وسطهم ، أما في أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات قصيرة ، أو مناطق تكون أحياناً متفخمة من الأمام تأدياً واحتشاماً . وقد تكون « التنورة » مفتوحة من الجانبين عند العمال ، أما عند العطاء وفي الحفلات فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء . وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً ، وكانوا في الشتاء يلبسون رداء خارجياً طويلاً يتخذ من الصوف أو الجلد . وكانت الملابس تربط ربطاً محكما في وسط

(*) يقسم علماء تاريخ الإنسان الطبيعي الأوروبيين بمد العصر الجبري الحديث الأقسام الثلاثة الآتية التي كانت لها على الترتيب الكثرة الغالبة في شمال أوروبا ، وسطها وجنوبها ، وهي : (١) « الجنس النوردي » أي الشمالي وأفراده طال الرؤوس ، طوال لثة ، بيض البشرة شقر الشعر ملح العيون . (٢) « الجنس الألبى » وأفراده عراض الرؤوس ، متوسطو القامة ، عيونهم عسلية وبشرتهم ضاربة إلى السمرة . (٣) « جنس البحر المتوسط » وأفراده طوال الرؤوس قصار القامة سمر البشرة . وجدير بنا أن نعرف أنه لا يوجد من هذه الأجناس جنس خالص نق .

الجسم ، لأن الرجال والنساء جميعاً كانوا يحرصون على أن يكونوا — أو أن يبدووا — رفيعي الوسط كأن أجسامهم تتركب من مثلثين^(١١). وأرادت النساء في العصور المتأخرة أن ينافسن الرجال في ضيق أوساطهن فعمدن إلى المشدات القوية تجمع تنوراتهن حول أعجازهن ، وترفع أئداءهن العارية إلى ضوء الشمس . وكان من عادات الكريتيات الظريقة أن تبقى صدورهن عارية ، أو تكشفها قمصان شفافة^(١٢) ، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة . وكان المحول يربط تحت الصدر ، ثم يفتح فتحة دائرية غير دقيقة ، ثم يعود فينطبق انطباقاً جيلاً حول العنق أشبه بالطوق الميديشي لطرز . وكانت الأكام قصيرة منتفخة في بعض الأحيان ؛ وكانت التنورات تزدان بالثنايا والألوان الزاهية ، وتتسع كثيراً عند العجز ، وتقوى في أغلب الظن بأعواد من المعدن أو بأطواق أفقية الوضع . وإنا لندرى في ترتيب ملابس الكريتيات وأشكالها تناسقاً في الألوان ، وجمالاً في الأشكال ، ورقة في الذوق ، ثم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة . ولم يتأثر اليونان بالكريتيين في هذه المسائل ولم تغلب أزيائهم على غيرها من الأزياء إلا في العواصم الحديثة ؛ بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم « الباريسية » على صورة المرأة الكريتيّة ذات الصدر المرتفع البراق ، والعنق الجميل ، والقمم المغرى ، والأنف البارز ، والجمال القوي المثير . إن هذه المرأة لتجلس أمامنا اليوم في غير حياء مصورة في طنف منقوش ، يطل فيه جماعة من العطاء على منظر لن يسمح لنا الزمان برويته ما حينئذ^(١٣) .

وواضح في هذه الرسوم أن رجال كريت كانوا يحملون لنسائهما ما يخلعنه على الحياة من لطف ومغامرات ، لأنهم لا يبخلون عليهن بما يحتجن من مال يزدن به جمالهن وفتنتهن . فقد كشف في الآثار عن حلى كثيرة مختلفة الأنواع ، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية ، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار ، أو رؤوس من البلور أو المرمر ، وأقراط

مزرکشة بنحیوط من الذهب تختلط بالشعر ، وعصائب أو حلی من المعادن النفیسة تربطه ، وأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان ، ومشابك وخرز وعقود على الصدر ، وأساور فی الأذرع ، وخواتم فی الأصابع من فضة ، وعقیق ، وجزع ، وجشت ، وذهب . وكان الرجال يتحلون أيضاً ببعض هذه الحلی ، فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية ، وإذا أمكنهم مواردہم ازینوا بنخواتم كبریة نقشت علیها صور الحرب أو الصيد . ونرى الساقی فی الصورة الذائعة الصیت یلبس فی عضده الأیسر لإسورة عریضة من معدن نفیس ، وفی معصمه لإسورة مطعمة بالعقیق . ونرى الرجل فی الحیاة الكریتیة آیا كان موضعه یعرض أنبل عواطفه وأشد ما یفتخر به من هذه العواطف وهی حرصه علی التجلل .

وتكاد النساء أن یكن صاحبات السلطان الأعلى فی الحیاة الكریتیة . ذلك أن المرأة المینیویة لم تكن ترضى بحیاة العزلة التی كانت تسود بلاد الشرق ، ولم تكن تطبق الحجاب أو البقاء فی الدور ، ولیس ثمة دلیل علی أنه كان للنساء أجنحة خاصة فی المنازل . لقد كانت المرأة تشتغل فی البیت بلاریب كما تفعل بعض النساء حتی فی وقتنا هذا ، تنسج الأقمشة وتصفّر السلال ، وتطحن الحب وتخبز العیش ، ولكنها كانت فوق ذلك تعمل مع الرجل فی الحقل وتصنع معه الفخار ، وتختلط بالرجال فی الأسواق ، وكان النساء یجلسن فی المقاعد الأمامیة فی دور التمثیل وفی حلبات الألعاب ، ینتقلن فی المجتمعات الكریتیة وعلیهن سیاء العظمة والملل من التعظیم والتمجید . ولما أن صاغت الأمة أربابها كان هؤلاء الأرباب فی أكثر الأحيان أشبه بالنساء منهم بالرجال . وإن العلماء المبجلین المشغفین علی غیر علم منهم — شغفاً لا غضاضة علیهم فیه — بصورة الأم المنقوشة علی صفحات قلوبهم لبطاطئون رؤوسهم لإجلالاً أمام آثار المرأة فی هذه الحضارة ، ویقفون مذهولین أمام سلطانها العظم^(١٤) .

٢ - المجتمع

وسوف نفترض أن كريت في عهدها القديم كانت تقسمها جبالها أقساماً تسكنها عشائر قليلة العدد متحاسدة متباغضة ، تقيم في قرى منفصلة مستقلة ، يحكمها زعمائها ، وتتقاتل كما يتقاتل سائر الناس بفطرتهم . ثم يظهر من بين هؤلاء الزعماء زعيم قدير يضم عدداً من هذه العشائر تحت سلطانه ، ويؤلف منها مملكة ، ويشيد قصره الحصين في كنوسس أو فستوس أو تليوس أو غيرها من المدن ، ثم تصبح الحروب أقل عدداً وأكثر اتساعاً وأشد تفتيلاً . ثم تنضم المدن كلها وتحارب دفاعاً عن الجزيرة بأجمعها وتنتصر كنوسس ، وتنتشي المدينة المنتصرة أسطولا بحرياً تسيطر به على بجزائريه ، وتقضى على القراصنة ، وتفرض الخراج على غيرها من الجزائر ، وتناصر الفنون كما فعل بركليز فيما بعد^(١٩) . وهكذا تقوم الحضارة في إثار القراصنة ، والحق أن من الصعب قيام حضارة من غير سرقة كما أن من الصعب أن تبقى بغير عبيد(*) .

ويستند سلطان الملك ، كما يستند من الآثار ، على القوة والبطش ، وعلى الدين والقانون . وهو يغوى الآلهة ويستخدمها لمعونته ليجعل طاعة الناس إياه أيسر عليهم وأقل كلفة ، ويلقن كهنته الناس أنه من نسل فلكانوس Voichanos ، وأنه تلقى من هذا الإله القوانين التي يصدرها ، وإذا ما كان الملك قديراً أو سخياً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية ، ويتخذ الملك البلطة المزدوجة وزهرة الزئبق رمزاً لسلطانه كما فعلت رومة وفرنسا فيما بعد . وهو يستخدم في تصريف شئون الدولة (كما تشير بذلك أكاداس الألواح) طائفة من الوزراء وموظفي الدواوين والكتبة .

(٥) يقول توكيديد ، الحذر الدقيق ، إن أول شخص معروف تزعم الرواية التاريخية أنه بنى أسطولا هـ مينس وسيطر به على البحر المعروف باسم البحر الهيليني وحكم جزائر سكليس ... قد بذل غاية جهده ليقتضى على القرصة في ذلك البحر ، وكانت هذه خطوة لا يد منها لضم الخراج الذي يستخدمه في مصالحه .

وهو يجبي الضرائب عيناً ، ويحتزن في جرار ضخمة موارده من حب وزيت وخمر ، ومن هذه الموارد يؤدي رواتب رجاله عيناً . وهو يقضى وهو جالس على عرشه في القصر من مجلسه في بيته الملكي الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التي مرت بمحاكمه . وقد بلغ من شهرته في أحكامه أنه يصبح في الدار الآخرة بعد موته قاضى الموتى الذين لا مفر من عرض قضاياهم عليه^(٢١) ، كما يؤكد لنا هومر . ونحن نسميه في كتابنا مينوس ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه . ولعل هذا لقب لا اسم شبيه بلفظ فرعون أوقصر يطلق على عدد كبير من الملوك .

وتدل هذه الحضارة في ذروة مجدها على أنها حضارة مدن لا حضارة ريف . ونحدثنا الإلياذة عن « مدائن » كريت « التسعين » ، ويعجب اليونان الذين يفتحونها من كثرة سكانها . بل إن الدارس ليقف اليوم مرناحاً أمام شوارعها المخططة المرصوفة ذات المحارى ، وأمام أزقتها المتقاطعة ، وحوانيتها التي يخططها الحصر ، وميادينها المتجمعة حول مركز من مراكز التجارة أو الحكم ، حيث نرى الرجال محتشدين يتحدثون وهم ساكنون وادعون . وليست كنوس وحدها هي المدينة العظيمة ذات القصور الواسعة التي تغرى الخيال على أن يبالغ في عظمة المدينة التي كانت بلا ريب أكبر مصدر لثروة هذه القصور ، وأول ما يستفيد من ثروتها . ويقابل كنوس على شاطئ الجزيرة الجنوبي مدينة فستوس ، ومن مينائها « تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القائمة ، كما يقول هومر »^(٢٢) . وفي هذه المدينة تتجمع تجارة كريت المينوية الزاهية إلى الجنوب ، مضافاً إليها السلع التي يأتي بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحري الطويل . وتصبح فستوس بعدئذ لكريت كما كانت بيريوس لليونان ، تحب التجارة أكثر من حبها الفن ، ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم ، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها

خمساً وأربعين قدماً ؛ ولا تقل أبهاؤه وأفئنته عن مثيلاتها في كنوسس ؛ ففتاؤه الأوسط مربع مرصوف يبلغ اتساعه عشرة آلاف قدم مربعة ، وحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ، أى أكبر من الردهة العظيمة ، ردهة البلطة المزدوجة ، في العاصمة الشمالية .

وعلى بعد ميلين من فستوس في اتجاه الشمال الغربى منها تقع حاجياتريادا ؛ وإلى بيتها الملكى الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتقى حر الصيف . وكان طرف الجزيرة الشرقى في الأيام المينوية غنياً بالبلدان الصغيرة : سواء أكانت ثغوراً مثل زكرو ومكلوس ، أو قرى مثل پريسوس preasus وبسيرا pseira ، أو أحياء لسكنى العظماء مثل بليكسترو ، أو مراكز صناعية مثل جورنيا . والشارع الرئيسى في بليكسترو حسن الرصف كثير المحارى ، تقوم على جانبيه بيوت رحبة ؛ منها بيت يحتوى على ثلاث وعشرين حجرة في الطابق الذى بقى منه حتى الآن . ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجبس وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط ، وحانوت حداد لا يزال كبيره باقياً إلى الآن ، وحانوت نجار وجد فيه صنلوق يحتوى على عدد ، ومصانع تعج بصناع المعادن ؛ وصناع الأحذية والمزهريات ، وتكرير الزيت ، والنسيج ، وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار في هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناصد ذات ثلاث قوائم ، وجرار ، وفخار ، وأفران ، ومصاييح ، ومدى ، و « هاونات » ، وأدوات للصقل . وخطاطيف ، ودبابيس ، وخناجر ، وسيوف ، نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعريضهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفة الأنواع . ويطلقون عليها اسم « مدينة الآلات »^(٣٣) . وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا في هذه الأيام بدت لنا ضيقة ، فهى لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية الواقعة قرب المدارين ، والى تخشى حر الشمس اللافح ، أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر ، فلا ترتفع في الغالب

إلى أكثر من طابق واحد . غير أن ما وجد في كنوسس من النقوش الباقية من العصر المينوى الأوسط يصور بيوتاً من طابقين أو ثلاثة ، بل ومن خمسة أحياناً ، في أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير في بعض المواضع ، وفي الأطباق العليا من هذه البيوت المصورة نوافذ ذات ألواح حمراء مصنوعة من مادة لم تعرف بعد . ولحجرات الطابق الأسفل أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو توصل إلى فناء ظليل . ويصعد بدرجة إلى الأطباق العليا وإلى سطح المنزل حيث ينام الكريتيون في الليالي الشديدة الحرارة . أما إذا قضوا الليل في داخل البيوت فإنهم يضيئون بيوتهم بمصابيح زيتية تصنع من الصلصال أو حجر الصابون ، أو الجبس أو الرخام ، أو البرنز حسب ثروة أصحابها^(٢٤) .

ولسنا نعلم عن ألعاب الكريتى إلا شيئاً واحداً أو شيئاً لا أهمية لها ، فإذا كان داخل الدار فإنه يحب لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ، فقد خلف لنا في خرائب قصر كنوسس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الفضة والذهب ، واثنين وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة . فإذا كان الكريتى في الحقول فإنه يعتمد إلى الصيد بجرأة وحاسة ومعه قطط نصف برية ، وكلاب صيد أصيلة ضامرة . وإذا كان من سكان الحواضر شجع الملاكين ، ونراه يصور على مزهرياته وفي نقوشه البارزة أنواعاً مختلفة من المباريات ، يتلاكم فيها ذوو الأوزان الخفيفة بأيديهم العارية وأقدامهم ، وذو الأوزان المتوسطة يتلاكمون بقوة ، وعلى رؤوسهم خوذ مزدانة بالريش ، وذو الأوزان الثقيلة يدلون بخوذهم وأقنعة خدودهم وقفازاتهم الطويلة المبطنة ، وبواصلون الملاكمة حتى يسقط أحدهم على الأرض من فرط الإعياء ، ويقف الثاني فوقه يتباهى بما أحرزه من نصر^(٢٥) .

ولكن أكثر ما يثير حاسة الكريتى أن يشق طريقه بين الجموع التي تملأ المدرج في يوم من أيام الأعياد ليرى الرجال والنساء يواجهون الموت أمام

هجمات الثيران الهائجة . وكثيراً ما يصور مراحل هذا الصراع الوحشي الشديد ، يصور الصائد الجريء يقتنص الثور بأن يقفز فوق عنقه وينزل ساقيه على جانبيه وهو يشرب الماء من إحدى البرك ؛ ويصور المروض المحترف وهو يلوى رأس الثور حتى يتعلم شيئاً من الخضوع لحيل المدرب البغيضة ؛ ثم المجتهد الماهر النحيل الجسم الخفيف الحركة وهو يلتقي بالثور في الحلبة ، ويمسك بقرنيه ، ويقفز في الهواء ، وينقلب فوق ظهر الحيوان ، ثم ينزل برجليه على الأرض بين ذراعي فتاة تضفي على المنظر من جمالها وزشاقها^(٢٦) . ولقد أصبح هذا الصراع حتى في كريت المينوية من الألعاب القديمة التي طال بها العهد ؛ فقد عثر في كيدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعزى تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق . م ، وتمثل صراع ثور لا يقل في شدته أخطارته عما هو مصور في المظلمات السالفة الذكر^(٢٧) . وإذا ما قلبنا الفكر في هذه اللعبة الدالة على شجاعة الإنسان وتعطشه لسفك الدماء ، والتي لا تزال منتشرة في هذه الأيام ، وعرفنا أنها قديمة قدم الحضارة نفسها ، وإذا ما فعلنا ذلك أدركت عقولنا المولعة بتبسيط الأمور والامتهان بها — وإن كان هذا الإدراك لا يدوم إلا لحظات — ما في الطبيعة البشرية من تناقض وتعقيد .

٣ — الدين

ربما كان الكريتي وحشياً قاسياً ، ولكنه كان بلا شك متديناً يتركب من مزيج بشري كامل من الفيتشية والخرافة من جهة والمثالية وتعظيم الأرباب من جهة أخرى ؛ فهو يعبد الجبال والمغارات ، والعدد ٣ ، والأشجار ، والأعمدة ، والشمس والقمر ، والمعز والأفاعي ، واليمام والثيران ، وقلما يسلم شيء من عبادته . والهواء في اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث ، وتنقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفاقة من جن الحراج منها الذكور ومنها الإناث .

وهو لا يعبد عضو التذكير عبادة ، ولكنه يعظم فى رهبة وخشوع ما فى الثور والأفعى من قوة حيوية منتجة^(٢٨) . وإذ كان معدل الوفيات بين الكريتيين كبيراً فإنه يعظم الإخصاب ، وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشرى بصور لنفسه إلهته أما ذات ثديين وجسم فارح الطول ، وأفاع تلتف حول ذراعيها وتديها ، وتتلوى فى شعرها أو تتدلى فى أنفها وكبرياء من رأسها . وهو يرى فى هذه الإلهة الأم الحقيقة الأساسية من حقائق الطبيعة ، وهى أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر ، وهو لذلك يؤله هذه القدرة . فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها فى النبات والحيوان والإنسان . وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا أن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة ، وهما لذلك يرمان لها ولما ينبعث منها . وهى تظهر فى بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلاً قدسياً هو فلكانوس ولدته فى مغارة جبلية^(٢٩) ، وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها ليزيس وحورس ، وإشتار وتموز ، وسبييل وأتيس ، وأفرديتى وأدنيس ، وأحسستا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ ، واتصال الآراء والرموز الدينية فى عالم البحر المتوسط بعضها ببعض .

وزيوس الكريتيين ، وهو الاسم الذى يطلقه اليونان على فلكانوس ، أقل منزلة من أمه فى حب الكريتيين ، ولكنه يزداد أهمية على مر الأيام . فقيه يتمثل المطر المخصب ، والرطوبة التى يرى هذا الدين كما يرى طاليس أنها أساس كل شئ . وهو يموت ثم يشاهد الناس ضريحه جيلاً بعد جيل على جبل يوكتاس Juktas ، ولا تزال صفحة وجهه الفخمة الجلية تظهر للسائح القوى الخيال ، ثم يقوم من قبره ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة ، ويحتفل القيسيون ببعثه المجد بالرقص والضرب بالدرع^(٣٠) ، وهو بوصفه إلهاً للخصب يتصور أحياناً كأنه حل فى جسم الثور المقدس ، وهو بهذه الصفة

يضاجع باسفيا زوجة مينوس فى الخرافات الكريتية قتلد له ثور مينوس المهول أو المينوتور .

ويعبد الكريتى لاسترضاء هذه الآلهة إلى طقوس لاحصر لها من الصلوات والتضحيات ، والرموز ، والاحتفالات ، بقيمها فى العادة كاهنات من النساء ، وبقيمها فى بعض الأحيان موظفون من رجال الدولة . وهو يطرد الشياطين ويتقى أذاها بحرق البخور ، ويستثير الإله الغافل بالنفخ فى صدفة بحر زدوجة ، وبالقيثارة أو الناي ، وينشد الأناشيد الجماعية تعبداً وخشوعاً . ويعمل على إنماء البساتين والحقول بإرواء أشجارها ونباتها بمراسم دينية ، وترى كاهنات البلاد وهن عاريات هائجات يهزرن الأشجار التى نضجت ثمارها لتسقط حملها ، أو نساءها يسرن فى مواكب يحملن الفاكهة والأزهار يقدمنها للآلهة التى يحملنها فى هودج ويومثن بها إليها . والظاهر أن الكريتى لم يبن له معبداً ولكنه كان يقيم مذبح القربان فى بهو القصر أو فى الأليك أو المغارات المقدسة أو على قلل الجبال . وهو يزين هذه الأماكن المقدسة بأن يضع فيها مناضد يصب عليها السوائل قرباناً للأرباب ، وأصناماً مختلفة الأشكال و « قروناً قدسية » لعلها ترمز إلى الثور المقدس . والرموز المقدسة عند الكريتى لاحصر لها ، ويلوح أنه يعبد هذه الرموز كما يعبد الآلهة التى تدل عليها . ومن هذه الرموز الدرع ولعله كان يراه رمزاً للآلهة فى صورتها الحربية ، ثم الصايب — فى صورته اليونانية والرومانية — يحفره على جبهة ثور أو على فخذ إلهة أو ينقشه على خواتم ، أو بقيمه من الرخام فى قصر الملك . وأهم هذه الرموز كلها البلطة المزدوجة بوصفها آلة التضحية ، وقد أضحت لها قوة سحرية عظيمة اكتسبتها من فضيلة الدم الذى تسفكه ، أو سلاحاً مقدساً يهديه الإله فلا يخطئ قط ، أو رمزاً لزبوس الذى يرسل الرعد ويشق السماء بصواعقه (٣١) .

وهو إلى هذا كله يعنى بعض العناية بموتاه ، ويعبدهم عبادة لا تسمى إلى عبادة الآلهة السالفة الذكر . فهو يدفنهم فى توايت من الصلصال أو فى جرار ضخمة ، لأنهم إذا لم يدفنوا على هذا النحو قد يعودون إلى الحياة الدنيا . وهو يعمل على أن يظلوا راضين قانعين تحت الأرض بأن يضع معهم قلراً غير كثير من الطعام ، وأدوات الزينة ، ودى صغيرة من الصلصال فى صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر . وهو يعمد أحياناً إلى الخداع مدفوعاً برغبته فى الاقتصاد الذى يطبقه تشككه البدائى ، فيستبدل بالطعام الحقيقى حيوانات من الصلصال يضعها فى القبر إلى جانب موتاه . وإذا دفن ملكاً أو نبيلاً أو تاجراً ثرياً وضع مع جثته بعض الصحف الثمينة أو الحلى التى كانت ملكاً لصاحب هذه الجثة ، وبضع أدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر ، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقى ، وقارباً مع من كان مولعاً بركوب البحار . ألا ما أكثر ما يدل عليه هذا العمل من عطف على الأموات ! وهو يأتى إلى القبر فى مواسم معينة ليقدم للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم ، وهو يرجو أن يستقبل ردمثس Rhademanthus الإله العادل ابن زيوس فلكانوس الروح الذى تطهر ليهبه السعادة والسلام للذين لا بقاء لها على ظهر هذه الأرض .

٤ - الثقافة

أصعب ما يواجهنا فى حضارة الكريتيين هو لغتهم . فالكريتى حين يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده ، إنما يستخلمها ليدون بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام اليونانى المعروف وأقرب منه شهاً بلغات الشرق الأدنى المصرية والقبرصية والحبشية والأناضولية . وقد اقتصر فى أقدم المصور على الرموز التصويرية ، ثم بدأ حوالى ١٨٠٠ ق . م

يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية ، وبعد مائتي عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية : ولعل الفينيقيين قد جمعوا منه ومن المصريين والساميين تلك الحروف التي نشروها فيما بعد في جميع البلاد المطلة على البحر المتوسط ، والتي أصبحت الأداة الفعالة في الحضارة الغربية . والكريتي العamy نفسه ينطق بما توحى به إليه شاعريته ، وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا ، مثله في ذلك مثل الأخصاء من ساسة تلك الأيام . وإنا لنجد في قستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمئة ما قبل التاريخ . فقد كشف في تلك المدينة قرص كبير من الطور الثالث من أطوار الحضارة المينية الوسطى ، طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام لكل رمز منها خاتم ؛ ولكن الذى يزيد من حيرتنا فى أمر هذه الرموز أنها ليست كريتية بل أجنبية ، وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية (٣٢) .

وربما كشفت الألواح الطينية ، التى كان الكريتي يكتب عليها ، فى يوم من الأيام ما كان عنده من العلوم . أما الآن فكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان على علم بشيء من الفلك لأنه اشتهر بأنه ملاح ماهر ؛ وتقول الرواية إن الدورين الذين استوطنوا كريت فيما بعد قد أخذوا التقويم عن المينويين . ويعترف المصريون بأنهم مدينون للكريتيين ببعض الوصفات الطبية ، وقد أخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية كالنعناع (mintha) ، والشيخ الرومى (aspithon) ، وعقاراً آخر مفيداً كل الفائدة يقال إنه يشفى البدانة من غير حاجة إلى الاقتصاد فى الطعام (٣٣) كما تدل على ذلك أسماء هذه الأعشاب وهذا العقار . ولكن من واجبنا ألا نضع الحدس والتخمين فى مكان التاريخ الصحيح .

وفى وسعنا أن نتأمل خرائب دور التمثيل الكريتية وإن كانت آدابهم

لا تزال كتاباً مغلفاً محتفظاً بجميع أسرارهِ . فقد بنى الكريتيون في فستوس حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام ، كما أقاموا في كنوسس ثمانية عشر صفّاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً . وهذه الدور التي تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل - فهي أقدم من ملهى ديونيسيوس بألف وخمسمائة عام . ولسنا نعرف ماذا كان يحدث على مسارح هذه الدور ، فالمظلمات تصور النظارة يشاهدون منظراً ما ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا المظر الذي يشاهدونه ، وأكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص . وقد احتفظت لنا صورة وجدت في كنوسس بطائفة من سيدات الطبقة الراقية ، ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ، ذوات « الثقب » في أيكّة من شجر الزيتون ، وتمثل صورة أخرى راقصة تنوس غداثرها وتمد ذراعها ؛ وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية ؛ أو رقصات الكهنة والكاهنات والمتعبدن القوية أمام صنم أو شجرة مقدسة

ويصف هومر المرقص الذي أنشأه ديداوس يوماً من الأيام في كنوسس العريضة لأدريادنى ذات الشعر الجميل ، وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فانتات مغريات يتماسكون بالأيدي . . . على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر من رجال الدين «^(١٢٤) . وترى القيثارة ذات السبعة الأوتار : التي يعزوا اليونان اختراعها إلى عبقرية تريندر. Terpander ، مصررة على تابوت في حاجيا تريادا قبل أن يولد تريندر بألف عام . وهناك أيضاً الناي والمزمار ذو الأنبوبتين والثمانية الحروق والأربع عشرة نغمة بالصورة التي نجدها عند اليونان الأقدمين . ونرى على إحدى الحلى نقشاً يمثل امرأة تنفخ في بوق مصنوع من صدفة ضخمة كما نرى على زهرية جلالجل تضبط الوقت لأقدام أم الراقصات .

(٤ - ج ١ - مجلد ٢)

وروح النضارة والمرح والخفة التي تبعث البهجة في رقص الكريتي ولعبه هي نفسها التي تبعث الحياة في أعماله الفنية . ولم يخلف لنا الكريتي من مبانيه شيئاً من الأعمال ذات الأبهة والفخامة ، أو ذات الطراز الراقى العظيم ؛ بل نراه يفعل ما يفعله الياباني في عصر السمو راى ؛ فيجد اللذة والبهجة فيما تمتاز به الفنون الصغيرة من دقة ، وفي تزيين الأدوات التي يستخدمها في حياته اليومية ، وفي إحكام صنع الأشياء الصغيرة والوصول بها إلى درجة الكمال . وهو يقبل ما يمليه عليه العرف في الشكل وفي الموضوع شأن كل الحضارات الأرستقراطية ، ويتحاشى البدع المفرطة في الجدة ، ويتعلم الحرية داخل قيود الذوق والمحافظة على القديم . وقد برع الكريتي في صناعة الفخار ، وفي قطع الجواهر ، وفي حفر مواضع القصص في الخواتم ، وفي النقوش البارزة حيث تتاح له الفرصة لإظهار ما طبع عليه من مهارة ودقة . وهو لا يجد صعوبة في صياغة الذهب والفضة ، وتركيب الأحجار الكريمة ، وصنع أنواع كثيرة من المجوهرات . وهو يحفر على الأختام التي يصنعها ليوقع بها الوثائق الرسمية والبطاقات التجارية والصكوك المالية ، يحفر على هذه الأختام كثيراً من مظاهر الحياة العادية مفصلة دقيقة ، وكثيراً من مناظر كريت الطبيعية ، تكفى وحدها لأن نتصور منها ما كانت عليه الحضارة الكريتيّة . وهو يصنع من البرنز طاسات ، وأباريق ، وخناجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة . وقد خلف لنا في جورنيا Gournia ، رغم عبث الاصول مدى ثلاثة آلاف عام ؛ كأساً من الفضة مصقولة صقلاً فنياً جميلاً ، كما خلف في أماكن متفرقة من الجزيرة ، قروناً للشراب تبرز من رؤوس الآدميين أو الحيوان يكاد الإنسان حتى في هذه الأيام يحس فيها أنفاس الحياة .

ولم يتروك شكلاً من أشكال الفخار إلا صنعه وبرز في هذه الأشكال كلها تقريباً ، فقد صنع المزهربات ، والصحاف ، والفناجين ، وأقداح الشراب ،

والمصاييح والجرار والحيوانات والآلهة . وقد كان في بادئ الأمر ، في العهد المينوى الأول ، يقنع بتشكيل هذه الآنية بيده ، حسب الأنماط التي ورثها عن العصر الحجري الحديث . وكان يطلبها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال . ثم عرف في العهد المينوى الأوسط استخدام عجلة الفخرائى ليلبغ بها الذروة فى المهارة ، وهو يتطلبها فى العهد بطبقة زجاجية تماثل فى تماسقها ورقها طلاء الخرف ، وينشر عليها فى غير نظام الألوان السوداء والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء ، والبرتقالية ، والصفراء ، والقرمزىة ، والحمراء القانية ، ويمزجها فيخرج منها ظلالا جديدة ؛ وهو يرقق الصلصال ترقيقاً وصل إلى حد الكمال فى الآنية الجميلة الزاهية الألوان الرقيقة الجدران التى وجدت فى كهف كمارس Kamares على جبل أيدا Ida ، والتى لا يزيد سمك جدرانها على ملليمتر واحد ، وقد أفرغ على هذه الآنية كل ما وهب من خصب الخيال : وبلغت صناعة الفخار فى كريت ذروة مجدها بين عامى ٢١٠٠ ، ١٩٥٠ ق . م وترى الصانع يوقع باسمه على ما يصنع ، ويحرص أهل بلاد البحر المتوسط على اقتناء مصنوعاته ، وفى العهد المينوى المتأخر يطبق أصول الفن إلى أقصى حد على صناعة الفخار الرقيق ، فيصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزجية وآلهات متعددة الألوان ، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد أن تكون هى والحيوانات الحقيقية سواء . وهل هناك أدل على هذا من أن ليفنز رأى سرطاناً بحرياً من الميناء فظنه سرطاناً متحجراً^(٣٥) . وفى ذلك العهد ترى الفنان يشق الطبيعة ويسره أن يمثل على آنيته أنشط الحيوانات حركة ، وأزهى الأسماك لوناً ، وأرق الأزهار أوراقاً ، وأجمل النباتات شكلاً . وهو يخرج روائع الفن الخالدة فى الطور الأول من أطوار العصر المينوى المتأخر أمثال مزهرية الملاكين ومزهريه الحصادين ؛ فى الأولى يصور القسوة بجميع أشكالها ومواقفها فى ألعاب الملاكمة ، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعى الثيران ، وفى

الثانية يتتبع بمنتهى الدقة والإخلاص موكباً لعله موكب الفلاحين يمشون يغنون في عيد ، ثم تضعف تقاليد الفخار الكريتي ويضمحل فنه ، وينسى الصناعات تخطيطهم وذوقهم ، فتغطي الزخارف المزهرية من أولها إلى آخرها في غير نظام ، ويعجز الصناعات عن التفكير البطيء والتنفيذ في صبر وأناة ، ويحل الإهمال والتراخي اللذان ينتحلان اسم الحرية محل الدقة والصقل اللذين عهدناهما في عصر كمارس . وليس من حقنا أن نلوم الكريتين على هذا الاضمحلال فهو الموت الذي لا مفر منه والذي لا بد أن يلاقيه الفن إذا بلغ سن الشيخوخة وخارت قواه ، فيستغرق في سبات مدى ألف عام ، ثم يولد من جديد ، ويبلغ منتهى الكمال في المزهرية الأنكية .

وفن النحت من الفنون الصغرى في كريت ، وقلما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة إلا في النقوش المنخفضة وفي قصة ديدلوس . وكثير من هذه التماثيل الصغرى فجأة لا تخرج عن نمط واحد جرى به العرف وثبت عليه ؛ ويبدو أنها كانت تصنع من غير مثال تحتذيه . ومن هذه تماثيل من العاج يمثل لاعباً رياضياً ساعة أن يقفز في الهواء ؛ ومنها رأس جميل ضاع جسمه في أثناء انتقاله إلينا خلال القرون الطوال . وخير هذه التماثيل يفوق في دقة التشريح وفي وضوح الحركات كل ما عرفناه من تماثيل اليونان قبل أيام ميرون Myron . وأغربها كلها إلهة الأفاعى المحفوظة في متحف بُسطن - وهي تماثيل قوى من العاج والذهب نصصها أنثى ونصفها أفعى ؛ وفي هذا يعالج المثال آخر الأمر الجسم الآدمي بشيء من سعة الإدراك والنجاح . ولكنه حين يريد أن يمثل الضخامة يعتمد في الغالب إلى تمثيل الحيوانات ويقتصر على النقوش البارزة الملونة ، كما نرى ذلك في رأس الثور المحفوظ في متحف هركيولانيوم ؛ وفي هذا الأثر المدهش نرى العينين الوحشيتين ، والمنخارين الناخرين ، والفم اللاهث ، واللسان

المرتحف ، وكل هذه قد بلغت من القوة درجة لن تفوقها بلاد اليونان نفسها في أى عهد من عهودها .

وأكثر ما يستلفت النظر في كريت القديمة هو تصويرها . ذلك أن النحت معتل لا يؤبه له ، وما عثر عليه من الفخار قليل معظمه قطع متفرقة ، وعمارتها كلها أطلال دارسة ؛ ولكن أجمل الفنون كلها ، وهو الذى يقع فريسة سهلة لعوادى الزمان الذى لا يرحم ، قد أبقي لنا روائع نستطيع أن ندرسها وتستثير إعجابنا من عصر بلغ من القدم حداً سقط من ذاكرة اليونان الأقدمين ، وهم الذين لم يبق من تصويرهم على حدائث عهده بالقياس إلى تصوير الكريتيين صورة واحدة أصيلة . وقد أبقت الزلازل والحروب التى دكت القصور في كريت على مظلم في جدار هنا وآخر في جدار هناك . وإذا ما جلنا في هذه القصور المخربة ، ونخطينا أربعين قرناً من الزمان ، والتقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين رأيناهم في عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد يضعون على الجدران طبقة من الجير النقي ، ويهدبهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل ، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه . وقد استطاعوا بمحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضاء ، فيستنبتون الحص زنبقاً ، وسوسنا ، ونرجسا ، وبردقوشا . وما من أحد شاهد هذه المناظر ثم قال مع القائلين إن روسو قد أزاح الستار عن الطبيعة . ونرى في متحف هركيولانيوم جامع الزعفران حريصاً على قطف زهره كما صورته مصوره في العصر المينوى الأوسط ؛ ونرى وسطه رفيعاً إلى حد ينفر منه الذوق ، كما يبدو جسمه طويلاً لا يتناسب مع ساقه ، ولكننا نرى رأسه متنقن التصوير خالياً من العيوب ، ونرى الألوان هادئة والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام . وفي حاجيا تريادا يزين الرسام تابوتا برسوم لخلائق غريبة نكاد نقول إنها نوبية منهمكة في طقوس دينية ؛ وخير من هذا كله ما زين به أحد الجدران من أشجار تتماوجة يدس بينها — وإن

لم يحفظها عن العين بل يتركها واضحة جلية - قطة متحفزة ، تستعد للهجوم دون أن يراها أحد على طائر ملط بنفسه ينشئ ريشه في الشمس . ويصل الرسام الكريتي في العصر المينوي المتأخر إلى ذروة مجده ، فكل جدار يغريه وكل ثرى يستدعيه ، وهو لا ينقش مساكن الملوك وحدها ، بل ينقش بيوت النبلاء وأثرياء البلاد ، ويزينها بما لا يقل عن زينة بيوت ممجي . على أن نجاحه هذا وكثرة ما ينال عليه من الطلبات لا يلبثان حتى يفسدا عليه أمره ، وسرعان ما يؤدي حرصه على أن ينتهى مما بين يديه إلى قصوره عن الارتقاء إلى ما يقرب من الكمال فيما يصنع ، فيفضل الكم على الكيف ، ويكرر رسوم الأزهار حتى يمل الناظر إليها من التكرار ، ويصور الرجال بصور لا وجود لها في الحياة الواقعية ، ويقنع برسم الخطوط الخارجية ، وينحط بفننه إلى المستوى الذى يدرك فيه أن هذا الفن قد جاوز مجده الأعلى وأنه قد آن أوان موته . ولكن من حقه علينا أن نقول إن التصوير لم يمثل الطبيعة بمثل النضارة التى مثلها بها التصوير الكريتي ، مع جواز استثناء مصر القديمة وحدها من هذا التعميم .

وتتضافر الفنون كلها على بناء القصور الكريتيّة ، فالقوة السياسية ، والسيادة التجارية ، والثراء ، والترف ، وما تجمع في البلاد من رقة وسمو في الذوق ، كل هذا يحتم على المهندس ، والبانى ، والصانع ، والمثال ، وصانع الفخار والمعادن ، والنجار ، والمصور ، يحتم على هؤلاء كلهم أن يجمعوا ما وهبهم الله من حذق ليشيدوا به طائفة من حجرات ملكية ، ومكاتب إدارية ، وملاه ، وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتيّة ومشاهد رقيها وعظمتها . يبنون في القرن الحادى والعشرين ثم يهدم بنيانهم في القرن العشرين ، فإذا جاء في القرن السابع عشر لا يكتفون فيه ببناء قصر مينوس بل يشيدون كثيراً غيره من الصروح الفخمة في كنوسس وفى نحو خمسين مدينة أخرى في الجزيرة المثريّة الرخية . ولقد كان عصر الحضارة الكريتيّة من أزهى العصور في تاريخ العارة .

وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوس كانت تقصصهم وفرة مواد البناء والرجال ؛ فالمعادن قليلة في كريت والرخاء لا وجود له فيها على الإطلاق ، ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس ، ويستخدمون الخشب في إنشاء الأروقة المقامة على العمدة والسقف وجميع الأعمدة التي فوق الطابق الأرضي . وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً محدداً دقيقاً يستطيعون به أن يضموها في أماكنها من غير ملاط . وهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربعة ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرق إليها بدرجات حجرية واسعة ، وتحتوى على ما لا حصر له من الحجرات مراكز للحراسة ، وحوانيت ، ومعاصر للخمر ، ومخازن ، ومكاتب لتصرف شئون الدولة ، ومساكن للخدم ، وحجرات للانتظار ، وأخرى للاستقبال ، ومخادع ، ومعبد ، وجب ، وحجرة عرش ، وبهو للبلطة المزدوجة ، ، وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل ، وقصر صغير ذو حديقة ، ومقبرة . وفي الطابق الأسفل من القصر أقاموا عمداً مربعة ضخمة من الحجارة ، وأما في الأطباق العليا فقد أقاموها من خشب السرو . والغريب في هذه العمدة أنها رفيعة من أسافلها ثم تتدرج في السمك إلى أعاليها ، لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة أو لتلقى بظلالها على جانبيها . وفي داخل هذا القصر وضع بناؤه مقعداً حجرياً ، مستنداً في مكان أمين إلى جدار جميل النقش ، وهذا المقعد الحجري منحوت نحتاً بسيطاً ولكنه يشهد بمهارة من نحت وحذقه ، ويسمى الحمارون المستكشفون هذا المقعد الحجري عرش مينوس ، وفي وسع كل سائح جوال أن يجلس عليه في تواضع واحتشام ويتصور نفسه برهة من الزمان مسيطراً على هذا المقعد الذي يزيد على بضعة أشبار . وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابرنت) أو هيكل البلطة المزدوجة (لبريس Labryth) الذي يعزوه الأقدمون إلى

ديدولوس والذي خلغ اسمه فيما بعد على كل شيء أكثر التعاريج سواء كان(*)
حجرات أو ألقاها أو أذناناً(٣٧) .

وكان الذين شادوا مدينة كنوسس قد أرادوا أن يدخلوا السرور على
التفيعين أهل هذه الأيام الذين يهتمون بأنايب المياه أكثر من اهتمامهم
بالشعر ، فجهزوا القصر بنظام لصرف مائه وفضلاته أرقى من كل نظام
مماثل له في التاريخ القديم . فقد كانوا يجمعون في قنوات حجرية الماء الذي
يسيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسبرونه في أسطوانات مجوفة
إلى حمامات(**) ومراحيض ، ثم يتقاون الفضلات في أنابيب من الصلصال
المحروق مصنوعة على أحسن طراز - كل قسم منها طول قطره ست
بوصات ، وطوله ثلاثون بوصة ، مزود بشرك لحجز الرواسب ، وممتد
بطرف رفيع يدخل به في القسم الذي يليه ، ويرتبط به ربطاً محكماً
يرباط من الأسمنت(٣٨) . وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكي بالماء
الساخن(٣٩) (†)

وقد زين الفنانون في كنوسس داخل القصر على سعته بأرق وسائل
البريق . فجملوا بعض الحجرات بالملزهريات والتماثيل الصغيرة ، وبعضها
الأخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة ، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية

(*) ليس قد لنا حجرات إلا افتراضاً محضاً بطبيعة الحال . وجدي بنا أن نضيف إلى
هذا أن ما استخرج من نقوش القصر قد نقل كله إلى متحف هركيه لانيوم أرغيره من
المخاض ، وأن كثيراً مما بقي منه في موضعه قد رُم قزماً مجرداً من الذوق .
(**) لم يعد المؤرخون الآن متفقين على أن الفجوات المربعة التي حثروا عليها في أرض
بعض الحجرات كانت حمامات ، وحجبتهم في هذا أنها لا منفذ لها وأنها مصنوعة من الجبس
وهو ما يذيبه الماء شيئاً فشيئاً(٣٧) .

(†) عثر مو Mosso على أنابيب للصرف شبيهة بهذه في البيت الخالي المقام في
حاجياتريادا ، وقد وصفها بقوله : « لقد أدهشني أن أرى في يوم من الأيام سقط فيه المطر
مداراً أن كل وسائل صرف المياه تعمل عملها بمنتهى الدقة والإتقان ، ولقد رأيت المياه
في البالعات التي يستطيع الرجل أن يسير فيها واقفاً على قدميه . وإن لأشك في أن نظاماً آخر
للسرف غير هذا النظام قد بقي يؤدي عمله بعد أربعة آلاف عام من إنشائه »(٤٠) .

الضخمة ، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرنز ، وأقاموا حول أحد الجدران طناً من حجر الجير عليه ألواح ذات ثلاثة حوز متساوية الأبعاد ، وأنصاف ورود ، ونقشوا حول جدار آخر عدداً من اللوالب على سطح طلي يمثّل الرخام ؛ وحول جدار ثالث نقشوا صراعاً بين رجل وثور ، تجلّت فيه جميع دقائق الصراع بغاية الوضوح ، ونشر المصور المينوي في جميع الأبناء والحجرات كل ما احتواه فنه المبهج من أيجاد ، فصور لنا في إحدى حجرات الاستقبال سيدات في ثياب زرقاء فاجأهن وهن يثرثرن ، وأبرز معارفهن ، وأذرعهن الجميلة ، وصدورهن ، وأنداءهن الدفينة ؛ وصور على جدار غيره حقولاً من الأزورد والنيلوفر وغصون الزيتون ، وعلى جدار آخر سيدات في دار التمثيل ، ودلافين تسبح من غير حركة في ما البحر . وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت ، صورة الساقى المنتصب القامة ، والقوى البنية ، يحمل دهاناً ثميناً في وعاء أزرق رفيع ، وقد جمّلت وجهه تربيته ويد الفنان ، وتدلّى شعره في غديرة سمكة على كتفيه الأسمرين وتلاّلت الحلّى في أذنيه ، وحول عنقه وفراعيه ومنطقته ، وزين ثوبه الغالى بصور جميلة لبعض الأزهار . وما من شك في أن هذا الساقى ليس من الرقيق ، بل هو شاب من أبناء الأشراف يفخر بما نال من شرف خدمة الملك . وجملة القول أن ليس في مقدور حضارة ما أن تتطلب أو تخلق مثل هذا الترف وهذه الزينة إلا إذا كان قد طال عهدا بالنظام ، والثراء ، والفراغ ، وسلامة النوق .

الفصل الرابع

سقوط كنوسس

إذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الحضارة الباهرة نبحت عن أصلها ، وجدنا أنفسنا نتقلب بين آسية ومصر . فالكريتيون يبدون من جهة شديدي الصلة بالشعوب الهنديرية التي تسكن آسية الصغرى ؛ ففى هذه البلاد كما فى كريت تستخدم ألواح الصلصال للكتابة ، وكان فيها الشاقل وحدة الموازين . وفى كاريا من أعمالها كان يعبد زيوس لبرنديوس Zeus Labrandeus أى زيوس ذو البلطة المزدوجة Labrys ، وفيها كان الناس يعبدون الأعمدة والثور والجمامة ، وفى فريجيا كانت سييل العظيمة الشبيهة كل الشبه بالأم الإلهة فى كريت حتى لقد أطلق اليونان على هذه الأم اسم ريا سييل Rhea Cybele وعدوا الاثنتين إلهة واحدة (١٠) .

ومع هذا كله فإن الشواهد الدالة على أثر مصر فى كريت كثيرة فى كل عصر من عصور تاريخها . وقد بلغ تشابه الثقافتين فى أول عهديهما حدًا جعل بعض العلماء يظنون أن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذى وقع فى عهد مينا (١١) . فالآنية الحجرية التى كشفت فى مكولوس والأسلحة النحاسية الباقية من الطور الأول من العصر المينوى القديم ، تشبه ما وجد من نوعها فى مقابر الأسر المصرية الأولى شهاً يثير العجب ، والبلطة المزدوجة تظهر على شكل تيممة فى مصر بل يظهر فيها كذلك « كاهن البلطة المزدوجة » . والموازين والمكايل الكريتية مصرية فى شكلها إن كانت أسيوية فى قيمتها ؛ والأساليب المستخدمة فى النقش على الحجارة

الكريمة ، وفي فن الخزف والتصوير تنشايه في البلدين تشابهاً جعل اسبنجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعاً من الحضارة المصرية^(٤٣) .

ولكننا لن ننهج نهج اسبنجلر لأننا لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فردية الأجزاء في كلتا الحضارتين ، فالصفة الكريتية واضحة في حضارتها كل الوضوح مميزة أشد التميز ، ولسنا نجد في العالم القديم شيئاً آخر امتاز بالركة في دقائق الفن وبالرشاقة المركزة في الحياة والفن . ولنسلم جدلاً بأن الثقافة الكريتية أسيوية في نشأتها العنصرية ، مصرية في كثير من فنونها ، غير أنها في جوهرها وفي كليتها تبقى حضارة فذة ، وربما كانت تنتمي إلى خليط معقد من الحضارات شأن جميع البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط ، حيث ورثت كل أمة فنوناً وعقائد وأساليب متماثلة متقاربة نشأت من ثقافة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث كانت واسعة الانتشار في تلك البلاد وقامت عليها حضارتها .

ومن هذه الحضارة المشتركة أخذت كريت في شبابه وأمدتها بقسط بعد نضجها . وبفضل حكمها ساد النظام في الجزائر المجاورة لها ودخل تجارها في كل ثغر من ثغورها ، ثم استقرت مصنوعات وفنونها في جزائر سكلديس وعمت قبرص ، ووصلت إلى كارييا وفلسطين^(٤٣) ، ثم سارت شمالاً إلى آسية الصغرى والجزائر المجاورة لها حتى بلغت طروادة ، واجتازت في ناحية الغرب إيطاليا وصقلية إلى أسبانيا^(٤٤) ، وعمت بلاد اليونان حتى تساليا ، وبقيت في تراث اليونان عن طريق مسيسيني وتيرنز ، وبذلك كانت كريت في تاريخ الحضارة الحلقة الأولى في سلسلة الحضارة الأوربية .

ولسنا نعرف أى طرق الاضمحلال الكثيرة هي الطريق التي سلكتها كريت اضمحلالها ، أو لعلها سلكت هذه الطرق الكثيرة كلها ، فقد اختفى ما كانت تشتهر به من غابات السرو والأرز ، وأضحى ثلثا الجزيرة اليوم صخوراً

حجرية صماء لا تستطيع الاحتفاظ بمياه الأمطار الشتوية^(٥٠) . ولعل أهلها هي أيضاً قد أسرفوا في تحديد النسل كما تسرف سائر الحضارات في عصور اضمحلالها، وتركوا الإكثار للعجزة والضعفاء . ولعل ازدياد الثروة والترف وما أعقبه من انهماك في الملذات الجسدية قد أضعف ما في السكان من حيوية ، وأضعف إرادتهم في أن يعيشوا ويدافعوا عن أنفسهم ، ذلك أن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية . ولعل انهيار مصر بعد موت إخناتون قد أحدث اضطراباً في التجارة التي كانت قائمة بين مصر وكريت ، وقلل من ثراء الملوك المينويين ؛ وغير خاف أن كريت ليس فيها موارد داخلية واسعة ، وأن رخاءها إنما يعتمد على التجارة وعلى الأسواق الخارجية لتصريف مصنوعاتها ، ولذلك أصبحت كإنجلترا في الوقت الحاضر تعتمد اعتماداً شديداً الخطورة على سيطرتها البحرية . وربما كانت الحروب الخارجية قد قضت على الكثيرين من شبانها الأقوياء ، وتركت الجزيرة منقسمة مفككة لا تستطيع صد الغزاة الأجانب . وربما كانت الزلازل قد دكت قصورها ، أو أن أهلها قد انتقموا لأنفسهم في ثورة عنيفة مما قاسوه من ظلم واستبداد قروناً طوالا .

ذلك ما لا نعلمه علم اليقين ، وأما الذي لا شك فيه فهو أن قصر فستوس قد دمر مرة أخرى في عام ١٤٥٠ ، وأن قصر حاجيا تريادا قد التهمته النيران ، وأن بيوت الأثرياء في توليسوس قد اختفت من الوجود . ويلوح أن كنوسس كانت في الخمسين سنة التي تلت ذلك العهد تستمتع بأعظم ما وصلت إليه من ثراء ، ومن سلطان لا ينازعها فيه منازع في جميع أنحاء بحر إيجه . وفي عام ١٤٥٠ التهمت النيران قصر كنوسس نفسه ، فقد عثر إيفنز في كل مكان فيه على شواهد دالة على اندلاع اللهب الذي لم يقو الأهليون على حصره — من كتل خشبية وأعمدة محترقة ، وأسرار مسودة ، وألواح طينية قد جمدها حرارة النار حتى استعصت على أنياب الزمان ، ولقد كان الدمار شاملا ، وكان اختفاء العادنان حتى من الحجرات التي غطتها الأنقاض وحمتها من النيران كاملا ،

مما جعل كثيرين من العلماء يظنون أن هذا الدمار(*) من فعل الغزاة لا من فعل الزلازل(٤٦). ومهما يكن سبب هذه الكارثة فإن الجزيرة قد أخذت بها على غرة ، ذلك أن بأما كن الفنانين وحوانيت الصناعات شواهد كثيرة على أن أصحابها كانوا منهمكين في أعمالهم حين حل الموت بهم ؛ وفي هذا الوقت عينه دكت قواعد جورنيا ، وبسيرا ، وزكرو ، وبليكسترو .

وليس لنا أن نظن أن الحضارة الكريتية قد انمحت في يوم وليلة ، فقد أعيد بناء القصور ، ولكنها بنيت متواضعة ، وظلت لمنتجات كريت الفنية الغلبة على الفن الإيجي جيلاً أو جيلين من الزمان . وفي منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجد آخر الأمر شخصية كريتية بارزة — هي شخصية الملك مينوس التي تقص الرواية اليونانية عنها كثيراً من القصص المربعة . من ذلك قولها إن عرائس الملك قد ضايقتهن كثرة الأقاعي والعقارب في نطفته ، ولكن زوجته بسفاثيه Pasiphae تخلصت منها بطريقة خفية عجيبة(٤٧) ، وأفلحت في أن تلد له كثيراً من الأبناء ، منهم فيدرا Phaedra (زوجة تسيوس وحييه هبوليتوس) وأريدني Ariadne ذات الشعر الأشقر . ولما أغضب مينوس بوسيدن Poseidon سلط هذا الإله على بسفاثية هيما جنونياً بثور مقدس ، وأشفق عليها ديدلوس ، وبفضل صلته حملت في ميناثور الرهيب ؛ وسجن مينوس ذلك الحيوان في التيه الذي شاده ديدلوس إطاعة لأمره ، ولكنه كان يسترضيه بالضحايا البشرية من حين إلى حين(٤٨) . ولعل أطرف من هذه القصة قصة ديدلوس الخرافية رغم خاتمها المخزية ، لأنها تفتح ملحمة من أعظم الملاحم وأشدّها افتخاراً في التاريخ . فقد مثلته

(*) إذا سمحت لك أريخ التي يحدها رجال لا آثار بتأخير هذا الحريق الكبير . د ١٢٥٠

أو نحوها ، أصبح من السهل تفسير هذه الكارثة بأنها من حوادث فتح الآخمين لجزائر بحر إيجه ، ذلك الفتح الذي كان مقدمة لحصار طروادة .

الأقاصيص اليونانية في قصة أمير أثيني حسد ابن أخيه لمهارته ، فقتله في ساعة من ساعات غضبه ، ونفى القاتل نفيأً أبدياً من بلاد اليونان عقاباً له على قتله . فليجأ ديدلوس الطريد إلى قصر مينوس ، وأدهش الملك بمهارته في اختراع الآلات وغيرها مما لا عهد له به فقربه وجعله كبير ننانيه ومهندسيه . وكان ديدلوس مثالا حاذقاً ، وقد استخدمت الأقاصيص اسمه فجعلته رمزاً على انتقال فن النحت من الأنسكال الخامدة الميتة ، إلى صور الأناس الأحياء . ويحدثنا القصاصون بأن التماثيل التي صنعها كانت شديدة اشبه بالأحياء ، حتى لقد كانت تقف على أقدامها وتمشي إذا لم تشد إلى قواعدها^(٤٩) . ولكن مينوس غضب على ديدلوس حين علم بما كان له من يد في عشق باسيفائية ، فحبسه هو وابنه إيكاروس Icarus في تبة اللابرنث ، فما كان من ديدلوس إلا أن صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة استطاعا بها أن ينفزا من فوق الجدران ويطيرا فوق البحر المتوسط ، غير أن إيكاروس لم يأبه بنصيحة أبيه فاقرب من الشمس أكثر مما ينبغي ، وأذابت أشعتها الحارة ما على جناحيه من الشمع فغرق في البحر ، وتلك خاتمة تزدان بها القصة وتكسبها مغزى أخلاقياً . وأصبح فؤاد ديدلوس فارغاً بعد موت ولده ، فنزل في صقلية ، وبعث في هذه الجزيرة حضارة عظيمة بعد أن نقل إليها ثقافة كريت الصناعية(*) والفنية^(٥٠) .

وأشد من هذه القصة إثارة للشجن قصة ثسيوس وأدريدني . وخلصتها أن مينوس بعد أن انتصر في حرب على أثينة الناشئة الفتية ، فرض على هذه

(*) يعزو بوسنياس Pausanias أول من وضع أدلة السباح ، إلى ديدلوس كثيراً من التماثيل معظمها من الخشب ، كما يعزه إليه نقشاً على الرخام يمثل أدريدني وهي ترقص ، ويقول إنها كلها كانت موجودة في القرن الثاني بعد الميلاد^(٥١) . ولم يشك اليونان يوماً من الأيام في أن ديدلوس شخص حقيقى ، وإن تجارب شليمان لتجعله تثبت ذلك حتى في تشككنا . وليس أسهل على العلماء في جيل من الأجيال من أن يرفضوا الروايات القديمة ، ثم يأتي من بعدهم جيل آخر فيؤيدها أقوى تأييد .

المدينة أن ترسل إليه كل تسع سنين جزية من سبع بنات وسبعة شبان ،
يلتهمها الميناتور ، فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل ثسيوس
الوسيم على أن يكون هو من بين السبعة الشبان ، ورضى أبوه الملك لإيجيوس
بذلك على كره منه شديد ؛ وكان ثسيوس قد صمم على قتل الميناتور والقضاء
بذلك على هذه النضحية المتكررة . وأشفقت أدريدنى على الأمير الأثيني ،
وأحبه ، فأعطته سيفاً مسحوراً وعلمته حيلة بسيطة هى أن يفك خيطاً
مطويّاً على ذراعه حين يدخل التبة . وقتل ثسيوس الميناتور وسار متبعاً
الخيط حتى جاء أدريدنى وأخذها معه حين هرب من كريت . فلما وصلا
إلى جزيرة نكسوس Naxos تزوجها وفاء بوعده ، ولكنه غدر بها فأقلع
هو ورفاقه ، من الجزيرة فى أثناء نومها (٥٢) .

وبعد أدريدنى ومينوس تختفى كريت من التاريخ وتظل مخفية حتى يأتى
ليكورج Lycurgus إلى الجزيرة ، ولعل ذلك كان فى القرن السابع قبل
الميلاد . وثمة شواهد على أن الآخين قد وصلوا إليها فى أثناء غارتهم
الطويلة على بلاد اليونان فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ؛ ولقد
استوطنتها الغزاة الدوريون فى أواخر الألف السنة الثانية قبل الميلاد .

ويقول كثيرون من الكريتيين وبعض اليونان إن ليكورج وجد فيها أمثلة
يجتنبها فى قوانينه ، كما وجد صولون أمثلة لقوانينه هو أيضاً وإن لم تبلغ
من الكثرة مبلغ ما وجده ليكورج . وكانت الطبقات الحاكمة فى كريت
بعد أن سيطر الدوريون على الجزيرة ، تحيا حياة البساطة والتشرف فى
الظاهر إن لم تكن فى الواقع ، شأنها فى ذلك شأن أسبارطة . وكان الشبان
يربون تربية عسكرية ، وكان الكبار من الرجال يأكلون مجتمعين فى أمهاء
كبيرة معدة لهذا الغرض (*) .

(٥) يمد الأثينيون هذا كله تاريخاً ، وقد ظلوا عدة قرون يحتفظون بالسفينة التى ساف
فيها ثسيوس من كريت ويرمونها كلما أصيبت بأذى ، ويتخذونها سفينة مقدسة يرسلون فيها
الرسل فى كل عام للاحتفال بعيد أبولو فى ديلوس . (٥ - ١ - ٢)

وكانت البلاد يحكمها مجلس من شيوخ المدينة ويصرف أمورها عشرة مؤمرون Kosmci يشبهون الإفورين Ephor في أسبارطة والأركونين Arckons في أثينة^(٥٤). وليس من السهل علينا أن نحكم هل أخذت أسبارطة ذلك النظام عن كريت أو أخذته كريت عن أسبارطة ؛ وربما كان النظام في المدينتين نتيجة محتومة لظروف متشابهة — هي الحياة المزرعة التي كانت تحياها طبقة عسكرية أرستقراطية من غير أهل البلاد بين أهلها الأقدان المعادين لها . ويلوح أن قوانين جورتيانا Gortyana المستنبذة نسياً ، والتي وجدت على جبلان تلك المدينة الكريية ، قد وضعت في بداية القرن الخامس ؛ وليس ببعيد أن تكون هذه القوانين ، في صورة لها أقدم منها ، قد أثرت في المشترعين اليونان . وكان ثاليتاس Thaletas الكريتي يعلم الموسيقى في أسبارطة في القرن السادس قبل الميلاد ، كما كان ديبونس Dipoenus وسكليس Scyllis المثلان الكريتيان يعلنان فنانى أرجوس Argos وشيسيون Sicyon . وملاك القول أن الحضارة القديمة كانت تفرغ مشتملاتها بعشرات العشرات من القنوات في الحضارة الجديدة .

الباب الثاني

قبل أجمعنون

الفصل الأول

شليمان

في عام ١٨٢٢ ولد في ألمانيا صبي قدر له أن يكتب بمعوله صفحة من أروع صفحات علم الآثار في القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، ونجوال أديسيوس ، ولشد ما كان يحزنني أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها محيت من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها ^(١) . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر في الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيبه حياته للكشف عن المدينة المفقودة ، وفي العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفي عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صيباً عند بدال ، وفي عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثني عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات في قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندا . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالاً أمريكياً في قلعام ، ينفق نصفها في شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه ،

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتهما الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية في ثلاث قارات ، ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار . « لقد كنت وأنا في غمرة الأعمال التجارية دائم التفكير في طروادة أو فيما قطعته لوالدي من عهد على أن أكشف عن آثارها(*) » (٢) .

وقد اعتاد في أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله في مفكرته اليومية (٣) . وهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والهولندية ، والعربية . ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح في مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التي يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن في غير أرض اليونان القديمة » (٤) . ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن في الصحف رغبته في الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه في هذه الزوجة ، ثم اختار في السابعة والأربعين من عمره عروساً في التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التي أرسأت إليه . ولم يكد

(٥) وقد كتب شليمان يقول : « ولكنى أستطيع تعلم المردات ايونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، اپول وفرجينى وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بلغتها في الأصل الفرنسى . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفت كلها » أو كدت ، من غير أن أصبح دقيقة واحدة في البحث عن هذه المفردات في معاجم اللغة ... أما الله اليونانى فلم أنعلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أصبح وقتى الفهم في تعلم لغة لانى رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاقوا المذهب ثمانى سنين أو أكثر منها يكسبون في تعلم قواعد النحو اليونانى ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلط . ولهذا أثبتت أن الطريقة التي يتبعها المدرسون في تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لم كنت أنعلم لغة من اللغات الحية »

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من قوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعهدا إلا لإلا مكرهاً ، ولكنه كان في أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروملاك ، وأجمنون . وسمى خادميته تلامون Telamon ، وبلوريس Pelops ، وأطلق على بيته في أثينة اسم بلروفون Bellerophon^(٧) . لقد كان شليان شيخاً افتتن بهومر إلى حد الجنون .

وفي عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة - وهي الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى - وأصر رغم آراء جميع العلماء في ذلك الوقت على أن طروادة بريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملاً أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر في هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملاً وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التى تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشترك معه في كدحه في الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقذف الثرى في وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخيهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضى أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا نحمسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »^(٨) .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة في إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليان ما كراً فأخفى الكنز في لفاعة زوجته ، وصرف العمال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأمرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة في شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجمهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه في أوربا يبلغهم أنه كشف عن « كنز پريام »^(٩) ؛ لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التي كشفها في المكان الذي استخرجها منه ، ورفع الباب العلى في الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودوريفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة في أى الطروادات التسع التي كشفت هي التي تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفي عام ١٨٧٦ اعترض شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى — وهي أن يثبت أن أجمنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد في عمله بوصف بوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحتفر أربعاً وثلاثين فجوة في ميسيني الواقعة في شرق الهلوبيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التي كشفها في طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز پريام » في تركيا محتفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف اللولة في برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر في ميسيني . وكان النجاح في هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقول إنه كشف قبرى أتريبوس وأجمنون^(١٠) . وفي عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشد في عمله هنالك

(٩) لقد طاف بوسنياس ببلاد اليونان في عام ١٦٠ م ووصفها في كتابه المسمى Periegesis أى الرحلة .

أيضاً ييوسنياس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التي وصفها هومر (١١) .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفا بعيوب فضائله ، ذلك أن حماسه كانت تدفعه إلى العجلة والتهور في عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التي عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكي يحقق بسرعة الهدف الذي كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمين اللتين كانتا تهديانه في عمله قد أضلته فحسب أنه كشف عن كنز بريام في طروادة ، وعن قبر أجمنون في ميسيني . وارتاب العلماء في أنحاء العالم في تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلاً لا تصدق أن ما كشفه آثار قديمة بحق . وكان في هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظمى في عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . ونحير في آخر أيامه هل يصلى إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ، وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجمنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتي ، وإلى ليسرنى أنك ستدرس أفلو طرخس ، وأنت فرغت من زونوفون وإلى لأدعو أبانا زيوس وبلاس أثينة أن يجزياك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة » (١٢) . وتوفي عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح في الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التي لم تفارقه في يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان — كما كشف كولبس — عن عالم أشد غرابة من العالم الذي كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بمئات السنين من بريام وهكيا Hecuba : ولم تكن تلك القبور قبور أتريدا ، بل كانت أطلال حضارة إيجية قامت في أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوى في كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع لصيت « لقد عاش قبل أجمعون كثيرون من الرجال البواسل » (*) .
وكلما توسع دوريفلد ، ومُلر Muller وتسونتاس Tsountas واستماتاكس
Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace في أعمال الحفر في
أرض البلوبونيز ، وواصل غيرهم الحفر في أتكاف وفي جزائر عوبيه Euboea
وبوئيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفي تساليا ، تكشف أرض
اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها في أزمنة ما قبل التاريخ . وفي هذه الثقافة
ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية
إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وباستبدال النحاس والبرنز
بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة
على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطوئه بأقدامنا عظام
رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغاني وصنعوا
الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر
الزمان الذي لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دوريفلد وفرشاو يقدمانه في أواخر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجمعون
بل كشف عن جيل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشيء الكثير من الألم
المبرح تقلل قولها قبولاً حسناً وصاح قائلاً : « ماذا تقول لان ؟ إذن فليس هذا جسم أجمعون »
ولست هذه حلية ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلزل Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون
باسم « شلزل » (١٢) .

الفصل الثاني

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرق أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد في شمال البحر ، كان يقوم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تبريز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplia ، ويشهد هذه الخرائب التي تكاد تضع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلاً فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوية التي بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسى بروتوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتي عام(*) . ولقد كانت المدينة حتى في ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شاهدها كما تقول الرواية القديمة الماثورة البطل تبريز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال في طفولته^(١) . وتضيف القصة إلى ذلك أن پروتيوس أهدى القصر إلى پرسبوس الذى حكم تبريز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التي تحمي المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى في بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعقود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض في وضع أفقى ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالهم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذى كان يكسح بكبر هبستوس Hephoeustus في براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق في هندسة البناء على الأحجار التي تشاد بلا ملاط واتى قنحت نحتاً غير متقن . ويملاها بينهما بالحصى المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن ووراس قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوس من لسيا Lycia .

ولا تزال بعض هذه الحجارة في أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثاً وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول هوستياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها »^(١٥) . وكان في داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حولها وفخم تبلغ سعته ألفاً وثلاثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلى وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العائثر اليونانية يختلف عما كان متبعاً في كريت . وهو فصل الجناح الذى تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما — على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما — منفصلتان إحداهما عن الأخرى ، كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضى ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفي أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفي هذا الموضع كانت مدينة تيرينز في عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحوى نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان في عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفي داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال في شمال هذه المدينة شاد پرسوس (إذا أردنا أن نصدق قول هوستياس)^(١٦) مدينة ميسينى — أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، ورقى ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسينى بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »^(١٧) . ولقد أبقي الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها. من مئات الأجيال التي تكفى لتخريب أقوى الصروح ؛ وإن ما بقى منها ليشهد برخص الأيدي العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم فى تلك الأيام . وفى ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد العتيد الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفى وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه فى تيريز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات المخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت فى غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلام فخمة .

وقد كشف عمال شليان ، بالقرب من باب الأسد فى بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلًا عظيمًا ، وعن عاديات قيمة ثينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظيم ظنه أن هذه الحفر هى الحجرات التى دفن فيها أبناء أريوس . كيف لا وقد وصف بوسنياس القبور الملكية بأنها « فى أطلال ميسيني ؟ » (١٨) لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أقنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسها على رؤوسهن التى لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد فى هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتي وجدت فى كنومس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص - أختام وخواتم ، ودبابيس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأبواب مزركشة بصفائح رفيعة من الذهب (١٩) وليس ثمة شك فى أن هذه الجواهر جواهر ملوك . وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء فى سفح التل المقابل للسفح الذى شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البثرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفى آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين فى المتحف البريطانى الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدماً ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألقى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدماً وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المنشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أحمنون ، ولم يتردد فى أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفها زوجته بأنها قبر كليثمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التى وجدت فى ميسنى والتى تشبه خلية النحل فى كثرتها خالية ، لأن اللصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة فى أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البثرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذى يحددونه لأحمنون بأربعائة عام) ، أما المقابر التى فى الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها فى زعمهم إلى حوالى عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولستنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن فى موضعى ميسنى وتيريز ، بل وفى مواضع اسبارطة ، وأمكلى Amyclae وإيجينا Aegina ، واليوزيس Eleusis ، وقيروينا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلى . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كثيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلاد اليونان مختلطة
دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا
قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينيين كانوا
يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيّين والكاريين سكان آسية الصغرى ،
وللمينويين سكان كريت^(٢٠) . وللأسدين اللذين وجدا في ميسينى وجهان
شبهان بأساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه
البلاد عن طريق آشور وفريجيا^(٢١) .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينيين باسم « پلاسجى » Pelasgi (وربما
كان معناه أهل البحر - پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم
آتون من تراقية وتساليا إلى أنكا والپلويونيز في زمن يبلغ من القدم حداً جعل
اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أونوكتنوى Autochthonoi
وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمبية من أصل پلاسجى
ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة الپلاسجى »^(٢٢)
ولسنا نحن أكثر منه علماً بها .

وما من شك في أن أولئك الأونوكتنوين قد قدموا في عصر متأخر إلى
أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجري الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد في
بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على الزمان أقوام آخرون ،
وشاهد ذلك أننا نجد في العصور المتأخرة من تاريخ الميسينيين حوالى عام
١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية
عسكرية ، لأرض الپلويونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجرها^(٢٣) .
وحججتنا في هذا القول أن قصور تيرينز وميسينى قد خططت وزينت على
غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء في الأولى وهى التى لا نظير لها

فى الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى
إيجينا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسنى وإلهاتها
قد قلدن الطراز الكرىى الساحر فى الملبس والزينة ، وأن الفن الذى
كشف عنه فى القبور البثرية المتأخرة مينوى بلارىب (٢٢) . وجلى أن
اتصال المنسليين بحضارة أرقى من حضارتهم كان له فهم أثر حافظ قوى ،
وأنه هو الذى رفع ميسنى إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .

الفصل الثالث

الحضارة الميسينية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها في صورة واضحة وضوح الحضارات التي تتكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة في أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة في كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار الميسينية من عظام الطباء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ، والثيران ، والخنازير - بل عظام السمك والأصداف البحرية - ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التي يصفها لنا هومر ، والتي لا تلائم خصر الكريتيين النحيل : وتكشف الآثار في أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة « القديمة » و« الحديثة » من تشابه عجيب ، فقد نجد سهماً من الحجر الزجاجي إلى جانب مثقب برنزي أجوف كان يستعمل في عمل ثقوب في الحجارة للأوتاد^(٢٤) .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها في كريت ، فلما نجد في أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم الميسينيون أنفسهم . وكان ملوك ميسيني وتيرينز يستخدمون فنانين كريتيين ليحفروا على الأواني والخواتم ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التي يفخرون بها^(٢٥) . وكانوا يبنون مدنهم في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غيرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قريباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتي
تيرينز ، وميسيني - إلى الطريق الممتد من خليج أرجولي إلى برزخ كورنث
يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة
عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسيني أن كريت قد أثرت من اشتغالها
بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالأثرية البحرية ، وليدتها
المتحضره ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتذمر الفاقة في أوسع نطاق ؛ ولذلك
أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافي عام
١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجارى من القوة درجة استطاع بها أن يتنازع
كريت سلطانها البحري ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسيني الذاهبة إلى
إفريقية عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا
العمل سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية .

ولم تكن الثروة التي أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة
تناسب معها ، ونستطيع أن نبينها فيما يبق من الآثار . ونعزو الروايات
اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ،
وقد وجدت في تيرينز وطية جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف
قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسيني
حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما
فعل الكريتيون في المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شيء من
هذه المواد . ونهج الميسينيون في الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة
جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ،
ولكن يرد على هذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتي ازدهر فن
التصوير أيما ازدهار في أرض اليونان ، فترى النقوش التي تزدان بها
أطراف الجدران وحليتها ترقى إلى المرتبة الأولى في الفن وتبقى إلى عصر
ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما يبق من المظلمات على .

إحساس قوى بالحياة والنشاط . وترى « النساء اللاتي في المقاصير » من كبريات السيدات اللاتي تزدان بأمثالهن دور التمثيل في هذه الأيام . وقد صففن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز في الوقت الحاضر ؛ وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات في العرب » اللاتي خرجن للتنزه في الحقول آخر النهار وتكلفن الجحود في ركبتن . وخبر من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش تيرنر . إن الخنزير والأزهار قد تحكم في تصويرهما العرف إلى حد لا يصدق العقل ، والألون القرنفل الغير المعقول قد شوته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تنفق مع النمط المألوف وقتئذ ، والنصف الخلفي من الخنزير المندفع في جريه يلقى تدريجاً حتى يشبه عذراء عالية الخدائين تسقط من عريشة في قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها في الهواء ، والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدّها قسوة ، واقف متأهب يرمعه القاتل الفئاك^(٢٦) . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه النماذج على ما كان يستمتع به الميسينيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان في قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرق فنون ميسيني كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها في هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليان قد عثر بمحق على عظام أبحمنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ، وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أضرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون في ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجهه من الفضة نقش عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها في أية لحظة من اللحظات أن تمحور خوارجاً

عزنا ؛ قد يفسره شليان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى (٢٧) : وأجل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلول المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قطعاً برية تطارد بطاً ، وأسداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى (٢٨) . وأغرب من هذه كلها الأقمعة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموتى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأقمعة وجه قطة ، وقد دفعت شليان شهادته إلى أن يعزو هذا القناع لأجمنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلا جدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى قفيو Vaphio بالقرب من أسبارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدحين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما بدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المنزلة فى كريت ما بلغه تشلىنى عند الإيطاليين ، ولكننا يحزننا أن تحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار . نعم إن موضوع النقوش التى على القدحين - وهو اقتناص ثور وترويضه - يسلم من الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الخواتم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ، تشهد بأن مصارعة الثيران . كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدحين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الجبال السميكة ، وفتح فاه ومنخره وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

«الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشر كضاقته عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثاني يساق الثور المصيد ؛ فإذا أُر دنا القدح رأيناه قد رضى بقيود الحضارة ، وانهمك على حد قول إيفنز في « حديث غرامى » مع بقرة^(٢١) . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع في بلاد اليونان .

ويوجد الميسيني نفسه ، كما توجد معظم مخلقات فنه ، في قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنهم في جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثثهم كما كان يُفعل بها في عصر الأبطال .

ويستبدل من مخلقاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما في الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت في قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسيني ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتي أو كان قوى الصلة به ، ففيه - كما في كريت - نجد البطلة المزدوجة ، والعمود المقدس ، والإمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة في إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أرباباً صغاراً في صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة في بلاد اليونان خلال كل ما حدث في دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية ديمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد ديمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسيني رأى في القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الآلهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسيني بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التي كانت « لأسرة القبور البثرية » في تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسيني وتيرينز ، واتخذ الفن الميسيني لنفسه طابعاً خاصاً ، واستولى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أمبانيا مارة بإيطاليا ، وشمالاً إلى نهر الدانوب مخترقة بووتيا ونساليا ، ولم يقف في سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان ونشرتها في أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسيني فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسيني من أطوار تلك الحضارة في عالم البحر المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منشورة في بحر إيجه في دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكلديس : ومعظم هذه الجزائر صخرى قحل ، وهي بقايا قمم جبال كانت تمتد في أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهلهم يعملون في استخراجهما ؛ وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليوناني . وقد قامت المدرسة البريطانية في أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر في أرض ميلوس Melos عند فيلاكوبي Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شهاً يثير الدهشة لآثار العصور التي مرت بها الحضارة المينوية عسراً عسراً ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التي أجريت في عصرها من الجزائر أن يرسموا صورة جزائر السكلديس في عصر ما قبل التاريخ تتفق في زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التي رسمها المتقبون لكريت ، وكانت جزائر السكلديس ضيقة الرقعة لا تزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع في قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة في حكمها وفتوها ، بل خضع بعضها في لغته وكتابه ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتيية (١٤٠٠ - ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسيني تستورد منها فخارها وأساليها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسبوراديس Sporades (أي المتفرقة) ألفينا في جزيرة رودس ثقافة أخرى في عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما في قبرص فلان رواسب النحاس الغنية التي اشتق منها اسم الجزيرة قد أفادت عليها قدرأ من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ - ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز في شيء إلى ما قبل السيطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الآسيوى يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينوية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهي التي قدر لها أن تصبح أفروديتى إلهة اليونان^(٣٢) . ثم تمت صناعة المعادن في الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التي تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام في إنكومى Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرايون يبيعون آنيهم المستديرة في جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفي القرن الأخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفي القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون الميسينيون المستعمرات التي أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهي پاثوس Pathos مدينة أفروديتى المقدسة ، وسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التي حظ فيها صولون رحاله في أثناء تجواله ليُحل القانون محل القوضى .

وعبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسيني البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الآسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودوريفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن تسع مدن كل واحد فوق الأخرى كأنما كان لطرودة تسع حيوات .

١ - فكان في الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجري الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق : م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دى سسولا di Cesnola ، هي الآن حفرة في المتحف الفننى بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت قواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجي ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢ - ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التي اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيريز وميسني ، وكان في أماكن متفرقة منها حصون وفي أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلي بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة في الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر في صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلى ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فأثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يوناني أبحنون .

(٣ - ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦ - وقامت حوالي ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخي . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدي » (٣٣) لا خطر له ، ولكن دوريفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه (٣٤) حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمباني الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه . ووجدت في أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنعا من المزهريات التي وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركمنوس Orchomenos المينة Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد في ميسيني إلى حد اعتقد معه دوريفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البثرية (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هي طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً^(*) (٣٥) . ويخصون بها « كنز بريام » الذي ظن شليمان أنه عثر عليه في المدينة الثانية ، والملكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب^(٣٦) . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة واقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م^(**) .

وبعد ، فن هم الطرواديون ؟ تذكر إحدى البرديات المصرية اسم اللردنوبيين Dardenui بين أحلاف الحثيين في واقعة قادش (١٢٨٧) ؛ ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف اللردنوبيين Dardenoi وهم في لغة هومر الطرواديون أنفسهم^(٣٧) . والراجع أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بليجن Dr. Carl Blegen مدير أعمال الحفر التي تقع بها بقعة جامعة سنستاف في طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالي عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمي هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دوريفلد فيسمي هذه المدينة طروادة رقم ٦ ، انظر ماجاه بصحيفة الدراسات اليونانية Journal of Hellenic Studies العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت في ذلك المكان حتى أنشأ (أ) الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٤ طروادة الثامنة تخليداً لذكرى هومر . (٩) وشاد الرومان في بداية التاريخ المسيحي اليوم أو طروادة الحديثة Novum Ilium التي بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقاني ، وأنهم عبروا مضيق الهلسينت في القرن السادس عشر مع أبناء عمومتهم
الفريجيين واستقروا في وادي نهر اسكندر Scamander الأذني (٢٨) .
أما هيرودوت فيوحد بين الطرواديين والتبكريين Teucrians وهؤلاء في
رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا في الصقع الذي بنيت فيه طروادة
فيما بعد(*) ، ولعل استقراهم في ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس (٤٠) .
ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل
أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذي يذكره هومر وتينسن Tennyson . ولقد
تعرض هذا الإقليم في أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسية من
أرض الحبشيين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر في جملتها على وجود
حضارة بعضها مينيوى ، وبعضها ميسيني ، وبعضها أسويى ، وبعضها
دانوبي Danubian .

ويصف هومر الطرواديين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعلمون
آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة
مدينة أسويية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة
في النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب (٤١) .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسينت
والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا المر الضيق في التاريخ
كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حصار طروادة هو معركة غليبولي

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإيونيمي تروس Tros والدليل
Ilus والدلومدون Leomedon والدبريام (٢٩) . وهذا منشا الأسماء المختلفة التي تطلق على
المدينة : ترواس Troas لإيوس Ilios إلى يون Iliou اليوم Ilium . والبطل الأيونيمي أو الإيونيم
شخص خرافي في أغلب الظن ، تمزج إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . نالدردانيون
مثلاً يعتقدون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويمزج الدورديون أصلهم إلى دورس
Dorus والأيونيون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت في عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه بجبل درجة لا بأس به من الحصص ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا في رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسنت ، وكانت هي في الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها في مأمن من الهجمات البحرية^(٤٣) . وربما كان هذا السبب لوجه هيلن Helen الجميل هو الذي جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على اليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة - وربما كان أرجح من الرأى الأول - وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية في مضيق الهلسنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم في طروادة وينقلونها برأى داخل البلاد ، وأن طروادة قد حصلت من المكوس التي تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة^(٤٤) . ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التي تنتمي إليها آثارها . فقد كان يأتي إليها من الجزء الجنوبي من بحر إيجه النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ، ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والحلج ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر اليشب^(٤٥) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحرابية ، وتصلرها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة مروضو الخيول ، المقيمون في زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التي تطلعنا في الإلياذة عن بريام وبيته هي صورة العظيمة والعطف الأبوى التي تطلعنا في أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعة تفرض

عليه أن يستمر في إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون - إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذي كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجدر بالحب من أجمنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأنخيل المشاكس ، وأندروماك Andromache وبلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجينيا Iphigenia ؛ وهكيا أحسن قليلاً من كليتمنسترا . والطرواديون في جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون في نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهدياً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق في أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Sappho ولا يورپديز شكاً في الناحية التي يريان أنها خديعة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعي الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التي جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط في آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التي عرفها من قبل .

الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المتقنون في بوغاز كوى Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهمجافا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل في قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد في سجل مصرى يرجع إلى حوالى عام ١٢٢١ ق . م أن الأكبواشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » في غارة لوية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ... »^(١) .

والآخيون كما يصفهم هومر في شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبى تساليا^(٢) ، وإذ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان، الذين عاشوا في أيام مجد البلاد الأدبى ، الآخيين ، كما يصفون البلاجيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التى تعيها الذاكرة ، واقترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التى يصفها هومر كانت هى التى سميناها في هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شليمان بهذا رأى ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث في عام ١٩٠١ أن جاء رجل إنجليزي عنيد هو سير وليم ريدجواى Sir William Ridgeway^(٢) وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن اتفقت هي والميسينية في نواح كثيرة ، تختلف عنها في تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف في الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موقى الآخيين يحرقون ، أما في تيرينز وميسيني فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك في عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هي الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط في ثقافة ميسيني . (٤) إن الآخيين يستعملون سيوفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها في الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة في ملابسهم وفي تصفيف شعرهم . واستنتج ريدجواى من هذا أن الميسينيين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخيين « كِلْت » شقر أو من شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين إلبروس وتاليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الخاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . وما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرية أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تدريجية في استعمال الحديد ، أو تبدل في أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفي إطالة

السيف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأي أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية في عددها من تساليا إلى الهلويونيز في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بدماء البلسجيين - الميسينيين الذين كانوا في تلك البلاد - وأنهم أصبحوا حوالي عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها^(٤) . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيريز ، وپارنسس Parnassus ، وأولمبيا(*) وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتيّة - پلاسجية - ميسينية^(٥) . وبهذه الطريقة عنها ، فيما يبدو لنا ، فرض الآخيون آلهتهم المحلية والساوية على الآلهة - لأرضية التي كان يعبدها من قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذي نجده في أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج في مجراه ، وقضى عليها الفضاء الأخير في هزيمة طروادة ، ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(٥) وألفاظ يونانية أخرى مثل sesamon سمسم ، kyparissos (السرّ) ، hyssops (الثمام) ، oinos (الخمر) ، sandalon (المسندل) ، chaikos (التحاس) ، thalassa (البحر) ، molybdos (الرصاص) ، zephyros (أنفسيم) ، tkybernao (يوجه السفينة) ، sphengos (الإسفنجة) ، iaos (النساس) ، labyrinthis (آليه) ، Altharis (الزيتار وهي آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) syriax (النالى) ، palan (تهليل) .

الفصل الثاني

خرافات الأبطال

توحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخين وبما آل إليه أمرهم . وليس من حقنا أن نفعل هذه القصص ، فهي وإن سادها خيال القتل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهي ممزجة بالشعر والسر والفرن اليوناني امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلاً بغير هذه القصص (*) ، وتذكر التتوش الحثية اسم ملك يدعى أثارسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأيجاقا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخين (٦) . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب نتالوس Tantalus ملك فريجيا (**) وإن هذا أعقب بليس Pelops ، وأعقب بليس أجمنون ، ولما نفي بليس من وطنه جاء إلى إليس في غرب

(*) يرسيوس ... هرقليس ... مينوس ، نسيوس ، جيسن ... إن من المؤلفين في هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وحدها . أما اليه فإن المتأخرون فقد كانوا في تقدم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون في أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل في أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد الحديثين ، بعد أن ظلوا يشكون في آراء النقاد اليونان زمناً طويلاً ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأى اليونان ويرون أنه هو الرأى الذى يفسر ما لدينا من الشواهد تصميماً مقبولاً ... إن أبطال انقصص « أبطال حقيقيون » ، شأنهم في هذا شأن المواضع الجغرافية التي كانوا يتحركون فيها . تاريخ كيمرديج القديم المجلد الثانى ص ٤٧٨ . وسنفترض في هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية في جوهرها وهمة في تفاصيلها .

(**) وأعقب نتالوس الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق ثراها وطاعها ، وقدم لها بدلاً منها ابنة بليس يد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جسم بليس كما كان وجازى نتالوس في الجميع بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحصر ماؤها كلما هم يشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما حلق فوقه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما حلق فوقه صخرة تهدمه في كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه (٧) .

البلوونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماوس Onomaus ملك لإليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزبوس فى أولبيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخطابين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد پلپس أن يقلل ما يتعرض له من الأخطار بأن أرسى مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك ليزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطبتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج پلپس هبوداميا وحكم لإليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يفرق لعنة على پلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة پلپس سثنلوس Sthenelus بن پرسبوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجمنون ومنلوس Menelaus ابنا أتريوس كليتمنسترا وهلى ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedaemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجمنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسبارطة ، وسميت تلك البلاد بلوونيز أو جزيرة پلوپس نسبة إلى جددهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجدد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زبوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقرفه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجح منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارنسس . وتناسلت من هيلن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هلين Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلن جد أخيوس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما في الپلوپونيز والثانية في أتكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا في موضع كان الپلسجيون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التي سميت فيما بعد باسمها وهي مدينة أثينة^(٨) . وتقول القصة إنه هو الذي نشر الحضارة في أتكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرّم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إركثيوس Erechtheue الذي ألهمته المدينة وأقامت له فيما بعد هيكلًا من أجل هياكلها . وجمع حفده ثسيوس حوالي ١٢٥٠ ق م . قرى أتكا الاثنتي عشرة في وحدة سياسية سمى سكانها فيما بعد أيثا كانوا بالآثينيين . ولعل السبب في أن اسم أثينة اليوناني ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسيني هو أنها نشأت في بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذي وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لثيوس ، وأمن أهلها في ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذي كان يجب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون في طول ضريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة في عام ٤٧١ ق م أي في عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكروتس Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة في هيكل ثسيوس .

وقامت في شمال أثينة في بوٲوتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية في عصر البلاد الأدبي . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين في أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملقى الطرق التي تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذي كان يمنع الأهليين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أسنان التين التي غرسها كدموس في الأرض رجال مسلحون أخلوا يقتتلون كما يقتتل اليونان في عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ؛ وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها في هذه الأيام على قصر كدموس (١) ، وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوش Labdacus ثم ابن حفيده لايوس Laius وهو الذي قتل ابنه أوديبوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرده إيتوكليز Eteocles أخاه پوليسيز ، فذهب هذا إلى أدراسطوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكا . وحاول أدراسطوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالي ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت في حرب الإيجوني Epigoni أو الأبناء السبعة . وفي هذه الحرب قتل إيتوكليز وپوليسيز وحرقت طيبة عن آخرها .

(١) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م . وقد عثروا عليه على كتابة قليلة بحروف لم تحمل رموزها بعد ولعلها متفرقة من أصل كرتي .

وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون Amphitryon مزوج من امرأة فانتة تدعى ألكمين Alcmena . وزارها زيوس وأمفتريون غائب في حرب من الحروب واستولدها هرقلز (هرقل) Heracles أو هرقل Hercules (*). ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة في عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد في مهده ؛ ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمي هرقلز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء في تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقلز لم يعبأ بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتريون وثسيبوس . وقدم ثسيبوس ملك ثسبيا Thespiee بيته وبناته الخمسين إلى هرقلز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه (١٠) ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج بجارة Megara ابنة كريون Creon الطبي وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبناءه على غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحي في دلفي يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها ويخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثني عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصعد بالأمر وقام ليورثيوس بالاثني عشر عملاً (***) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(*) ويقول ديودور إن « زيوس ضادف طول تلك الليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصل ؛ وإنه تنبأ للطفل بقرته غير العادية بسبب طول الوقت الذي قضياه في إنجابها » (٩)

(**) وخنق الأسد الذي كان يفتك قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأفعى هيدرا الكثريرة الرؤوس التي أهلكت ليرنا Lerna ، وقبض على ظبي سريع العدو وجاء به إلى يورثيوس Eurythene ، واقتنص خنزيراً برياً من جبل يوريمنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورثيوس ، وظهر في يوم واحد أسطبلات أو حياز وكان فيها ذئبة آلاف ثور وذلك بأن حول مجرى أنفوس Alphens وأنفوس Penens إلى مزاد الثيران ، وانتظر في إلس حتى أقام الألعاب الأولمبية ، ثم أهلك الطيور الاستمقالية Stymphalian هفتاك التي كانت في أركاديا ، وقبض على اثور الهائج الذي كان يعيث في كريت فساداً ، =

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبها ، وأعان الآلهة على أن تنفصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى أليستيس Alcestis ، وقتل أصدقاءه في أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذ الناس بعد موته بطلا وإلهاً وعبدوه . وإذا كان قد أحب فتيات يخططن الحصر فقد ادعت كثير من القبائل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه في تراكيس Trackis في تساليا ، ولكن يوريشيوس خشي أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه أبوه على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولجأ أبناء هرقل إلى أثينة ، وسير يوريشيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أثريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناء هرقل أن يبارز أحد رجال أثريوس مشروطاً أنه إذا غلب خصمه استولى المهرقليون على مملكة ميسيني ، وإذا هزم خرج المهرقليون فلا يعودون قبل

= وحمله فوق ظهره إلى يوريشيوس ، وقبض على خيل ديومديس Diomedes آكلة الآدميين وروضها ، وقتل الأمزونات عن آخرهن ، وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط فتوةين بارزين متقابلين هم « عمود هرقل » . وقبض على ثوري جريون Geryon وخرق بلاد خالة وحيا الألب ، وإيطاليا ثم عبرهما لبحر إلى يوريشيوس ، ووجد تفاحتى هيدريس ، ثم أسلك بالأرض زماً ما بدل أطلس ، ثم نزل إلى هيدريس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثسيوس وأسكلفوس Ascalophus . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التي أهدتها إياها جاثيا Gaia (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تين جبار يحرس التفاحين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(٥) يظن دودور أن هذا « البطل الثقافي » التعجب كان مهندساً بدائياً في عصر ما قبل التاريخ. شديداً بأبيدقليس . ويفهم من الخرافات التي قرى عنه أنه طهر اجون لماثية ، وشق الطرق في الجبال ، وحول مجارى الأنهار وصلاح الأراضي البور ، وظهر القابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكن (١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن آفة المحبوب الذي يرضى بالعذاب حباً في الخلق ، ويحسبى الموقى وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبناؤهم بعدها ميسيني^(١٢) . فلما هزم خرج هو وأتباعه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من المهرقلين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا الهلوبيونيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة بليس وأبنائه تروى بأن آسية الصغرى هى أصل الأخيين فلما نستطيع أن نتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتداد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسيج غنى خصب صاغ منه أبولونيوس الرودى فى أيام الحضارة المتأخرة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هذه الملحمة بقصة أوركينوس البيوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجمنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركينوس بصحبة أخته هيلي Heli'e بأن طار معها فى الجو على ظهر كبش ذى جزء من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلي من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سُمى فيما بعد الهلسينت . أما فركسوس فوصل سائلاً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكير Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكير تينياً لا تغمض له عين ليحرس الحزة ، لأن نبوءة قد أوحى إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ، وأراد أن يزيد اطمئنناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتى إلى كلكتيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغربية ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها سالمين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكنئة حزينة دائمة التفكير فى أمرها حتى عثر عليها جيسن Jason فى أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب بلياس Pelias بن پوسيدون Poseidon عرش إيسن Aeson ملك يولكون Iolcus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل جيسن ، وشب هذا الطفل فى الغابات حتى أصبح شاباً قوياً شجاعاً . وظهر يوماً من الأيام فى السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه بلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنا لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الخزانة الذهبية . فصنع جيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته فى مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما بليوس Peleus والد أخيل ، وثيسوس ، ومليجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أثلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الهلسينت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت فى وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لؤمدون Laomedon وأبنائه كلهم عدا بريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرهم ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكتيز من الغرباء ، ولكن جيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعد فى الحصول على الخزانة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعونتها على الجزة ، وفربها إلى سفينته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عالجتهم بالأعشاب والخلجور . ولما وصل جيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ پلياس في إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات پلياس وحلتهن على أن يقلبن أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هي وجيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر (١٣) . وترك بقية القصة إلى يورپديز .

إن الأسطورة في الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مرّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا في الجبل السابق على حصار طروادة التاريخي أن يشقوا طريقهم في الملسينت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتياح التجاري صيغت في قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التي كانت تستخدم قديماً في شالي آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المخرى المائتة من قطع ذهبية صغيرة (١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلاً حوالى ذلك الوقت في جزيرة لمنوس Lemnos التي لا تبعد كثيراً عن الملسينت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبا هرقل تعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم في سهل إليون ليحرروا الملسينت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ - ١١٠٠ ق. م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعلم عليه من المصادر في رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قبلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسيني ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التي وصفها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شعباً عجبياً تلك الحضارة التي تشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ، ومن أجل هذا ينزع العلماء في هذه الأيام إلى أن يعدوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم في هذه القصص الخرافية أشخاصاً حقيقين . لكننا مع هذا لانستطيع أن نقول إلى أي حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذي كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذي يكتب عنه . إذن فكل الذي في وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هي الصورة التي كانت تخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر في أشعاره عن العصر الهومري ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإننا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان في طور الانتقال الطريف من الثقافة الإيجية إلى حضارة اليونان في العصور التاريخية .

١ - العمال

إن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن الآخيين (أي عن اليونان في عصر الأبطال) هي أنهم كانوا أقل حضارة من الميسينيين الذين سبقهم ،

وأرق حضارة من الدورين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فبهم أنهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما في هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغاني الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق في المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لحمل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حسناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلاً . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين^(١٥) . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ، وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه^(١٦) ، ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع بطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطور على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به بريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده^(١٧) . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالاً ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن باريس « بالزيت الذى له رائحة الورد^(١٨) » .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كما نوا يحرقون الأرض ، ويشمّون وهم فرحون الأرض السوداء بعد ثقلها ، ويتبعون بأعينهم في فخر وخيلاء الخطوط المستقيمة التي خطتها المحارث : ويبدرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليقفوا بها فيضان الأنهار في الشتاء^(١٩) . ويشعرنا هومريّاس الفلاح الذي قضى الشهور الطوال في كدح مستمر ثم يأتي « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف في سبيله^(٢٠) » وليست أرض البلاد ممّا يسهل فلحها لأن الكثير منها جبال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية ، ولضأن ، والخنازير ، والمعز ، والحيل ، ويروى أن رجلاً منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهارها^(٢١) . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوى الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنيذ . وقد تغذى أديسيوس مع راعي خنازيره بخنزير صغير مشوى ، وتعشياً بثلاث خنزير عمره خمس سنوات . وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر ، ودهن الحبوب بدل الزيت ، والكعك المصنوع من الحب بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمى ، ولم يكن الآكلون يضطجعون في أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كراسي ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى . ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو القوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ، وكنوا يأكلون بأيديهم وأصابهم^(٢٢) ، وكان شراهم الرئيسي حتى الفقراء والأطفال هو النيذ المنخفض .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذي

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها^(٢٤) ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين) ؛ وكانت في واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى في الأوديسة أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت - أو أصبحت ملكاً للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة في بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التي اختفت بها في إنجلترا الحديثة^(٢٥) .

وكان في مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعاب ؛ ولكن الآخرين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهى الحديد . فترى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة في الألعاب التى أقيمت تكريماً لـ *Patroclus* ^(٢٦) ، ويقول عنها أخيلس إنه سوف يصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر في هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز^(٢٧) ، وتصف الأوديسة سقى الحديد(*) ، ولكن هذه الملحمة قد وصلت إلينا في أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخراى أمام عجلته يعملان في حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم في أشعار هومر - كصناع السروج ، والبنايين ، والتجارين ، وصناع الأثاث - كان هؤلاء يعملون في منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ؛ أو للبيع . أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طوالاً ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة^(٢٨) . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) هـ حين يس الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً في الماء البارد ، كان يخرج منها أومته ، حيس هو الذى يكسب الحديد صلابته^(٢٨) .

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان - على عكس اليونان المتأخرين - يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت بنى ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا ينقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلامك^(٢٠) ، أبجل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصنائع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ، وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ، ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلهم منحطة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادمت المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادمت المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يشتريْن أو يبعن لآجال طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كمحاضن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ، وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتهن . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جواريهن فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات^(٢١) . وإذا ولدن الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار^(٢٢) ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحرب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخية .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لاتعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدي السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من إحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى^(٣٣) : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الحالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الحالية من القناطر . وكان النجارون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ، وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى التجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار التجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالنتون أى وزنة^(٣٤)) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائل متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعثرها التغيير والتبديل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجمع^(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أنقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطنفو بعضه الآخر

(*) الجمع صوت الرعى وهو أقرب الأصوات إلى صوت الرهات على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخراى آتيته كلها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والمهاشة ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يسهل عصر الكتاب الثانى من كتب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقاته ، وحين يستشيط ثرسيس Ther.sies غضباً ويطلق لسانه فى أحمنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك الداء المزمن الوبيل (٣٥) .

إننا ليخيل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . فما هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابة الطويل ، وما هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم (٣٦) . وحين يعلم مثلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال ييكبان ويتحسران (٣٧) . وحتى أجمنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فيلنرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء يتلفق فوق الصخور (٣٨) . والصدقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وبتركولس وخاصة بتركولس الميت

شئ من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس »^(٣٩) والعدارى يغسلن قدمى الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ؛ وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان فى حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً^(٤٠) . ومن أقوال هلن ذات الخد الأسيل ، وهى يضع بين يدي تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدي هلن فى يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد وتلبسها زوجتك »^(٤١) . تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنسانى والشعور الرقيق اللذين يختفيان حتماً فى الإلياذة بين نقع الحرب وقمعة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين جهم القهى للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خُطَّاب بنلى الداما ويتقاذفون الأقراص والحراب ، ويلعب ضيوف أديسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هى مزيج من ألعاب الكرة والرقص^(*) . ولما أحرقت جثة بتركولوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هى المثل الذى احتذى فى الألعاب الأولمبية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرمل بالسهم ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ؛ وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هى التى كان يسمح لها بالعيش واللداع^(٤٢) .

(*) ثم أمر ألسنوس Alcinous هلياس Halias ولأردماس Laodmas أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما فى يد الكرة البصيلة ، المصبوغة باللون الأرجوانى ... وأغذا يلعبان . فكان أولهما يثنى جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجماهير التى لا يراها ، فيقفز الآخر فى الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماء الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان فى قذفها فيما بينهما ، وهما فى أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المشرمة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسروء .
فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحرق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز
في سباق العربات . ونرى الحيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ،
والآدميين يضحي بها على كومة لإحراق بتركلوس حتى يكون له بعد موته
ما يتيغيه من حسن الخدمة ومن الطعام^(٤٤) . ويحسن أخيل معاملة بريام ،
ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يحرق جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول
كومة الحريق . وكانت الحياة في نظر الرجل الآخى قليلة القيمة ، لا يعد
سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كقيلة بردها إلى من
قضى عليه بفقدائها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا ببيع
الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حسناً ، أو رقيقات إن لم تكن
كذلك . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الماوك أنفسهم
ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول
توكيديدس في هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد
الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يحل
صاحبها العار^(٤٥) » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان في مقدور الأمم العظيمة
أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها
دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها في هذا شأن الأمم
القوية في هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالمكاسب
التي يسدها مطامعه^(٤٦) يرى في هذا القول إهانة له ، ولكنه يتحدث في
زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المؤن
فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ، وكيف صعد في
نهر إيجيبتس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النضرة ويسوق
أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال^(٤٧) . وملاك القول أنه .

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة. المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصفد الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلاً عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملاً دون يشوبه الغلو . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه (٣٨) . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه في الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلاً من كل الوجوه ، وحتى الإلهة أثينا نفسها تنفى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببها إليها ، وتقول له وهى تبسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ماكرأ خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصيح ، لا يقف خداعك وغشرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى نجها من أعماق قلبك » (٤٩) .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل مشهورن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد المحتال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسيء لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفقته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبى وأى ! » (٥٠) . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدين » وعلى جسمه الرياضى ، الذى يمكنه وهو فى نحو الخمسين من عمره أن يقدف القرص أبعد مما يقذفه أى شاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة چوف » (٥١) . ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن يئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التى كان بمقراط يحب أن يرددتها : « اصبرى الآن يا نفسى ، لقد قاسيت من قبل ما هو شر من هذا » (٥٢) . وهو فى جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فإننا نعفو عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخرين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخى يعيش فى عالم مضطرب ، كدّر جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر فى هدوء إلى الدم المراق . وفى ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخيفها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب » (٥٣) . وإذا كان الآخى لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة فى بلاده . فإنه لا يرى شيئاً منهما فى خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل فى رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، ولفظ الفضيلة فى لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ (*) . وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

(*) Virtus = الرجولة ، Arete صفة أريس أو المريخ .

الأمين الرزين ، المحمد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويغدر ، بل هو الجبان الغيى أو الضعيف . لقد كان ثمة نيتشيون قبل نتشه ، وقبل ثرازمكس Thrasymachus بزمان طويل ، فى فجاجة العالم الأوربى وصلابته ٥

٣ - الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بخنان الأبوة وجبا القويين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبجهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آبلت فيما بعد إلى الدولة حين أمت حق القتل ٥ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلاً معقولاً فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأمر . من ذلك ما تقوله الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكرپس Cecrops لم يكونوا يعرفون آبائهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانوا ينسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية نفسها أن الآلهة التى كانت تميدها المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينة ، ومترهبرسفى فى إليوسيس Ilausis . ولنا نرى هذه الإلهات تخضع لإله ذكر (٥٤)

(٥٥) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثيرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لمن موثقاً به (٥٥)

الهومرية منه في أيام بركليز . فهي تضطلع بدور رئيسي في القصص والملاحم من خطبة بليس لهوداميا Hippodameia إلى رقة إفيجينا وحقد إلكترا : فلا الحجاب ولا البيت يمنع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً في مناقشات الرجال الجدية كاشترك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثيرونه بحال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التي تدرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ واولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فظاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهي تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ومائة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أثواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء حالية الماشية »^(٥٦) . ولم يكن الخطيب وحده هو الذي يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً بائنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام ، والرقص ، والمرح الذي تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسرون بالعروسين في وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغاني العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناي والقيثارة^(٥٧) . - ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقي أى بوصفه حناناً وشوقاً - يأتى إلى اليونان كبا يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التي تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل في العناية بالبيت وشئونه . وفي الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما في زوجها

من عدمه ، وليس في أشعار هومر إلا ثلاث زانبات - هن كليتمسترا ، وهلين ، وأفرديتي ؛ ولكن الصورة التي يرسمها هن لا تنطبق على المرأة العادية ، وإن انطبقت على الإلهات في تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التي أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأفاضيل التي لا وجود لها في أشعار هومر) نظاماً سليماً يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نساءها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوداً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمسطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ في العادة من أعمال الرجال . وكن فضلاً عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحرب ، وأن يعنى بنفسه في كل ما يعترضه من الأحداث في حياته التي لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح في غيبة أبيه رب الأسرة المسئول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجه إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلاً بعد جيل ، يتغير في خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع في بوتقة البيت التي ينصر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التي لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ - الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذى تلقوه فى أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد فى أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة^(٥٨) . ونجدها فى سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه فى ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالاً ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحى أديسيوس بشيء من هذه الأغاني : « ادع إلينا المنشد الإلهى دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة فى الغناء ثم اقترب الرسول يقود المنشد القدير الذى تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نعمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »^(٥٩) .

والفن الوحيد الذى يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكيله فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتى من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجوهر أو المزركشة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذى يحلى به صدره . وإذا تحدثت عن المهارة كان حديثه قصيراً ولكنه يلقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . ففى وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية فى

عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذي كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذي يمكن الأمطر من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح^(١٠) . أما المساكن التي هي أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها لتطلى بالجبس الملون ، وتزين حافاتها أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش . ولم يكن في الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان في سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صنابجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التي تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بؤءا . من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أناسهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكاليوس لينلبي كرسيّاً ذا متكأ مطعماً بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخماً متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهتمون القصور ويصرفون جهودهم في بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت باريس الفخم » الذي شاده ذلك الأمير بمعونة أمهر المهندسين في طروادة^(١١) ، وبقصر الملك ألسنوس الفاخر الذي كانت جدرانه من البرنز ؛ وطفه من عجبن الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشيء القليل عن بيت أبعمنون الملكي في ميسيني كما نسمع الشيء الكثير عن قصر أديسيوس في إثاكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أمامي مرصوف بمغص بالحجارة ، ويحيط به سور مجصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخلال ، وكومة من الروث الساحن ينام عليها أرجوس كلب أديسيوس في

نبوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينال فيه العبيد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته فى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه لتى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار البحرين ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ - الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصن هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانه سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملاً إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها المذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأنًا هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الديمقراطي الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطى الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . وإنا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد » (٢) ، وفى أديسيوس المختال الذى تقع

(٥) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاماً .

كلماته « على الناس وقح هشائش الثالث^(٦٣) » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ،

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقوامهم سلطاناً ، ويتخذونه ملوكاً عليهم ، ويدنون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة - الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك - نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسماؤها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلمها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخيون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شيء زعيم عسكري شديد العناية بمجيشه لأنه إذا علمه تبينت للناس أخطاؤه ، وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ، لديه ذخيرة من السهام المسمومة^(٦٤) ، والحراب ، والخيوف ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، وأوامره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد^(٦٥) . ومن

تحت المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانه : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع المومرى ، وقلم نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثار لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجي الضرائب ليقم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكاً فقيراً بحق ، أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبي المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القاتل جميعها ، ويمجدون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخم منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليحاربوا حظهم ضد حراب آسية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

ترى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يوناني وكل شاعر يوناني ، وأن كل سجل في معبد يوناني إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية - من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المحرقة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن القصة وأبطالها لا تزال في هذه الأيام كما كانت في آخر القرن الماضي تعد في جوهرها قصة صحيحة (٦٦) : وقد جاء في نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلعة مضطربة » حوالي ١١٩٦ ق . م (٦٧) ، وفي بلني إشارة إلى رمسيس « الذي سقطت طروادة في أيامه » (٦٨) . ويرجع إرنستينز Eratosthenes العالم الإسكندري العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً في ذلك إلى الأنساب المتواترة التي نسقها المؤرخ - الجغرافي هيكاتيوس Hecataeus في أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان في قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استمرت نازها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أبو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوروبا Europa من فينيقية وميديا من كلكير Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس (*) هيلن (٦٩) ؟ ويأبى استسيكورس

(*) لا حاجة بنا إلى القول بأن هيلن كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجمة وأضوى لها زوجة تينداريوس Tyndareus . لك أسطورة .

فى سنه الأخريرة بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويورپدز من بعده ، أن يعترفأ بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنتى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلاً : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يورپدز إرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تتحملة مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه الزيادة إلى الهجرة والتوسع (٧٠) . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الميسنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجمنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد اسون لطرودة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأربىلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند لپنتو وقينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يهده علينا الشعراء اليونان ومولفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يحمل الرعب — ويظهر تبعاً لذلك —

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال في شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما في مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تنقل في مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تنقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١) (*) نرى اليونان في مستهل القصيدة وقد قضوا في حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحزن إلى الوطن ، وفتك بهم المرض . وقد وقفوا طويلاً عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح في البحر قد حالاً بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجمنون غضب كلتمنسترا وهياً السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابتها لافجينيا لكي تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا في أماكن متفرقة في طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسراري ، فأخذ أجمنون الحساء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أبلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجمنون قد اعتدى على عفاف ابنه كاهنه كريسيس Chryseis . ففرد أجمنون كريسيس لأبها ولكنه يواسى نفسه ويخلق في القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحمل عمل كريسيس في الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجمنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة في الإلياذة ويشير الموضوع الذي يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمدد أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم تنتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

(*) تشير الأعداد المحصورة بين قوسين إلى كتب الإلياذة .

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهادن الجيشان مهادنة المتحفرين ، ويشترك بريام مع أبحمنون في تقديم القرбан إلى الآلهة . ويظفر منلوس بياريس ولكن أفردتي تنقذه وتختطفه في سحابة ثم تلقيه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت في الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) . ويعلن أبحمنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمبس للتشاور في الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها في حاجة إن أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترح زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توجه زوجته هيرا خطابها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسيني وأرجوس واسبارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة : ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق أجسامهم السهام ، أو الحراب أو السيوف « ويخيم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة في هذه اللعبة المرحية لعبة التقتيل والتقطيع ، فتتخذ حربة ديوميدي في جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصبح صبيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل ، ويسرع إلى زيوس ليثبه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادي زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبي ، إن بسالتك ستؤدي إلى هلاكك ، إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمني ، أنا التي سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبي وأمي وإخوتي جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبي وأمي ، وأنت زوج شبابي ، فأشفق على إذن وأقم هنا في البرج » . فيرد عليها بقوله : « إنني أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخواني وأحزان الملك ، غير أنني لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذي يكاد يزلزل كياني فهو أن أراك أسيرة رقيقة في أرجوس ؛ ولكني مع هذا لن أحجم

عن القتال (٧١) « ويصرخ ابنه الطفل أستياناكس Astyanax ، الذى قتل له ، أن يلقيه اليونان للمتصرون من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة ، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتأوج في خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويبكى ويصلى للطفل الحائر المندھش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة : (٧) و يبارز أجاكس Ajax ملك سلاميس . ويستमित البطالان في القتال ثم يفترقان في المساء بعد أن يتبادلا النناء والهدايا . يا لها من زهرة مجاملة تسبح في بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملاً يتنقلون فيه من نصر إلى نصر بأمر هكتور المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكذا خطب فيهم هكتور : وحياء الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا نه بكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم حرية والعرق يتصب من أجسامهم وعقل كل منهم جواده بالسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ، وقدم هكتور لهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالحلب من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحمل الخراف لرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبي الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا فار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار اليوم بين السفن السود ونهر زنتوس Thanathus ، وتلاألت تلالؤ النجوم حول آية الليل ، فكان منظرأ من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والرووس ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال . وبدت السماء الواسطة ذات الجلال ، وتلاألت نجومها التى بخطئها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل (٧٢) .

(٩) وبشير نسطور ملك فيلوس الإيلية على أبحمنون أن يرد بريسيس

إلى أخيل ، ويحييه أبهمنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطيه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يفضل غضباً . (١٠) وبفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة في أثناء الليل يقتلان فيها اثني عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أحمنون جنده ويستبسل في القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيانه ليقاسي فيها بعد حياة مريرة (١٢ - ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التي أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتزعج هيرا وتصمم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطرتلبس أفخر الثياب ، وتنطلق بمنطقة أفرديتي المقوية ، وتقوى زيوس فيضاجعها ، ويعمد بوسيدن في هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالاتاً فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر فروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستبشرين وهم يراجعون تراجعاً سيؤدى بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع پتركلوس حبيب أخيل هذا الطلب فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتربيده (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت پتركلوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقنع أمه الإلهة أثيتيس الحدد الإلهي هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودروعاً سابقة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أبهمنون ، (٢٠) ويقاتل إينياس ويوشك أن يقتله لولا أن بوسيدن ينقذه ليتخذ منه فرجلاً موضوعاً لشعره . (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى الحميم مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحها أرضاً وتحاول أفرديتي وهي في زي جندي أن تنقذه ، فتضربها أثينا ضربة على

صلوها الجميل تلقبها على الأرض . وتصفع هيرا أرتيميس على أذنها ،
أما بوسيدن وأبلو فيكتفیان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطرواديين
الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير بريام وهكيا على هكتر أن
يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتها ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه
ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث
مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقي عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفي ختام هذه المسرحية تحرق جثة پتركلوس بالمراسم الفخمة ؛
ويضحي أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وبأثنى عشر من أسرى
الطرواديين وبشعره هو الطويل . ويقم اليونان الألعاب تكريماً له
و (٢٤) يجر أخيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة
الحريق . ويقبل بريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له بجثة ولده ،
ويرقى قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثني عشر يوماً ، ويسمح
للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها
إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا تختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كان الشاعر قد قام بتصييرها من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقي منها ينشده شاعر غيره ، وتقص الأداب بعدئذ كيف رعى باريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى توثر فيه السهام ، فأرداه قتيلًا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً في هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إلىها طويل . ونحطم كثير من السفن التى أفلتت ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية في آسية وجزائر بحر إيجه وإيطاليا^(٧٣) : ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها ، ولما عاد أبحمنون إلى ميسينى « عاتق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السفين^(٧٤) » ولكن كلتمنسترا تزوجت ابن عمه إجسثس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أبحمنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسيوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته في ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة^(*) ،

(*) وأكبر ظن أن أساس القصة التى تروىها أديسيوس مؤسساً على طريق التاريخ من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو المحارب الحول الذى لا تعرفه ذرة - من هودله أقدم بقيتاً من قصة طروادة ، ولا يكاد يحاو منها أدب من أداب الأمم كلها^(٧٥) -

ولكنها أسلس منها وأرق وأجل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أجيچيا Ogygia ، وهي جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تيهي Tihiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً خاسبته عندها ثمانى سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته بئلي وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه في إثكا على أحر من الجمر .

وتقع أثينة زيوس بأن يأمر كلبسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطير الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على بئلي بتوددون لها ويسعون إلى تزواجها ليطفروا بعد ذلك الزواج بعرض إثكا ، وكيف يعيشون في قصف ومرح في قصر أديسيوس ويستمتعون بخيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ، وتخزن بئلي لبعده زوجها وابنها ، وتستعمل خاطبها بأن تعدم أنها ستزوج واحداً منهم بعد أن تتم نسيج غزلها ، ولكنها تمتنع منه في الليل ما عمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور في بيلس و (٤) منلوس في اسبارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يدلّه على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهن وقد استقرت في بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الرباني ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام في المدينة (٥) .

— تأديسيوس اليونان هو هيرمينه سنوحى Sinuhe وسندباد ، وريبن كروزو ، وإلك أردن Enoch Arden . أما الأماكن الواردة في القصيدة فهي من الأسرار الأخيرة للمقول التي لا يجد أصحابها ما يمتصون فيه أوقات فراغهم .

(•) وتقول الرواية اليونانية إن مواطنها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة في بلاد اليونان أن الآلهة تعاقب من يستطيلون في عرضها . بل إنهم قد أشاروا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفريّة القائلة بأن هن قوت إل طروادة عدل أن يقول إنها اختطفت وحلت إلى مصر رغم إرادتها (٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجلس على ساحل جزيرة كلپسو » وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحنينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضى ليله في الكهوف الخوفاء مضطجعا على الرغم منه بجوار كلپسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضى النهار جالسا على الصخور والرمال ، يبكي ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب (٧٨) » وتسبقه كلپسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثا ويحرقه منفردا .

(٦) ويكافح أديسيوس البحر كفاحا طويلا ثم ينزل في أرض فيثيا الخرافية (ولعلها كرسيرا — كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعثر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك ألسنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجريء المقتول العضلات ، وتفرض بسرهما إلى أترابها فتقول لمن : « استمعن إلى آيتنا العذاري ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو لي منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو في نظري كالآلهة التي تستقر في السماء الواسعة . ألا ليت رجلا كهذا يصبح لي زوجا ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معي (٧٩) » . (٧ - ٨) ويعجب ألسنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه أن يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يصره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفته قد دفعها الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فاكمة اللوطس الحلوة ففسى الكثيرون منهم أوطانهم وحنينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكاوين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ويعيشون في جزة تكثر فيها الحبوب والفاكمة البرية . ووقعوا في كهف السيكلوب

پوليفيمس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأتخذ أديسيوس من بقى بأن
أنام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠)
ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض
الستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم
البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه في
السفينة إلى جزيرة إنيئا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الحميلة
القدارة معظم رفاقه بغنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم غلرتهم ومسختهم
فصاروا خنازير . وأوشك أديسيوس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضى
بجها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة
كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يفشاها الظلام
السرمدى تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث
أديسيوس إلى أطيف أجمنون وأغيل ووالدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم
ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من
أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً في آذانهم . ثم تحطمت سفينته في مضيق
سلا Scyllis وكربديس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج ممن كانوا فيها إلا هو
وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى في جزيرة كلپسو .

(١٣) ويتأثر ألسنوس بقصة أديسيوس ، تدفعه شففته عليه فيأمر رجاله
أن يقلوه بجرأ إلى إنكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم
الهيثة ويدل الناس عليها . وفي إنكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى
كوخ يوميوس Eumaeus راعي خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعي ويكرمه
إكراماً حائماً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هنا
الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويبيكان
كلاهما ، وينتحيان بحرقه وبأعلى صوتيهما ، ويفضى الوالد لولده بخدعة
يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته .

(١٧ - ١٨) ويدخل القصر في زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراحل الغضب في صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادماته بالليل وإن كانوا يغازلون بنلى بالنهار . (١٩ - ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التي خدعهم بها بنلى ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرى منه بسهم يمر من فتحات اثنتى عشرة بلطة مصفوفة في صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفعلون ، ويطلب أديسيوس أن تتاح له الفرصة ليحرب حظهم ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلتقى عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صعوة شديدة في إقناع بنلى أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويستل سخائم صدورهم ويستعيد ملكه .

وفي هذه الأثناء كانت أشد المآسى في القصص اليونانى تجري في مجراها ذلك أن أرسيتز Arestes بن أجمنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثائرتة فأخذت بأثر أبيهما وقتلأ أمهما وعشيقتها . وقضى رستيز بعدئذ سنين كثيرة يضرب في الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس - ميسينى (حوالى عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ اسبارطة إلى ملكه (*). ولكن بيت پلويس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش في الاضمحلال ،

(*) مثل السير آثر إيفز في قبر ميسينى في بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لابي الهول وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه للنقوش تشير إلى =

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجمنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرد عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بلوئس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

— أدسيوس وأرستيز . وإذا كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أدسيوس وأرستيز بناء على هذا إلى صربىق بماضى عام العصر الذى حددناه فى المتن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوريين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أو سار إلى الهلوبيونيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إليريا وتسلوا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوس Naupactus ، ومضيق كورنثة عند كورنثة نفسها ، وأستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرق إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فلأن علمنا عيما يرق إلى مرتبة اليقين . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الحديد سبباً فى كثرة نقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشيء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية(*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابه أسياهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخيين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد ، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجع أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس ومجارا ، على ممالك الهلوبيونيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيوفهم طبقاتها الحاكمة ، وانخذلوا من بين

(*) مدينة فى انيسا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوروبا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

من الميسينيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيرينز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة بلوبس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة في برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهى قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية^(٨٠) . وفر أمامهم من بقى حياً من الدوريين ، فلبأ بعضهم إلى جبال اليلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أنكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتنى الفاتحون أثرهم إلى أنكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا في أثرهم إلى كريت^(٨١) ، ودمروا ما بقى من كنوسس لمبراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus ورودس . وكان الخراب أشمل وأتم في جميع أنحاء اليلوبونيز ودرت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها في غيرها من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية الى وقعت في العصر السابق للحضارة الإيجية هى المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدورى ، والتي تسميها الرواية اليونانية « عودة الهرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام هج على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث فى واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حيل بينهم وبين حقهم المشروع فى العودة إلى اليلوبونيز ، فانتزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما فى هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدبلوماسية التى يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموى فى صورة حق مقدس . ولنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا فى الكذب هذه البراعة كلها فى شباب العالم . وقد تكون القصتان كلاهما صحيحتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلاً ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فغطت أعمال الزراعة والتجارة اليرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعيها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقه مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلام^(٨٢) . ويسمى هزبود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، ويأسف على فسادة وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقتها ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان^(٨٣) » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثاليون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسيني وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لا حاة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليوناني جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شيء ، فقد امتزج العنصر الحديد بالقديم امتزاجاً سريعاً في خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً في داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهليين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهى الكراهية التى اصطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الآخيين والدوريين القوى النشيط بدم الشعوب التى هى أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتى كانت تقيم فى جنوبى اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التى أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هى نشأة شعب جديد مختلف عن الشعوب التى كانت تعيش من قبل فى تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبى » و « الشمالى »

(النوردي) : والعناصر الأسبوعية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمنح الحضارة المسيحية من الوجود . فقد بقيت الحياة كاملة طوال قرون العنف والفوضى في بعض عناصر التراث الإيجي - كطرائق الحكم والنظام الاجتماعي ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها^(٨٤) ، والمهارة في صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسبارطة^(٨٥) ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً في بلاد اليونان الديمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن المسيحيين^(٨٦) ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicron وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة ~~في~~ بالنهضة الأوربية التي أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يتسمان في اسبارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة في الشعر الغنائي طوال هذا العصر المظلم الذي لا تاريخ له ، وحلها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأبونيون ، والميناويون المنفيون في هيرتهم إلى جزائر بحر إيجه وإلى آسية غرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التي أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها في الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أبونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشيء من المهارة والنضارة القديمتين في المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوربية ، وهناك في هذه الأرض الأسبوية بدأت بعدئذ يقظة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات - الكريتية والمسيحية والآخية ، والدورية والشرقية - الشباب من جديد في حضارة بدأ يدب فيها ديب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها في أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مخنثة في كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بعض الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما في التفكير اليوناني والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطعة النظير . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، في بحر مظلم من الممجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كلورة أدت إلى خلق شعب غني غني يكاد أن يكون مفرطاً في تنوع دمائه وفي ذكرياته ، تحيط به وتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة ۞

الكتاب الثاني

نهضة بلاد اليونان

من ١٠٠٠ إلى ٤٨٠ ق . م .

أهم الحوادث في الكتاب الثاني

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ السابقة لعام ٤٨٠ هذا ٧٧٦ تواريخ غير مؤكدة . إذا ذكر اسم مكان غير مصحوب بوصف آخر دل ذكره هل تاريخ استيطانه الأول كما تذكره الـ واهات التاريخية المأثورة :

ق . م .	
١١٠٠ -	هجرة الأبوليين والأهونيين .
١٠٠٠ -	تشيد هيكل هيرا في أولمبيا .
٨٤٠ -	عصر هومر المرجح .
٧٧٦ -	الأنساب الألبية الأولى .
٧٧٠ -	سيوب وكوميا .
٧٥٧ -	٦ سيزكس وترايزس .
٧٥٢ -	المهد الأول للرؤساء (الأرغون) الذين كانوا يتولون الأمور .
عشر سنين .	
٧٥٠ -	اليونان يستقرون في شبه جزيرة تراقية .
٧٥٠ -	٥٩٤ عصر الأشراف .
٧٥٠ -	عصر هزيود المرجح .
٧٣٥ -	ناكسوس و (صقلية) .
٧٣٤ -	كرصيرا وسرقوسة .
٧٣٠ -	٢٩ رجيوم ، ولينتي : وكثانا .
٧٢٥ -	٧٠٥ الحرب الميسينية الأولى .
٧٢٥ -	النفوذ في ليديا وأيونيا .
٧٢١ -	سيبارس ، ٧١٠ كروتونا .
٧٠٥ -	تاراس ، ٧٠٠ ، بوسيدونيا ؛ بدء استعمار الحجارة في العمارة اليونانية .
٦٨٣ -	المصر الأول للحكام الخمسة الذي كان يدوم عاماً واحداً .
٦٨٠ -	فيدون طاغية أرجوس ؛ أول ظهور العملة الرسمية في بلاد اليونان .
٦٧٦ -	أرنجراس طاغية في ميكون .
٦٧٠ -	تريبتد السبوسي الشاعر والموسيق ؛ أركلوكس الهادوسي الشاعر ، أناشيد هومر لأبلو وديتر .
٦٦٠ -	شرانغ زلوكس في لكري .
٦٥٨ -	بيزنطية ، ٦٥٤ لمهاكوس .

ق . م .

- ٦٥٥ - ٦٢٥ : كيسيوس طاغية في كورنثة .
- ٦٥١ - سينيوس ؛ ٦٥٠ ، أبديرا وألبيا .
- ٦٤٨ - هميرا ، ميرون طاغية في سكيون .
- ٦٤٥ - ٣١ : الحرب الميسينية الثانية ، ثريوس الشاعر في اسبارطة .
- ٦٣٥ - شرائع ليقورغ في اسبارطة (٢) .
- ٦٣٥ - سيربي (٦١٥) أبيدوس .
- ٦٢٥ - ٥٨٥ : بريندر طاغية في كورنثة .
- ٦٢٥ - شرائع دراكو في أثينة .
- ٦١٥ - ثراسيبولوس طاغية في ميليتس .
- ٦١٥ - شرائع كارتداس في كنانا .
- ٦٠٥ - نقراطس ؛ مساليا (مرسيليا) ؛ كليثفيس طاغية في سكيون ، وبناكس في ميثلي ، وسيفو وألكيوس شاعرا لسبوس ، طاليس فيلسوف ميليتس ، ألكمان الشاعر في اسبارطة ، نهضة فن النحت .
- ٥٩٥ - الحرب المقدمة الأولى .
- ٥٩٤ - شرائع صولون في أثينة .
- ٥٩٥ - عصر الحكماء السبعة ، نشأة الحلف الأمفكتيون ، والأرفية ، الهيكل الثاني لأرتميس في إفسس .
- ٥٨٢ - الألعاب البيئية والبرزخية الأولى ، تماثيل الأكرابولس وأهلو أكراجاس ، إيدرب الساموس ، صاحب الحرافات المشهورة .
- ٥٧٦ - الألعاب التيمية الأولى .
- ٥٧٥ - فلارس طاغية في أكراجاس ؛ استيمكوردس الميمري الشاعر ؛ انكسندر فيلسوف ميليتس .
- ٥٦٦ - الألعاب الأثينية الجامعة الأولى .
- ٥٦١ - ٦٠ : حكومة الطاغية بيستراتس الأولى .
- ٥٦٠ - ٤٦ : كرويسس الذي يخضع أيونيا .
- ٥٥٨ - قرطاجة تستول على صقلية وقورسقة .
- ٥٥٥ - إمبوريوم (اسبانيا) ، ٦٢٥ إيليا (إيطاليا) .
- ٥٤٦ - ٢٧ : حكومة الطاغية بيستراتس الثانية
- ٥٤٥ - فارس تخضع أيونيا .
- ٥٤٤ - انكسينس فيلسوف ميليتس .
- ٥٤٥ - هب فاكس شاعر إنسوس .

ق. م.	
٥٣٥ - ١٥	يولكراتس طاغمة ساموس ؛ ثيودورس فنان ساموس ؛ أنكريون شاعر قيس .
٥٣٤ -	ثيسيس يوطد قواعد التمثيل في أثينة .
٥٣٠ -	ثيجنيس شاعر مجارا .
٥٢٩ - ٥٠٠	الفيلسوف فيثاغورس في كروتانا .
٥٢٧ - ١٠	هيباس طاغمة أثينة .
٥٢٠ -	بده هيكل الألبهوم في أثينة .
٥١٧ -	سمنيدس شاعر كيوس .
٥١٤ -	مؤامرة هرمديوس وارستوجيتون .
٥١١ -	غرينكوس الممثل الأثيني .
٥١٠ -	كروتونا يدمر سيبارس .
٥٠٧ -	كليستيز يوسع نطاق الديمقراطية في أثينة .
٥٠٠ -	هكتيوس جفراني ميلهس .
٤٩٩ -	أيونيا ثور ؛ مسرحية إيسكلس الأولى .
٤٩٧ -	اليونان الأيونيون بحرقين سرديس .
٤٩٤ -	الفنرس يغلبون الأيونيين في لادى .
٤٩٣ -	شمسكيز حاكم (أرغون) في أثينة .
٤٩٠ -	مرثون ؛ هيكل أنيا في ليجنيا .
٤٨٩ -	أرسيديز حاكم (أرغون) ؛ محاكمة ملتيداس .
٤٨٨ - ٧٢	ثيرون طاغمة في أكرجاس .
٤٨٧ -	اختيار الأرغونيين بالقرعة لأول مرة .
٤٨٥ - ٤٧٨	جيلون طاغمة في سرقوسة .
٤٨٥ -	إنكارميس يوطد دعائم الملهاة في سرقوسة .
٤٨٢ -	نق أرستيديز .
٤٨٠ -	معارك أرتميسيوم ، وترموبيلا ، وسلاميس ، وهيرا ؛ أجلاذاس الأرجوسى المثال .
٤٧٩ -	معركتا بلاتية ومكالى .

الباب الرابع

اسـيـارـطـة

الفصل الأول

البيئة المحيطة ببلاد اليونان

لننظر إلى خريطة للعالم القديم ونطلع فيها على جيران بلاد اليونان القديمة ، ونعنى ببلاد اليونان أو هلاس جميع البلاد التي كان يسكنها في الزمن القديم شعوب تتكلم اللغة اليونانية .

ولنبداً بالنظر إلى الأصقاع التي دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة — فوق تلال إبيروس وعلى طول وديانها . وما من شك في أن أسلاف اليونان قد أقاموا في تلك الأماكن كثيراً من السنين ، لأنهم أنشأوا في ددونا Dodona مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . ولقد ظل اليونان حتى القرن الخامس يتلقون الوحي في هذا المكان ويقرأون ما تريده الآلهة في غليان المراجع أو حفيف أوراق البلوطة المقدسة^(١) . ويحترق نهر أكرون الجزء الجنوبي من إبيروس ، وسط أخاديد بلغت من الظلمة والعمق درجة جعلت شعراء اليونان يصفونها بأنها مدخل الجحيم أو أنها هي الجحيم نفسها . وكان معظم أهل إبيروس في أيام هومر يتكلمون اللغة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية ، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدينة .

وإلى شمال لإيروس على ساحل البحر الأدرياي تقع إليريا Illyria ، وكانت في الوقت الذي نتحدث عنه بلاداً قليلة نـسكان أهلها من الرعاة يبيعون الماشية والعبيد بـملح الطعام^(٢) . وعلى هذا الساحل عند إيدمنوس Epidamnus (وهي ديركيوم Dyrrachium الرومانية ودرزو الحالية) أنزل قيصر جنوده وهو يطارد بـمبي . وعلى الجانب الآخر من البحر الأدرياي اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك . وأدخلوا الحضارة في إيطاليا ، (وقد عادت تلك القبائل في آخر الأمر فاكـتسحتهم وابتلعت معهم بلادهم الأصلية وضمت بلادهم إلى إمبراطورية لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم) . وكان من وراء جبال الألب الغاليون ، الذين أخلصوا الود فيها بعد لمـساليا (مرسيليا) ، وفي الطرف الغربي من البحر المتوسط تقع أسبانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاجيين حين أنشأ اليونان في عام ٥٥٠ مستعمرتهم الوجلة في إمبريوم (أمپورياس Ampurias) . وكانت قرطاجنة الإمبراطورية تقع على ساحل أفريقية أمام صقلية تسلط عليها وتهدها ، وقد اختط هذه المدينة ديدو Dido والفينيقيون ، وتقول الرواية إن ذلك كان في عام ٨١٣ . ولم تكن وقت إنشائها قرية صغيرة بل كانت مدينة عامرة يبلغ سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، تحتكر تجارة البحر المتوسط الغربي وتسيطر على يتكا ، وهو Hippo وثلاثمائة بلدة أخرى في أفريقية ، ومناجم غنية ، ومستعمرات في صقلية ، وسردينية ، وأسبانيا ، وقد قدر لهذه الحاضرة ذات الثروة الطائلة أن تقود الكفاح ضد اليونان من ناحية الغرب ، كما قدر لبلاد الفرس أن تقوده من ناحية الشرق .

وإلى شرق هذه المدينة على ساحل أفريقية كانت تقع مدينة قورينة اليونانية ، وفي مؤخرتها بلاد اللوبيين المجهولة ، وإلى شرقها مصر . وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كدموس

Cadmus ودانوس Danaus جاءوا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت^(٣) . وقد انتعشت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك-الساويين (٦٦٣ - ٥٢٥) ، وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ . وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين - أمثال طاليس ، وفيثاغورس ، وصولون ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظيم حضارتها وقدمها ، ولم يجدوا فيها برايرة همجاً كالذين كانوا يجدونها فى الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقواماً كانت لهم حضارة ناضجة ، وفنون راقية ، قبل سقوط طروادة بألفى عام . وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون : « إنكم أيها اليونان لا تزالون أطفالاً ، ثوثرارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضى . ولما أخذ هكتيوس الملبى يزدهى على الكهنة المصريين ويقول لهم إن فى وسعه أن يذكر لهم سلسلة نسبة التى تنتهى بعد خمسة عشر جيلاً إلى أحد الآلهة ، أطلعه فى هياكلهم على ٣٤٥ تمثالاً لكبار الكهنة كل منهم ابن الذى قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلاً تبدأ من العهد الذى كان فيه الآلهة يحكمون الأرض^(٥) . وكان علماء اليونان أمثال هيرودوت وأفلو طرخس يرون أن العقيدة الأرفية القائلة بأن الخلق يحاسبون بعد موتهم على ما قدموا من خير وشر فى حياتهم ، وأن الاحتفالات التى كانت تقام لبعث دمترو وپرسفونى فى إليوسيس ، مأخوذة كلها من عبادة إيزيس وأوزيريس المصريين . وأكبر الظن أن طاليس الملبى تعلم الهندسة النظرية فى مصر ، وأن روكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيين قد عرفا فيها فن صب الآنية المصونة البرنزىة ، وفى مصر ازداد مهارة فى صناعة الفخار والتسيج وطرق المعادن والحفر على العاج^(٧) . وعن المصريين والأشوريين والفيثيقين والحثيين أخذ المثلون اليونان طراز تماثيلهم الأولى - وجوهها المستوية ، وعيونها

المائلة ، وأيديها المقبوضة ، وأطرافها المعتدلة المتصلبة(*) . وقد وجد مهندسو اليونان بعض إلهامهم الفني ، الذى أوحى إليهم بالعمد المحززة وبالطراز الدورى ، فى عمد سقارة ، وبني حسن ، كما وجدوا بعضه الآخر فى بقايا ميسنى اليونانية(٨) . وكما أن بلاد اليونان قد تعلمت فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ، فإنها حين خارت قواها ماتت فى أحضان مصر إذا جاز هذا التعبير ، فقد مزجت فى الإسكندرية فلسفتها ، وطقوسها الدينية ، وآلهتها بنظائرها فى مصر وبلاد اليهود حتى تبعث وتحيى حياة جديدة فى رومة وفى المسيحية .

وكان أثر فينيقية فى اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها . فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوافه لنقل الثقافة ، ونشروا فى جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى ، وصناعاتها ، وفنونها . وطقوسها الدينية . ولقد بز الفينيقيون اليونان فى صنع السفن ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم ؛ وعلموهم كذلك أساليب فى طرق المعادن ، والنسيج والصباغة خيراً من أساليبهم(٩) ، وقد اشتركوا مع كريت وآسية الصغرى فى نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها فى مصر واليونان وسوريا ؛ وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها(١٠) ، وساعنها المائية ومزولتها(١١) ، ووحدات العملة المتداولة فيها ، وهى الأبول obol والمينا mina ، والثالث (الوزنة) (١٢) ، وقواعد علم النلك ، وآلاته ، وسجلاته ، وحسابه ، ونظامها الستينى الذى يقضى بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربع القائمة التى تتقابل فى مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً ، وتقسيم كل درجة إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين إلى ٦٠ ثانية ، ولعل معرفة طاليس بعلم الفلك عند المصريين

(*) انظر تيمال كاريز Cithares الجالس الذى عثر عليه فى ميليس والمحفوظ فى المتحف البريطانى ، أو رأس كلوبيس Cleobis الذى صنعه بليبيدس Polymedes والمحفوظ فى متحف دلفى .

والبابليين هي التي أمكنته أن يتنبأ بكسوف الشمس^(١٣) ، ولعل هزبود قد أخذ عن بابل فكرته القائلة إن القوضى والعاء أصل الأشياء جميعها ، وإن قصة إشتار وتموز لتشبه قصتي أفرديتي وأدنيس ودمتر وپرسفوني شهاً يدعو إلى الظن بأن الأولى هي الأصل الذي أخذت عنه القصتان الأخريان .

وكان بالقرب من الطرف الشرقى للمحيط التجارى الذى يضم أجزاء العالم القديم كله آخر أعداء اليونان ونغنى بهم الفرس . ولقد كانت حضارة بلادهم من بعض نواحيها - وإن كانت نواحي قليلة - أرقى من حضارة بلاد اليونان المعاصرة لها . فلقد أخرجت إلى العالم طرازاً من الرجل المهذب أرقى وأظرف من الرجل اليونانى فى كل ناحية من النواحي عدا حدة الذهن والتعليم ، كما أنشأت نظاماً للإدارة الإمبراطورية يفوق بلا جدال ذلك النظام الذى كانت تزعمه أثينة واسبارطة ، ولم يكن ينقصه إلا حرص اليونان على الحرية . ولقد أخذ اليونان الأيونيون عن آشور قدراً من المهارة فى صنع تماثيل الحيوان ، كما أخذوا عنهم فى صناعة النحت المبكرة ميلهم إلى ضخامة التماثيل واستواء ما عليها من الملابس ، وأساليب الزينة فى الأطناف والقوالب ، وفى طراز النقش البارز فى بعض الأحيان ، كما نشاهد ذلك فى لوحة أرستيون الجميلة^(١٤) . وكانت للبيديا علاقات وثيقة بأيونيا ، وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجارى الذى تصنى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد النهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل . وقد اقتضت الأعمال التجارية الواسعة قيام المصارف ، واضطرت الحكومة الليدية إلى إصدار عملة مضمونة من الدولة فى عام ٦٨٠ . وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل ذا الفائدة العظمى للتجارة ، وأدخلوا عليه ضروب الإصلاح والتحسين ، وكان له من الآثار التى لا تقل فى خطرها وسعتها عن استخدام الحروف الهجائية . وكان أثر فريجيا فى بلاد اليونان أقدم من هذه الآثار السابقة . وأدل على حذق الفريجيين . فقد دخلت سيبللى أمها

الإلهة من أول الأمر إلى دين اليونان ، وأضحت موسيقى الناي وما يصحبها من تهتك هي « الطراز الفريجي » الشائع بين عامة الشعب ، والذي أقلق بال رجال الأخلاق اليونان . وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق الملهسنت من فريجيا إلى تراقية ، واستخدمت في طقوس ديونيسس . وكان إله النحر أهم ما أهدته تراقية إلى بلاد اليونان ، ولكن مدينة تراقية هي أبلرا المتأثرة أرادت أن تعوض بلاد اليونان عما أصابها بهذه الهدية فأهدت إليها ثلاثة من فلاسفتها - هم ليوسيبس Leucippus ودمقريطس Democritus ، وپروجراس Protagoras . وتراقية هي التي انتقلت منها طقوس ربات الشعر إلى بلاد اليونان ، ولقد كان واضعو فن الموسيقى اليونانية نصف الخرافيين - أرفيوس ، وموسايوس Mausaeus وثاميريس Thamyris - مغنين وشعراء تراقيين .

وننتقل بعد من تراقية نحو الجنوب إلى مقدونية ، وبذلك نكون قد أتممنا دراسة كل ما يحيط ببلاد اليونان من حضارات . ومقدونية بلاد جميلة المناظر الطبيعية ، كانت أرضها في الزمن القديم غنية بالمعادن ، وسهولها الخصبة تنتج الفاكهة والحب ، وجبالها تنشئ أقواماً صلاباً قدر لهم فيما بعد أن يفتحوا بلاد اليونان . وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة ، أهمها الإليريون والتراقيون ، وربما كانت لهم صلات في الدم باللوريين الذين فتحوا البلوونيز . وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان (ومن أبناء هرقل نفسه) ، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية . وكانت عاصمتهم الأولى إدسا Edessa تقع فوق هضبة واسعة بين السهول الممتدة إلى إبيروس وسلاسل الجبال التي تصل إلى بحر ليجه . وكان إلى الشرق منها مدينة پلا Pella التي أضحت فيما بعد عاصمة فليب والإسكندر ، وبالقرب من البحر مدينة پدنا ، التي هزم فيها الرومان المقدونيين الفاتحين وكسبوا بعد هذه الهزيمة حق نقل حضارة اليونان إلى العالم الغربي .

تلك إذن هي البيئة التي كانت تحيط ببلاد اليونان : حضارات كحضارة مصر وكريت وبلاد النهرين أهدت العناصر الفنية في الصناعة ، والعلوم ، والفن ، فاستحالت على أبدى اليونان إلى أزهى صورة في التاريخ ؛ وإمبراطوريات كبلاد فارس وقرطاجنة تؤثر فيها منافسة التجارة اليونانية ، وينضم بعضها إلى بعض لمحاربة اليونان وجعلها ولاية خاضعة لسلطانها غير قادرة على أذاها ؛ وإلى الشمال جموع حربية النزعة ، تتكاثر دون تفكير في العواقب ، وتنقل في قلق واضطراب ، وتعب بعد زمن قد يقصر وقد يطول الحواجز الجبلية القائمة بينها وبين بلاد اليونان ، وتفعل بها ما فعله الدوريون من قبل فتمزق ما سماه شيشرون الإطار اليوناني الموشى به الثوب الممجى^(١٥) ، وتدمر حضارة لا تفقه لها معنى . ولما كانت هذه الأمم المحيطة ببلاد اليونان تعنى بما كان يعده اليونان جوهر الحياة وأعلى ما فيها ألا وهو الحرية - حرية الحياة والتفكير ، والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب ، عدا الفينيقيين ، يبرز تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية . وهذا هو السبب الذى حدا باليونان إلى أن يطلقوا عليهم بلا تمييز بينهم اسم البربري *barbaroi* أى الممجى ؛ فالهمجى في اعتقادهم هو الذى لا يرضى بالاعتقاد دون تفكير ، والذى يعيش مسلوب الحرية . ثم تتنازع الفكرتان - صوفية الشرق وعقلية الغرب - آخر الأمر جسم بلاد اليونان وروحها ، فتتصر العقيدة في عهد بركليز ، كما انتصرت في عهد قبصر ، وليو العاشر ، وفردريك ؛ ولكن الصوفية كانت تعود على الدوام . وتبادل النصر بين هاتين الفلسفتين المكملتين كلأخرى هو الذى تتكون منه أهم المراحل في قصة الحضارة الغربية .

الفصل الثاني

أرجوس

وأخذت بلاد اليونان الصغيرة تمد رقعتها داخل هذه الدائرة من الأمم المحيطة بها حتى لم يكذب بقى جزء من شاطئ البحر المتوسط لم يعمره أبناؤها . ذلك أن اليد الهزيلة التي مدت أصابعها الرفيعة إلى البحر نحو الجنوب لم تكن إلا جزءاً صغيراً من بلاد اليونان التي يعيننا تاريخها في هذا الكتاب ؛ فقد انتشر اليونان ، الذين لا تصدهم عن غرضهم عقبات مهما قويت في أثناء تطورهم ونمائهم ، في كل جزيرة من جزائر بحر إيجه ، وإلى كريت وقبرص ، وإلى مصر وفلسطين ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسية الصغرى ، وإلى بحر مرمرية والبحر الأسود ، وإلى شواطئ بحر إيجه وشبه الجزيرة الممتدة منه ، وإلى إيطاليا ، وغالة ، وصقلية ، وإلى شمال أفريقيا . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعها دول مدن مستقلة متفرقة ولكنها يونانية ، تتكلم اللغة اليونانية وتعبد الآلهة اليونانية ، وتكتب الآداب اليونانية وتقرؤها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية ، وتمارس الديمقراطية على الطريقة اليونانية الأرستقراطية . وهم حين هاجروا من بلاد اليونان لم يتركوا موطنهم الأصلي وراءهم ، بل حملوه معهم ، حتى أرضه نفسها ، أينما ذهبوا ، وقد جعلوا حوض البحر المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم ، ودام على هذا الوضع قرابة ألف عام .

وأصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية القديمة ويثبط همته هو أن يولف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة

وقصة متصلة الأجزاء(*) . وسنحاول أن نفعل هذا بتلك الطريقة الشيقة
طريقة الطواف في رحلة بهذه الأجزاء . وسنضع أماناً في خلال هذه الرحلة
خريطة ، لا تكلفنا غير قليل من الخيال ، وسنتقل من مدينة إلى مدينة في
العالم اليوناني ، وندرس في كل مركز من هذه المراكز حياة الأهليين قبل
الحرب الفارسية - أساليبهم الاقتصادية والحكومية ، ونشاط علمائهم
وفلاسفتهم ، وما أنشدوه من الشعر وما أنتجوه من الفنون(**) . ولسنا
نكر أن في هذه الطريقة عيوباً كثيرة : فالتتابع الجغرافي لن يتفق كل الاتفاق
مع السياق التاريخي ، وسنضطر في هذه الرحلة إلى أن نقفز من قرن إلى قرن ومن
جزيرة إلى جزيرة ، وسنجد أنفسنا نتحدث إلى طاليس وأنكسمندر قبل أن
نصنى إلى هومر وهزود . ولكننا لا يضيرنا قط أن نرى الإلياذة وما فيها
من فحش في ضوء التشكك الأيوني ، أو أن نستمع إلى شكاية هزود الشديد
بعد أن زار المستعمرات الأيونية التي جاء منها والده المنهوك . وسنحيط
بعض الإحاطة ، حين نصل في آخر رحلتنا إلى أثينة ، بالنواحي الكثيرة
الاختلاف لتلك الحاضرة التي ورثها والتي حافظت عليها ببسالة في مرون .
ولذا بدأنا رحلتنا من أرجوس حيث أقام الدوريون المنتصرون حكمهم ،
وجدنا أنفسنا في إقليم يوناني خالص : في سهل غير مسرف في خصبه ، ومدينة
صغيرة مهوشة النظام ، ذات بيوت صغيرة من الآجر والجص ، وهيكل

(*) « إن كتابة تاريخ بلاد اليونان في كل عصر من عصوره إلا القليل النادر منها
من غير أن يتشقت اهتماماً عمل من أصعب الأعمال ... ذلك أنه لا توجد وحدة دائمة متصلة
أو مركز ثابت نستطيع أن نخفض له أعمال الدول اليونانية المتعددة وأهدافها » بيوري Bury
من كتاب « المؤرخون اليونان الأقدمون » .

(**) سنقص التاريخ المعاصر للمدن اليونانية الصغرى في هذه الفصول (الكتاب
الثاني) حتى وفاة الإسكندر (٣٢٣) ، وذلك لكي فتحاشي المودة مراراً كثيرة إلى
المكان الواحد .

على تلها ، وملهى فى الهواء الطلق على سفح ذلك التل ، وقصور متواضعة فى أماكن منها متفرقة ، وأزقة ضيقة ، وشوارع غير مرصوفة ، وعلى بعد منها البكر الجميل الجذاب المضطرب الأمواج . ذلك أن بلاد اليونان إنما تتكون من جبال وبحار ، والمناظر الجميلة الفخمة عادية فيها مألوفة إلى حد يجعل اليونان لا يعنون بذكر ذلك الجمال فى كتبهم وإن كان يستحوذ على قلوبهم ويوحى إلى عقولهم . وشتاء البلاد بارد مطير ، وصيفها حار جاف ، وأهلها يزرعون فى الخريف ويحصلون فى الربيع ، والمطر فيها نعمة وبركة ، وزئوس مرسل المطر إله الآلهة . وأنهارها قصيرة ضحلة ، تتحول إلى سيول جارفة فى فصل الشتاء ، وتجف حتى تظهر الحصباء فى قيعانها فى حر الصيف . ولقد كان على طول الشاطئ اليونانى مائة مدينة فى حجم أرجوس وشبيهة بها ، وألف مدينة أخرى تشبهها ولكنها أقل حجماً منها ، وكلها ذات سيادة تغار على سيادتها ، يفصل كل واحدة عن الأخرى ما بينها من خصام شديد أو مياه خطيرة ، أو تلال عديدة المسالك .

ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجس البيلاسجى ، البطل ذى المائة العين ، كما يعزون ازدهارها الأول إلى رجل مصرى يدعى دانوس Dansus قدم إليها على رأس جماعة من « الدنائين » ، وعلم الأهلىن طريقة لإرواء حقولهم من الآبار . وليس من حقنا أن نسخر من هذه الأسماء الخيالية ، فقد كان اليونان يفضلون أن تنتهى بالأساطير تلك التواريخ الطويلة التى تنتهى عندنا نحن إلى الجهل والغموض . وقد أصبحت أرجوس ، تحت حكم ثمنوس أحد المرقليين الذين عادوا إليها ، أقوى المدن اليونانية بأجمعها ، وأخضعت لسلطانها تيرينز ، وميسينى وجميع الأراضى المحيطة بها . واستولى على زمام الحكم فيها حوالى عام ٦٨٠ أحد أولئك tyranoi ، الذين أصبح حكمهم الطراز المألوف فى كبريات المدن اليونانية طوال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد . ولعل هذا الطاغية المسمى فيدون Pheidon قد استولى على الحكم ،

كما استولى عليه أمثاله من الطغاة ، بأن تزعم طبقة التجار الآخذة قوتها في الازدياد بعد أن ضموها إليهم العامة مؤقتاً ليسهل عليهم الوصول إلى غرضهم — وهو مقاومة سلطان الأشراف ملاك الأراضي . ولما هددت إيدروس وأثينة سفينة إري — حلفاء أثينة — لمساعدتها واستولى عليها لنفسه . وراخسمل فيدرت نظريته المراريس وديكاكيل البلبية — ولعله أخذها عن الفينيقيين — كما استخدم نظام النقد الليدى الذى تضمنته الدولة . وأنشأ دار الضرب فى إريثينة وأضحت « اسلاحف » (أى قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة) أول عملة رسمية فى بلاد ايونان القارية (١٧) .

وكان حكم فيدون الاستبدادى المستنير بداية عصر من الرخاء جاء إلى أرجوس وما حولها بكثير من الفنون حتى كال موسيقبو أرجوس أشهر الموسيقيين فى بلاد اليونان كلها فى القرن السادس قبل الميلاد (١٧) ، ومن هؤلاء لاسوس Lasus الهرمبوني (Hermione) الذى اشتهر بين الشعراء الغنائيين فى عصره ، والذى أخذ عنه بندار Pindar مهارته فى هذا الضرب من الشعر . وقد أهداه مع أساس مدرسة النحت الأرجوسية التى أهدت إلى بلاد اليونان بديلهيس كما أهدت إليها قواعدها الفنية ، ووجد التمثيل موعظاً له فى تلك المدينة حيث أنشئت له دار تحتوى على عشرين ألف مقعد ، وشاء المهندسون فيها هيكلاً لهيراً ، التى كانت تحجب أرجوس ، وتخصها بعبادتها ، وتعددها العروس الإلهة التى تتجدد بكارتها فى كل عام (١٨) لكن ما أصاب حلفاء فيدون من ضعف وفساد — هما نقمة الملكية — بالإضافة إلى الحروب المتعاقبة الطوال مع اسبارطه ، أوهن أرجوس ، واضطرها إلى أن تتخلى عن زعامة الهلوبيونيز إلى السديمونيون Lacedaemonians . وهى اليوم بلدة هادئة تخفى معالمها بين ما يحيط بها من حقول ، ولا تذكر إلا قليلاً عن مجدها الغابر ، وتفخر بأن أهلها لم يهجروها قط فى أثناء تاريخها الحافل الطويل .

الفصل الثالث

لكونيا

في جنوب أرجوس ، وعلى مسافة بعيدة من البحر ، يشاهد السائح قلل سلاسل جبال البرنون Parnon ، وهي قلل جميلة المنظرو لكن أجمل منها في العين نهر يوروتاس Eurotas الذي يجري بينها وبين سلسلة تيجتوس في الغرب ، وه أكثر منها ارتفاعاً وأشد قتماً وتكثل أعلاها الثلوج . وفي الوادى المعرض لقلل الزلازل يمتد « تجويف لسديمون » ، وهو سهل منبسط تحميه التلال من جميع جوانبه بحيث لا تحتاج حاضرتة اسبارطة إلى أسوار تحميها . وكانت اسبارطة « المبعثرة » في ذروة مجدها تتكون من خمس قرى منضمة بعضها إلى بعض يعمرها حوالى سبعين ألف نسمة . أما اليوم فهى قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف ، ولا يكاد يبقى شىء حتى فى متحفها الصغير ، من تلك المدينة التى حكمت فيما مضى بلاد اليونان وكانت سبباً فى خرابها .

١ - توسع اسبارطة

ولقد سيطر الدوريون من هذا الحصن الطبيعى المنيع على جنوبى الهلويونيز واستعبده . وكان هؤلاء الشماليون ذوو الشعر المرسل الطويل ، الذين قوت حياة الجبال أجسامهم وضرستهم الحروب ، كان هؤلاء الأقوام يرون أن الحياة إما فتح أو استرقاق ولا ثالث لهما . وكانت الحرب عملهم المألوف يحصلون بها على رزقهم الشريف فى ظنهم ، كما كان غير الدوريين من أهل البلاد الذين أضعفهم اشتغالهم بالزراعة وطول عهدهم بالسلم فى حاجة ملحة إلى سادة متلون أمه وهم ريسيطرون عنهم . وكان أول ما فعله ملوك اسبارطة ، الذين (١١) - ص ١٠٠ -

يدعون أنهم من سلالة الهرقلين الذين وفدوا إلى البلاد منذ عام ١١٠٤ ، أن
أخضعوا سكان لكونيا الأصليين ثم هاجموا مسينيا Messina . وكانت تلك
الأراضي الممتدة في الطرف الجنوبي الغربي من البلوبونيز مستوية وخصبة إذا
قيست إلى سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتقوم بحرثها قبائل هادثة مسالة . ويقص
علينا بوسنياس كيف ذهب أرستوديموس Aristodemus ملك مسينيا إلى
مهبط الوحي في دلفي ليستشيره في الوسائل التي يستطيع بها أن يهزم
الاسبارطيين ، وكيف أمره أهلو أن يضحى بعذراء يجرى في عروقها دمه
الملكي ، وكيف قتل ابنته هو وخسر الحرب^(١٩) (وربما كان سبب خسرانه
أنه كان مخطناً في اعتقاده أنه قتل ابنته) ، وكيف قاد أرستينيس Aristomenes
الشجاع الميسينيين بعد جيلين من ذلك الوقت في ثورة جامحة على حكامهم
الفاثين ، وكيف ظلت مدنها تسع سنين صابرة على الهجوم والحصار ولكن
الاسبارطيين ظفروا بهم آخر الأمر ، فأخضعوا الميسينيين وفرضوا عليهم جزية
سنوية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا نصف عددهم وضموهم إلى أقتان
هيلوت Helot :

والصورة التي ترسم في مخيلتنا للمجتمع اللكوني قبل ليقورغ تتكون ،
كما تتكون بعض الصور الملونة القديمة ، من ثلاث طبقات ، العليا منها هي
طبقة السادة الدورين ، ويعيش معظمهم في اسبارطه على منتجات الحقول
التي يملكونها في الريف والتي يحرثها لهم الهيلوتيون (الأرقاء) . وكان بين
هاتين الطبقتين من الوجهة الاجتماعية ، ويحيط بهما من الوجهة الجغرافية ،
طبقة البرئيسيين Perioeci (الساكنين حولهم) ، وهم قوم أحرار
يسكنون في مائة قرية أو على نحو لكونيا ، أو يشتغلون بالتجار أو الصناعة
في المدن ، يؤدون الضرائب ويخدمون في الجيش ولكنهم لا نصيب لهم
في حكم البلاد ، وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة . وكانت
أحط الطبقات وأكثرها عدداً طبقة الهيلوتيين ، وقد سموا بهذا الاسم -

- على حد قول استرابون - نسبة إلى مدينة هيلوس ، وكان أهلها من أول من استعبدهم الاسبارطيون^(٢٠) . وقد استطاعت اسبارطة بالغزو السافر لسكان لكونيا من غير الدورين أو باستيراد أسرى الحرب أن تجعل لكونيا بلاداً يعمرها نحو ٢٢٤ر٠٠٠ من الهيلوتين ، ١٢٠ر٠٠٠ من البريتيسين ، ٣٢ر٠٠٠ رجل وامرأة وطفل من طبقة المواطنين(*)^(٢١) .

وكان الهيلوتيون يتمتعون بجميع الحريات التي يستمتع بها أفتان الإقطاع في العصور الوسطى ، فكان للواحد منهم أن يتزوج كيف شاء ، وأن يكون له أبناء لا يهتم بعددهم أو ما سوف يوول إليه أمرهم ، ويستغل الأرض بطريقته هو ، ويعيش في قريته مع جبرته ، لا يقلقه مالك أرضه الغائب عنها ، ما دام يؤدي إلى هذا المالك بانتظام إيجارها الذي حددته لها الحكومة . وكان هذا الفن مرتبطاً بالأرض ولكن مالكتها لم يكن في مقدوره أن يبيعه أو يبيعها وكان في بعض الحالات يؤدي خدمات منزلية في المدينة ؛ وكان ينتظر منه أن يقوم على خدمة سيده في الحرب ، وأن يحارب دفاعاً عن الدولة إذا ما طلب إليه أن يحارب من أجلها ، فإذا أبلى في الحرب بلاء حسناً فقد ينال حريته . ولم تكن حاله الاقتصادية في الظروف العادية أسوأ من حال المزارعين القرويين في سائر أجزاء اليونان الخارجة عن أنكا ، أو الفعلة غير المهرة في مدينة من المدن الحديثة . وكان مما يخفف عنه عبء الحياة مسكنه الذي يملكه ، وعمله المتنوع ، وما حوله من حقول وأشجار هادئة تؤنسه وتعينه على عيشه ؛ ولكنه كان من الناحية الأخرى معرضاً على الدوام لأن تطبق عليه القوانين العسكرية ، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية تقتله في أية لحظة من غير سبب أو محاكمة .

وكان الساذج في لكونيا كما كان في غيرها من بلاد العالم يؤدي الجزية إلى الشاطر الماكر : وتلك عادة لها ماضٍ قديم مبجل ومستقبل ميسر بطول البقاء .

(•) هذه الأرقام بطبيعة الحال غنية كلها ، تستند إلى إشارات قليلة وفروض كثيرة .

وسبب ذلك أن طيبات الحياة في أكثر الحضارات تأتي بها وتنظم تصرفها عملية البيع والشراء المادية السوية : فالشاطر الماكر يحملنا على أن ندفع في الكماليات التي لا يتيسر مضاعفتها وفي الخدمات التي يؤدّيها لنا أكثر مما نستطيع الساذج أن يحصل عليه في نظير ما ينتجه من الضرورات التي يسهل إنتاجها وتعويض ما يستهلك منها . أما في لكونيا فقد توصل بعضهم إلى تركيز الثروة في أيديهم بوسائل بادية للعين منفرة ، ملأت قلوب الهيلوثيين غيظاً بلغ من الشدة حداً جعل اسبارطة في كل عام تقريباً مهددة بالثورات التي تعرض كيان الدولة لأشد الأخطار .

٢ - عصر اسبارطة الذهبي

كانت اسبارطة في هذا الماضي الغامض قبل أن يأتيها ليغورغ مدينة كسائر المدن اليونانية ازدهر فيها الفن والأغاني كما لم يزددها قط بعد أيامه . وكانت الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً فيها وهي قديمة فيها قدم السكان أنفسهم ، ذلك أننا مهما أوغلنا في القدم نجد اليونان يغنون . وإذا كان تاريخ اسبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطبغت بالصبغة العسكرية - وكان أسلوبها هو الأسلوب الدوري ، البسيط القوي . أما غيره من الأساليب الموسيقية فلم يكن يشبط فحسب ، بل كان كل خروج عن هذا النمط الدوري يعاقب عليه القانون ، وحتى تريندر نفسه Terpander ، وهو الذي أخذ بأغانيه فتنة قامت في المدينة ، قد حكم عليه الإغوريون(*) بغرامة ومهرت قيثارته في جدار لأنه جرؤ على أن يزيد على أوتارها وترّاً جديداً لتنسجم نغماتها مع صوته ، ولم يسمح لثيموثيوس Timotheus في عهد آخر من عهودها بأن يشترك في المباريات

الاسبارطية إلا بعد أن نزع بأمر الإفورين ما أضافه من الأوتار الشائنة المرذولة على قيثارة تريندو وكان قد زاد هذه الأوتار من سبعة إلى أحد عشر (٢٣) .

وقد وجد في اسبارطة ، كما وجد في إنجلترا ، مؤلفون عظام في الموسيقى ، حين كانت تستورد هؤلاء المؤلفين من خارجها ، فقد استدعيت حوالي عام ٦٧٠ تريندو من لسيوس بأمر الوحي في دلفي ، حسب زعمهم ، ليعد مباراة في الغناء الجماعي في الاحتفال بعيد كرنيا Carneia . وكذلك استدعى ثاليئاس Thaletas من كريت حوالي عام ٦٢٠ كما استدعى بعد ذلك بقليل تريتوس Tyrteus ، وألكمان Alcman ، وپلمنستوس Polymnestus . وقد وجه هؤلاء معظم جهودهم لوضع ألحان وطنية وتدريب الفرق على إنشادها . وقبلما كانت الموسيقى تعلم للأفراد من الاسبارطيين (٢٤) ، فقد بلغت الروح الشيوعية فيها ، كما بلغت في روسيا الثورية ، من القوة درجة جعلت الموسيقى تنزع فيها نزعاً جماعية ، وكانت الجماعات فيها تتبارى في إقامة حفلات الغناء والرقص الفخمة . وأتاحت هذه الأغاني الجماعية للاسبارطيين فرصة أخرى للتدريب وتنظيم الجماهير ، لأن كل صوت في الغناء كان خاضعاً للرئيس . ولم يشذ الملوك أنفسهم عن هذا الخضوع ، فقد حدث في احتفال الهياثيا Hyacinthia أن غنى الملك أجلسوس في الزمان والمكان اللذين عينهما له رئيس الفرقة . وكان الاسبارطيون على بكرة أبيهم ، كبارهم وصغيرهم ، رجالهم ونسائهم ، يشتركون أثناء الاحتفال بعيد الهمنوبديا Gynaeceia في تمارين رياضية جماعية ورقص متناسق وغناء . وما من شك في أن هذه المناسبات كانت باعثاً قوياً للشعور الوطني ، ومصرفاً ينصرف فيه ما يتأجج في الصلور من هذا الشعور .

وكان تريندو أى « مطرب الناس » أحد أولئك الشعراء الموسيقيين الناهين الذين بدأ بهم عصر ليسيوس المهيذ في الجليل الذى سبق سافو . وتعزو إليه الرواية الماثورة اختراع أناشيد الشراب المعروفة باسم اسكوليا scolio

وزيادة أوتار القيثارة من أربعة إلى سبعة ؛ ولكن القيثارة ذات السبعة الأوتار كانت ، كما سبق القول ، قديمة قدم ميتوس ، ه أكي . الظن أن الناس كانوا يتغنون بفضائل الخمر في شباب العالم الذي جر عليه النسيان ذيله ؛ والذي لا شك فيه أن تريندر قد ذاع صيته في لسبوس وعرف فيها بأنه مؤلف المقطوعات الغنائية الموسيقية ومغنيها . ولما أن قتل رجلا في مشجرة ، نفي من هذه المدينة ورأى من مصلحته أن يقبل دعوة جاءته من اسبارطة بالذهاب إليها . ديلوح أنه أقام فيها بقية أيام حياته يعلم الموسيقى ويدرب الفرق الغنائية . ويقال لنا إنه قضى نجه في مجلس شراب : فيينا هو يغنى - ولعله كان يغنى النغمة التي أضافها في أعلى السلم الموسيقي - قذفه أحد السامعين بتينة ، فدخلت في فيه ؛ وفي قصبته الرئوية ، فسدت مسالك التنفس ، وقضت عليه وهو في نشوة الغناء (٢٥) .

وواصل ترينبوس عمل تريندر في اسبارطة في أثناء الحرب الميسينية الثانية ؛ وقد جاءها من أفيدنا Aphidna - وقد تكون في لسيلمون ، وقد تكون وهو الأرجح في أنكا . والذي لا شك فيه أن الإثنيين كانوا يروون فكاهة قديمة عن الأسبارطيين ، وهي أنهم حين كانت الدائرة تدور عليهم في الحرب الثانية أنجاس من المزعجة الماحقة معلم أتكيي أعرج أيقظت أغانيه الاسبارطيين الحاملين وبعثت في قلوبهم الشجاعة فانتصروا بذلك على أعدائهم (٢٦) . وجلى أنه كان ينشد أغانيه في المجتمعات العامة بمصاحبة الناي ، وهو يعمل لتبديل الموت الحربي بالهدى الذي يحسد عليه . وقد جاء في إحدى القطع الباقية من أغانيه : « ما أجل أن يموت الرجل الشجاع في الصف الأول من المجاهدين في سبيل أوطانهم ؛ ألا فليثبت كل إنسان في مكانه واقفاً على قدميه لا يترشحزح عن موقفه ؛ وليعض على نواجذه وليضم كل إنسان قدمه إلى قدم زميله ، ولتلاحق الدروع ، ولتختلط الرياش المماوجة ، والخويز المتلاطمة ، وليتقدم المقاتلون متلاصقين كالبقيان المرعبوس ، تتلافى في معمعان القتال نضال سيوفهم وأسنة رماحهم (٢٧) » . ويقول

ليوننداس ملك اسبارطة إن ترتيوس « كان رجلاً بارعاً في إثارة حمية الشباب (٢٨) » .

وغنى الكمال لأهل ذلك الجيل نفسه ، وكان صديقاً لثرتيوس ومنافساً له ، ولكن غناؤه كان أكثر تنوعاً من غناء صديقه وأقرب منه إلى مطالب هذه الحياة الدنيا . وكان موطنه الأصلي ليديا البعيدة . ويقول بعضهم إنه كان عبداً ولكن اللسديمونيين رحبوا به لأنهم لم يكونوا قد تعلموا كراهية الأجنبي التي أصبحت فيما بعد جزءاً من قانون ليقورغ . ولو أنه قد عاصر الاسبارطيين المتأخرين لرأوا في مدائحه في الحب والطعام وتعداده لأصناف الخمور اللكونية مسبة لهم . وتصفه الرواية التاريخية بأنه أشد الأقدمين شراً وشغفاً بالنساء . وهو يقول في إحدى أغانيه إنه كان سعيد الحظ لأنه لم يبق في سرايس ، وإلا لجلبت خصمته وأصبح من كهنة سيبل ، بل جاء اسبارطة حيث يستطيع أن يحب بكامل حريته حببته مجالسترانا Megalostrata ذات الشعر الذهبي (٢٩) . وبه تبدأ أسرة الشعراء العشاق التي تنتهى بأنكريون ، وهو حامل لواء « التسعة الشعراء الغنائيين » الذين اختارهم النقاد الإسكندريون ووصفهم بأنهم أحسن شعراء بلاد اليونان القديمة (*) ، ولقد كان في وسعه أن يكتب ترانيم وتهاليل ، وخرجات وغزلا ، وكان أحب شيء إلى الاسبارطيين ما وضعه من المقطوعات لتغنيها البنات مجتمعات . وإنا لنجد في هذه الأغاني من حين إلى حين قطعاً تكشف لنا عن قوة الشعور الخيالي التي هي جوهر الشعر وأساسه :

« لقد استغرقت في النوم قلل الجبال ومسايلها ، وشعابها ، وخرائقها ، والزواحف التي تخرج من الأرض السوداء ، والوحوش التي تربص على

(*) ألكان ، ألسيوس Alcaeus ، سفو ، استيكورس ، إيكس ، أنكريون ، سمنيدس ، پندار ، بكليدس .

سفوح التلال ، وثول النحل ، والحيوانات المهولة في قاع البحر
الأرجواني ، استغرقت كلها في النوم ، ومعها أسراب الطيور المجنحة (*) (٣٠) .

ولنا أن نستنتج من وجود هؤلاء الشعراء أن الاسپارطيين لم يكونوا
اسپارطيين على الدوام ، وأنهم لم يكونوا في القرن السابق لليقورخ أقل
شغفاً بالشعر والفنون الجميلة من سائر اليونان ؛ ولقد أضحت الأغاني
الجماعية من الخواص الوثيقة الصلة بهم ؛ ولما أن أراد كتاب المسرحيات
الأتينيون أن يكتبوا أغاني جماعية لمسرحياتهم ولم يروا بداً من أن يكتبوها
باللهجة الدورية ، مع أنهم كتبوا الحوار باللهجة الأتيكية . وليس من السهل
علينا أن نقول أي الفنون الأخرى قد ازدهرت في لسديمون في تلك الأيام ،
أبام الهدوء والاطمئنان ، لأن الاسپارطيين أنفسهم قد غفلوا عن تأريخ تلك
الأيام والاحتفاظ بتاريخها إن كانوا قد سجلوه ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن
الفخار والبرنز اللكونيين قد اشتهرا في القرن السابع ، وإن الفنون الصغرى
قد أخرجت كثيراً من الكماليات التي تستمتع بها الأقلية المحظوظة . لكن هذه
النهضة القصيرة الأجل قضت عليها الحروب المسيفية . فقد وزعت الأراضي
المفتوحة على الاسپارطيين ، وكاد عدد الأتقان أن يتضاعف نتيجة
لهذا التوزيع . وكيف يستطيع ثلاثون ألفاً من المواطنين أن يخضعوا على
الدوام أربعة أمثالهم من البرئيسيين وسبعة أمثالهم من الهيلوتيين ؟ إنهم

(*) ما أشبه هذه الألفية « بأغنية الجائل الليل » بلحيته . كأن إحساساً واحداً قد جمع
بين شاعرين بين أحدهما والآخر خمسة وعشرون قرناً من الزمان :

فوق قلل انتلال كلها

ساد السكون الآن

وفي أعلى الأشجار جميعها

لا تكاد تسمع

إلى نفس يهب .

إن الطيور قائمة بين الأغصان ،

على رسلك ، إنك أنت الآخر

لن تلبث حتى تتربح مثلها

لا يستطيعون ذلك إلا إذا نفذوا أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها ، وجعلوا من كل اسبارطى جندياً شاكى السلاح مستعداً على الدوام لقمع الثورات أو السير إلى ميدان القتال . ولقد بلغوا هذه الغاية بفضل دستور ليقورغ ، ولكن هذا الدستور نفسه قد أخرج اسبارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها اللهم إلا معناها السياسى وحده .

٣ - ليقورغ

يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً لا يقبل الجدل أن ليقورغ هو واضع شرائع اسبارطة ، كما يعتقدون أن حصار طروادة وقتل أجمنون من الحقائق التاريخية المسلم بصحتها . وكما أن العلماء المحدثين قد ظلوا مائة عام كاملة ينكرون وجود طروادة وأجمنون ، فلأنهم اليوم يرددون في الاعتراف بأن ليقورغ شخص واقعى كان له وجود في التاريخ . وتختلف التواريخ التى يحددها له من يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ، ٦٠٠ ق . م ؛ وكيف يستطيع رجل واحد أن يبتدع أعجب وأبغض طائفة من الشرائع في التاريخ كله ثم لا يفرضها في سنين قليلة على شعب خاضع مغلوب فحسب بل يفرضها كذلك على الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية صاحبة الإرادة القوية (٣٣) ؟ ولكننا رغم هذا إذا رفضنا رواية يأخذ بها جميع المؤرخين اليونان اعتماداً منا على هذه الأسباب ، نكون منجنيين على الحقيقة والتاريخ . لقد كان القرن السابع قبل الميلاد عصر المؤرخين الأفراد - زلوكس Zleucus في لكريس الإيطالية (حوالى ٦٦٠) ، ودريكو Draco في أثينة (٢٦٠) ، وكرانداس Charondas في قطانا بصقلية (حوالى ٦١٠) - دع عنك كشف يوشع لشرائع موسى في هيكل اورشليم (حوالى ٦٢١) . ولعل الحق في الحالات السالفة الذكر أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه بل كانت طائفة من العادات

نسقت وصيغت — حتى صارت قوانين معينة محددة ، سميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذى جمعها وقتنها وأبرزها فى معظم الأحيان فى صورة شرائع مكتوبة(*) . وسوف نسجل فى هذا الكتاب الرواية المتواترة كما وصلت إلينا على أن نذكر مع ذلك أنها فى أغلب الظن تجسيد وتصوير لعملية طويلة تطورت فيها العادات حتى صارت قوانين على يد عدد كبير من المؤلفين دأبوا على العمل كثيراً من السنين .

ويقول هيرودوت^(٣٤) إن ليقورغ ، عم الملك كاريلوس Charilaus ملك اسبارطة ووليه ، تلقى من الوحي فى دلنى بعض مراسيم ، يصفها البعض بأنها قوانين ليقورغ نفسها ، ويصفها البعض الآخر بأنها تصديق ربانى على القوانين التى اقترحها هو . ويبدو أن المشرعين قد أحسوا أن أمن طريقة لتغيير بعض العادات القائمة أو لإدخال عادات جديدة هى أن يعرضوا ما يريدونه فى الحالىين على أنه أوامر من عند الله ؛ ولم تكن هذه أول مرة أقامت الدولة قواعدها فى السماء . وتضيف الرواية إلى هذا أن ليقورغ سافر إلى كريت ، وأعجب بنظمها ، واعتزم أن يدخل بعضها فى لكونيا^(٣٥) ؛ وقبل الملوك ومعظم النبلاء إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لا بد لهم منها إذا أرادوا أن يضمنوا لأنفسهم السلامة والطمأنينة ؛ ولكن أحد الشبان الأشراف ، واسمه الكمندر ، قاوم هذا الإصلاح مقاومة شديدة عنيفة وفقاً لإحدى عيني المشرع نفسه . ويقص أفلوطرخس هذه القصة بأسلوبه السلس الساحر؛

ولم يثبط هذا العمل عزيمة ليقورغ أو يضعف همته ، بل سكت وكشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة . واستولى عليهم الحجل والطلع من هذا المنظر فجاءوه بالكمندر ليعاقبه على فعلته فشكر لهم ليقورغ ما فعلوا ، وصرفهم عن آخرهم ، ولم يستبق منهم إلا الكمندر ، ثم أخذه معه

(*) ويقال إن ليقورغ قد نهى الناس عن كتابة قوانينه .

إلى منزله ، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب ، بل . . . أمره أن يقف في خدمته وقت الطعام . وكان الشاب ذا خلق كريم فقام بكل ما كان يؤمر أن يقوم به دون أن يتذمر أو يتململ ، وبذلك أتاحت له الفرصة لأن يعيش مع ليقورغ فيلاحظ فيه فضلاً عن رفته وهذوه طباعه استقامة لا عهد له بها ، وجداً وصبراً على العمل ، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجاباً به وقد كان من قبل من ألد أعدائه ، وقال لأصدقائه وأقاربه إن ليقورغ لم يكن ذلك الرجل البكد السيئ الطباع كما كانوا يظنون ، بل إنه دون غيره الرجل الظريف الرقيق الحاشية في العالم كله .

ولما أتم ليقورغ قوانينه ، أخذ على الأهلين عهداً (ولعل هذه زيادة خرافية زيدت على قصته) ألا يبدلوا في القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم . ثم سافر إلى دلي ، واعتزل العالم ، وحرّم على نفسه الطعام حتى مات « فلما منه أن الواجب يقضى على السياسى أن يجعل موته إذا استطاع . عملاً يخدم به الدولة (٣٧) » .

٤ - دستور لسديمدينيا

وإذا أردنا أن نحدد بالضبط إصلاحات ليقورغ ، وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة ، حتى ليصعب علينا أن نقول أى عناصر القوانين الاسبارطية سبقت ليقورغ ، وأياها من وضعه هو أو من وضع الجليل الذى كان يعيش فيه ، وأياها أضيفت إليها بعد أيامه . فأما أفلوطرخس ويليبيوس^(٣٨) فيؤكدان لنا أن ليقورغ أعاد تقسيم أراضى لكونيا ثلاثين ألف قسم متساوية ووزعها على المواطنين ، وأما توكيديدس^(٣٩) فيفهم من أقواله أن تقسيماً من هذا النوع لم يحدث قط ، ولعل الذى حدث فعلاً أن الأملاك القديمة لم تمس وإنما وزعت الأراضى التى استولوا عليها حديثاً توزيعاً متساوياً . وألغى ليقورغ (أو واضع الدستور المنسوب إليه) ،

كما فعل كليستينز السكيوني وكليستينز الأثيني ، نظام المجتمع اللكوني القائم على صلة القرابة ، واستبدل به أقساماً جغرافية ، وبهذا تحطم سلطان الأسر القديمة ، وأنشئ نظام أرستقراطي واسع النطاق . وأراد ليقورغ أن يمنع هذه الأبحركية مالكة الأرض من أن تقضى عليها طبقات التجار ونحوها التي كانت تسير سبباً حثيثاً نحو مركز الزعامة في أرجوس ، وسكيون ، وكورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، فحرم على المواطنين أن يشتغلوا بالصناعة ، أو التجارة ، ومنع استيراد الفضة والذهب ، وأمر ألا يستخدم في سك العملة غير الذهب وحده . ذلك بأنه قد وطلد العزم على أن يتفرغ الاسبارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شئون الحكم والحرب .

وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون^(١٠) أن دستور ليقورغ قد دام عهداً طويلاً لأن أنظمة الحكم الثلاثة : الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية قد اجتمعت كلها فيه ، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أى عنصر منها على العنصرين الآخرين . من ذلك أن الملكية الاسبارطية كانت في الواقع ملكية ثنائية ، فقد كان فيها ملكان يحكما معاً وينحدران من الهرقليين الغزاة . ولعل هذا النظام الغريب كان تراضياً بين أسرتين متنافستين لأنهما تنتميان إلى أصل واحد ، أو لعله كان وسيلة للاستفادة مما للملكية من مزايا نفسانية في المحافظة على النظام الاجتماعي والعزة القومية مع تجنب استبدادها وطغيانها . وكانت سلطة الملكين سلطة محددة غير مطلقة : فكانا يقومان بتقريب القرايين التي يتطلبها دين الدولة ، ويرأسان الهيئة القضائية ، ويقودان الجيش في الحرب . وكانا في جميع أعمالهما خاضعين لمجلس الشيوخ ، وأخذاً بعد معركة بلاتية يفقدان سلطانهما شيئاً فشيئاً ويتولاهما الإفورون .

أما العناصر الأرستقراطية ذات السلطان الأكبر في الدولة فكان مقرها في مجلس الشيوخ أو الجروسيا . وكانت الجروسيا بمعناها الحرفي

وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن ، وكان الذين نقل أعمارهم عن
ميتين عاما يعدون في العادة غير ناضجين لمناقشة شئون الدولة في هذا المجلس .
ويحدد أفلوطرخس عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً ويروى عن
طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل ، فيقول إنه إذا خلا مكان في المجلس
كان يطلب إلى من يتقدمون للمثله أن يمروا صامتين واحداً بعد واحد أمام
الجمعية ، فن حيتهم منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه^(١) . وربما
كانت هذه الطريقة في رأيهم طريقة واقعية مختصرة للإجراءات الديمقراطية
الطويلة الكاملة . ولسنا نعرف أى المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا
الانتخاب ، وأكبر الظن أن الذين يصلحون كانوا هم « المميونى »
أى الأنداد والذين يمتلكون أرض لكونيا وخدموا في الجيش ، وجاءوا
بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة^(٢) . وكان مجلس الشيوخ هو الذى
يقترح القوانين ، وكان هو المحكمة العليا التى تفصل في الجرائم الكبرى ،
وهو الذى يضع أسس السياسة العامة للدولة .

وكانت الجمعية ، الأپلا Apella ، هى العنصر الديمقراطى الذى ارتضته
اسبارطة في حكومتها . ويلوح أن جميع المواطنين الذكور كانوا يقبلون فيها
متى بلغوا سن الثلاثين ، وكان عدد من يمكن اختيارهم أعضاء فيها ٨٠٠٠ من
بين سكان اسبارطة البالغ عددهم ٣٧٦٠٠٠ . وكانت تجتمع في كل يوم من
الأيام التى يكون فيها القمر بدرأ ، وتعرض عليها جميع المسائل العامة ذات
الأهمية الكبرى ، ولا يسن قانون إلا إذا وافقت عليه . على أن الذى حدث
بالفعل أن القوانين التى أضيفت إلى دستور ليقورغ كانت قلة لا تستحق
الذكر ، وهكذا لم يكن للجمعية إلا أن تقبلها أو ترفضها دون أن يكون لها
حق تعديلها . فهى في جوهرها الاجتماع المومرى العام القديم تستمع في رهبة
إلى آراء الزعماء والكبار أو إلى الملكين قائدى الجيش . وكانت الأپلا من
الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحبة السيادة ، ولكن تعديلا أدخل على

الدستور بعد ليقورغ جعل لمجلس الشيوخ حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً « معوجاً »^(٤٣) « ولما أن طلب مفكر سبّاق لعصره إلى ليقورغ أن ينشئ دولة ديمقراطية أجابه المشرع بقوله : « ابدأ أيها الصديق بإنشائها في أسرتك »^(٤٤) .

وكان شيشرون يشبه الإفورين (المشرفين) الخمسة بالثريونين في رومة لأن الجمعية هي التي كانت تختارهم في كل عام ، ولكنهم في الواقع كانوا أكثر شها بالفتاقل الرومان لأنهم كانت لهم سلطة إدارية لا يقف في سبيلها إلا معارضة مجلس الشيوخ . وكانت وظيفة الإفور قائمة قبل ليقورغ ، ولكنها مع ذلك لم يرد لما ذكر فيما وصل إلينا من أنباء عن شرائعه . ولم يكدهمى من القرن السادس إلا نصفه حتى أضحت سلطة الإفورين مساوية لسلطة الملكين ؛ ثم أصبحوا في واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية ، فكانوا يستقبلون السفراء ، ويفصلون في المنازعات القضائية ، ويقودون الجيوش ؛ ويرجھون أعمال الملوك ، ويعاقبون الملوك أنفسهم أو يرثونهم من التهم التي توجه إليهم .

أما تنفيذ أوامر الحكومة فكان يتولاه الجيش أو الشرطة . وقد جرت عادة الإفورين بأن يسلحوا بعض الشبان الاسبارطين ، ويتخذوهم شرطة سرية (كريتيا krypteia) ليتجسسوا على الناس ، وكان لهم حق قتل الهليوتيين بمحض إرادتهم^(٤٥) . وكانت هذه الهيئة تستخدم في أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها ، بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الهليوتيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالا قادرين يخشى بأسهم ، وإن كانوا قد دافعوا عن الدولة في الحرب دفاع الأبطال . ويقول عنهم تركيديس النزيه بعد ثمان سنين من حرب البلوونيز :

صدر إعلان يدعو الهليوتيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون إنهم

قد أظهروا تفوقهم في قتال الأعداء لكي ينالوا حريتهم ، وكان الغرض الحقيقي من هذه الدعوة هو اختبارهم ، لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا في رأى الداعين أعزهم نفساً وأكثرهم استعداداً للعصيان . واختير بهذه الطريقة ألفان منهم وضعت على رؤوسهم التيجان ، وطافوا بالهياكل مغتبطين بحريتهم الجديدة ، ولكن الاسبارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً ؛ ولم يعترف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم^(١٦) .

وكان الجيش عماد السلطة في اسبارطة ومناطق فخرها ، لأنها وجدت في شجاعته ، ونظامه ، ومهارته ، أمنها ومثلها الأعلى . وكان كل مواطن يدرّب تدريباً حريياً ، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والسنتين من عمره . وبفضل هذا التدريب القاسى نشأت الهيليت hoplites الاسبارطية وهى فرق المشاة المتراسة الثقيلة . قاذفات الحراب ، والمكونة من المواطنين ، التى كانت تقذف الرعب في قلوب الأثينيين أنفسهم ، ولم يكذب قهرها عدو حتى انتصر عليها إلاميننداس في Epaminondas في لكترا Leuctra . وكان هذا الجيش هو المحور الذى صاغت اسبارطة حوله قانونها الأخلاقى . فالطيبة في اسبارطة هى أن تكون قوياً شجاعاً ؛ والموت في ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة ؛ والحياة بعد الهزيمة هى العار الذى لا يمجدى والذى لا تغفره الأم نفسها لابنها الجندى . وكانت الأم تودع ابنها الجندى الذاهب إلى حومة الوغى بقولها : « عد بدرعك' أو محمولا عليه » . وكان الفرار بالدرع الثقيل أمراً مستحيلاً .

٣ - القانون الاسبارطى

إن تدريب الناس على مثل أعلى متعب للجسم وخاصة إذا كان كالذى يدرّب عليه الاسبارطيون ، يحتم أخذهم من أيام مولدهم وتعويدهم أشد النظم

وأعظمها صرامة . وكانت الخطوة الأولى هي تقوية النسل بأقصى الطرق . فلم يكن كل ما يفرض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله ، بل كان يوثق به فضلاً عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكونة من مفتشين ، فإذا ظهر أن الطفل مشوه أُلقي به من فوق جرف في جبل تيجيتس ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله^(٤٧) . وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التي جرى عليها الاسبارطيون وهي تعويد أطفالهم تحمل المشاق والتعرض لمختلف الجواء^(٤٨) . وكان يطلب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة من يريدون أن يتزوجهم وبأخلاقهم وحتى الملك أركداموس Archidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تزوج بامرأة ضئيلة الجسم^(٤٩) . وكان الأزواج يشجعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوى قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء ؛ وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهكهم المرض أو أعجزهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينهم على تكوين أسرة قوية . ويقولون أفلو طرخس « إن ليقورغ كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلاهم وخيلهم ، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة ، ثم تراهم مع ذلك يبقون زوجاتهم في معزل ليختصوا بهن في إنجاب الأبناء ، وقد يكونون ناقصي العقل أو ضعفاء أو مرضى » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الاسبارطيون كانوا أقوى أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وأن نساءهم كن أصح وأجمل من سائر نساء تلك البلاد^(٥٠) .

وأغلب الظن أن هذه النتيجة يرجع أكثرها إلى التدريب لا إلى العناية بالنسل . وفي ذلك يقول توكيديدس على لسان الملك أركداموس : « قلما يكون ثمة فرق » (يعنى وقت المولد على ما نظن) « بين الرجل والرجل . ولكن الذى يتفوق فى آخر الأمر هو الذى ينشأ فى أقصى مدرسة »^(٥١) . وكان الولد الاسبارطى يؤخذ من أسرته فى السابعة من عمره

لتنكف الدولة بتربيته ؛ فكان يسلك في فرقة عسكرية هي في الوقت نفسه فصل مدرسى تحت إشراف بيدونوموس Paidonomos أقيم على الأولاد . وكان أقدر الأولاد وأشجعهم في كل فصل ينصب عريفاً عليهم ؛ ويطلب إلى سائر الأولاد أن يطيعوه ، وأن يخضعوا لما عساه أن يفرضه عليهم من عقاب ، وأن يحاولوا أن يجاروه أو أن يتفوقوا عليه في الأعمال الشاقة وفي حسن النظام . ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضي والمهارة في الألعاب كما كان هدف الأثينيين ، بل كان هذا الهدف هو الشجاعة الحربية والقيمة العسكرية . وكانوا يقومون بالألعاب وهم عراة على أعين الكبار والعشاق من الرجال والنساء . وكان هم الكبار من الرجال أن يثيروا الشحنة بين الأولاد فرادى وجماعات ، ليختبروا بهذا ما لديهم من قوة وجلد ويدربوهم عليهما ؛ فإذا ما جبنوا لحظة جللهم العار أياماً طوالاً . وكان يطلب إلى الاسبارطيين جميعاً أن يتحملوا الألم ويقاسوا الصعاب ، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لا يتذمرون . وكان عدد من الشبان يختارن كل عام أمام مذبح أرتميس أرثيا Artemis Orthia وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة^(٥٢) . وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى ، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة . ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين ، لأن الماء والأدهان تجعل الجسم ليناً رخواً ، أما الهواء البارد والتراب النظيف فيجعلانه صلباً شديد المقاومة . وكان ينام في العراء صيفاً وشتاء ، على فراش من الأسل يقطع من شاطئ يوروناس . وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره في الثكنات مع فرقته ، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية .

وكان يتعلم القراءة والكتابة ، ولكنه لا يكاد يتعلم منهما ما يكفي لأن يخرج من سلك الأميين ، وقلم كانت الكتب تجد في اسبارطة من يشترها^(٥٣) وكان الناشرون قلة كالمشترين . ويقول أفلوطرخس إن ليقورغ كان يرغب ألا يتعلم الأطفال قوانينه بطريق الكتابة ، بل يجب أن يتلقوها مشافهة وبطريق

المران عليها في شبابهم بعناية من يرشدهم ويضرب لهم المثل بنفسه . وكان يرى أن تقويم الأخلاق بتعويدهم إياها دون أن يحسوا هم بذلك خير من الاعتماد على الإقناع بالحجج النظرية ؛ وأن التعليم الصحيح هو خير أساليب الحكم ، على أن يكون هذا التعليم خلقياً أكثر منه عقلياً ، لأن الخلق أعظم خطراً من العقل . وكان الشاب الاسبارطي يدرّب على الاعتدال في الشراب ، وكانوا يرغبون بعض الهلوتيين على الإفراط فيه حتى يرى الشبان ما قد يتردى فيه المخدور من حماقات^(٥١) . وكان يعلم أن يستعد للحرب بأن ينطلق في الحقول يحد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إذا لم يجده ، وكانوا يجيزون له السرقة في هذه الأحوال ، فإذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد^(٥٢) . وإذا كان حسن السلوك سمح له أن يحضر اجتماع المواطنين العام ، وكان ينتظر منه أن يعنى بالاستماع إلى ما يقال فيه حتى يلم بمشاكل الدولة ويتعلم فن الحديث الظريف . فإذا تخطى صعاب الشباب بشرف وبلغ سن الثلاثين منح كل ما للمواطن من حقوق ، وألقيت عليه جميع ما يلقي على المواطن من تبعات ، وأجيز له أن يجلس لتناول الطعام مع من هم أكبر منه .

وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها الدولة وإن كانت تركها لتربي في منزل أبويها . فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة - كالجري ، والمصارعة ، ورمي القرص ، وإطلاق السهام من القوس - لكي تصبح قوية البنية ، صحيحة الجسم ، صالحة في يسر للأثومة الكاملة . وكان عليها أن تسير عارية في أثناء الرقصات والمواكب العامة ، ولو كانت في حضرة الشبان لكي يحفزها ذلك إلى أن تعنى بجسمها العناية الواجبة ، ولكي تنكشف للناس عيوبها فيعملوا على إزالتها ، وفي ذلك يقول أفلوطرخس وهو الرجل الشديد الحرص على الأخلاق : « ولم يكن ثمة شيء يستحي منه في عرى الفتيات ، فقد كان الوقار شعارهن ، وكان الفجور أبعد الصفات عنهن . وكن وهن يرقصن يغنين الأغاني »

فى مدح من أظهروا الشجاعة فى الحرب . ويصبين اللعنات على من يجبن . ولم يكن الاسبارطيون يضيعون جهودهم ووقتهم فى تربية البنات تربية عقلية .

أما الحب فكان يسمح للشباب أن ينغمس فيه وأن يحب الذكور والإناث دون ما تخرج ؛ فقد كان لكل صبي تقريباً حبيب بين من هم أكبر منه من الرجال ، وكان ينتظر من هذا الحبيب أن يواصل تعليمه ، وأن يجزيه الصبي عن هذا حباً وطاعة . وكثيراً ما استحال هذا النفع المتبادل صداقة عاطفية قوية تبعث فى نفس الفتى والرجل ضروب البسالة فى الحرب (٥٦) . وكان يسمح للشبان بالكثير من الحرية قبل الزواج ، ولذلك كانت الدعارة الرسمية نادرة الوجود وكان النسرى لا يلقى تشجيعاً (٥٧) . ولم نسمع عن وجود هياكل لأفرديتى فى لسيديمون كلها ، اللهم إلا هيكل واحد ، وحتى فى هذا الهيكل قد مثلت الإلهة وعليها نقاب وفى يدها سيف ، وفى قدميها أغلال ، كأنها تشير بذلك إلى ما فى زواج الحب من سخف وطيش ، وإلى خضوع الحب للحرب ، وإلى إشراف الدولة إشرافاً قوياً على الزواج .

وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال والعشرين للنساء . وكانت العزوبة فى اسبارطة جريمة ، وكان العزاب يحرمون حق الانتخاب وحتى مشاهدة المواكب العامة التى يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا ؛ ويقول أفلو طرحس إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد . وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم فى أى وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى . ولم يكن العار الذى يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذى يلحق العزاب ؛ وكان المفهوم أن من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الدينى الذى يقدمه الشبان الاسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً (٥٨) .

وكان الوالدان هما اللذين ينظران زواج أبنائهما ، دون أن يكون للبيع والشراء أثر في هذا التنظيم ؛ فإذا ما اتفقا على الزواج كان ينتظر من العريس أن ينزع عروسه من بيت أبيها قوة واقتداراً ، كما كان ينتظر منها أن تقاوم هذا الانتزاع ، وكان اللفظ الذى يعبر به عن الزواج هو لفظ هرپدزين harpadzein أى الاغتصاب^(٥٩) . فإذا ترك هذا التنظيم بعض الكبار بلا زواج ، جاز حشر عدد من الرجال في حجرة مظلمة ومعهم عدد مساو لهم من البنات ، ثم يترك هؤلاء وأولئك ليختار كل رجل شريكة حياته في الظلام^(٦٠) ؛ ذلك أن الاسبارطيين كانوا يعتقدون أن هذا الاختيار لم يكن فيه من العمى أكثر مما في الحب . وقد كان من المألوف أن تبقى العروس مع أبيها وقتاً ما ، وأن يبقى العريس في ثكناته لا يزور زوجته إلا خلسة . ويقول أفلوطرخس إنهما كانا يعيشان على هذا النحو زمناً طويلاً حتى لقد كان بعضهم ينجب من زوجته أطفالاً قبل أن يرى وجهها في ضوء النهار . فإذا ما أوشكا أن يكونا أبوين سمح لهما بأن ينشأ بيتاً . وكان الحب ينشأ بعد الزواج لاقبله ، ويلوح أن الحب بين الزوج وزوجته لم يكن في اسبارطة أقل منه في سائر الحضارات^(٦١) . وكان الاسبارطيون يفخرون بأن الزنا لا وجود له بينهم ، وقد يكونون على حق في هذا الفخر . لأنهم كانوا يتمتعون قبل الزواج بقسط كبير من الحرية ، وكان الكثيرون من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم وخاصة إخوتهم في زوجاتهم^(٦٢) . وكان الطلاق نادراً وقد عوقب ليسندر Lysander القائد الاسبارطى لأنه هجر زوجته وأراد أن يتزوج أخرى أبجل منها^(٦٣) .

وكان مركز المرأة بصفة عامة في اسبارطة خيراً منه في أى مجتمع يونانى . آخر ، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها الموقرية العالية وبالمزايا التى بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذى كان الأبناء فيه ينسبون إلى أمهاتهم... وفى ذلك يقول أفلوطرخس إن النساء الاسبارطيات كن

يمتزن « بالجرأة والرجولة ، وبالتشامخ على أزواجهن ... وكن يتحدثن بصراحة حتى في أهم الأمور » ، وكان من حقهن أن يرثن ويورثن ، وقد آلت لمن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة في اسبارطة بفضل ما كان لمن من سيطرة قوية على الرجال^(٦٥) . وكن يعشن في بيوتهن عيشة الترف والحرية ، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب الكثيرة أو يطعمون الطعام البسيط مع سائر الرفاق .

ذلك أن الدستور الاسبارطى كان يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية في مطعم عام كبير ، وكان الطعام فيه بسيطاً في نوعه وأقل قليلاً في كميته مما يلزم للشخص للعادى . وكانت هذه القلة في الطعام متعمدة يقصد بها المشترع كما يقول أفلوطرخس أن يعودهم الصبر على ما يلاقونه في الحرب من حرمان ، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ في عهود السلم من تدهور وانحطاط ، فكان يحرم عليهم « أن يقضوا حياتهم في البيوت ، ينامون على الفراش الوثير ويطعمون الطعام الشهى ، يسلدون أنفسهم إلى أيدي التجار والطهاة ، يتخونهم في أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشرهة ، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب بل يفسدون أجسامهم كذلك ، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والإفراط ، أصبحوا في حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل ؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شيء ولا يشرفن على شيء كأنهم مصابون بعلّة دائمة لا يبرءون منها^(٦٦) » . وكانوا يحصلون على المواد اللازمة لهذه الوجبة العامة بأن يطلب إلى كل شخص أن يقدم في قرأت معينة إلى النادى الذى يطعم فيه كميات محددة من الحبوب وغيرها من الطعام ؛ فإذا لم يقدمها حرم من حقوق المواطنين .

وكانت هذه البساطة في المأكول والمشرب ، وكان هذا التقشف في المعيشة ، اللذان يدرّب عليهما الشاب الاسبارطى يمتدان في القرون الأولى بعد وضع القانون إلى ما بعد سن الشباب . ولذلك كانت البدانة نادرة في لسديمون ؛ نعم

لإنهم لم يسنوا قانوناً يحدد حجم المعدة ، ولكن إذا كبر بطن الرجل كبراً معيماً ، كان عرضة لأن تؤنبه الحكومة علناً على هذا الكبر أو أن تنفيه من لكونيا . ولم يكن في أسبارطة إلا القليل من السكر واللهم المنتشرين في أثينة ؛ وكان ثمة فروق حقيقية في الثروات ولكنها كانت فروقاً خفية ؛ فقد كان الأغنياء والفقراء يلبسون الثياب البسيطة نفسها - وهي قميص من الصوف يتدلى من الكتفين من غير تظاهر بجمال أو اختيار شكل معين له ؛ وكان الإكثار من الثروة المتقولة من أصعب الأمور ، وكان ادخار نقود حديدية تبلغ قيمتها نحو مائة ريال أمريكي يتطلب صندوقاً كبيراً ، ولم يكن نقل هذا القدر من المال يحتاج إلى أقل من ثورين^(١٨) ، بيد أن الطمع الإنساني لم يكن معدوماً ، وكان يجد له منفذاً في الفساد الرسمي ، ذلك أنه كان من المستطاع شراء الإفورين ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، والرسل ، وقواد الجيش ، والملوك بأنمان تتفق مع مكانتهم^(١٩) . ولما أن عرض سفير من جزيرة ساموس صحافة الذهبية في أسبارطة حتم الملك كليومنيس الأول استدعاءه منها لئلا يفسد مواطنوه بهذا المثل الأجنبي^(٢٠) .

وكان نظام الحكم الاسبارطي ، لخوف الأهليين من هذه العدوى ، غير كريم في معاملة الأجانب إلى حد لم يسبق له مثيل . فقلما كان الأجانب يرحب بهم في البلاد ، وكانوا يفهمون عادة أن زيارتهم يجب ألا تطول ، فإذا طالت فوق ما يجب صعبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد . وكان يحوم على الاسبارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إلا بإذن من الحكومة ؛ كما كان يقلل من تشرفهم بتعويدهم العزلة المتعجرفة التي لا يحلمون معها أن في وسع غيرهم من الأمم أن تعلمهم شيئاً^(٢١) ؛ وكان لا بد لهذا النظام أن يكون غير كريم إلى هذا الحد ليحمي بذلك نفسه ؛ لأن ربحاً تهب من هذا العالم المحرم عليهم ، عالم الحرية ، والترف ، والآداب ، والفنون ، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقنان وكل السادة فيه من الرقيق .

٦ - ما لاسبارطة وما عليها .

ترى أى طراز من الرجال وأى نوع من الحضارة أنتجتهما هذا القانون ؟
فأما الرجال فكانوا أقوياء الأجسام ألفوا المشاق والحرمان . وقد قال عنهم
أحد السياريين Sybarites المترفين إن الاسبارطيين « لا يمدحون على
استعدادهم للموت فى ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجيهم من كثير من العمل
الشاق ومن الحياة البائسة » (٧٢) . وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية فى
اسبارطة ، كما كان المرض جريمة فيها ؛ وما من شك فى أن أفلاطون قد سره
أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الديمقراطية . وكان الاسبارطى شجاعاً ؛
وما من أحد من الناس غير الرومان يضارعه فى ثبات جنانه وفى انتصاره
فى الحروب ؛ وليس أدل على ذلك من أن بلاد اليونان كلها لم تكذب تصديق
ان الاسبارطيين قد استسلموا لأعدائهم فى اسفكتيريا Sphacteria ؛ ذلك
أنه لم يسمع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم ، وحتى الجندى
الاسبارطى العادى كان يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة (٧٣) . ولما أن
وصلت إلى آذان الإفورين أنباء هزيمة الاسبارطيين المنكرة فى لوكترا Leuctra
- وكانت هزيمة ما حقه اختتم بها فى واقع الأمر تاريخ اسبارطة - وكانوا
وقتشذ على رأس الألعاب الجمنوبودية ، لم ينطقوا بكلمة واحدة . وكل
ما فعلوه أن أضافوا إلى سجل الموتى المقدسين الذين نالوا شرف الموت فى
لألعاب أسماء القتلى الجدد . وكان من الصفات العادية التى يتصف بها كل
مواطن اسبارطى ، والتى كان يكتب عنها الأثينيون ولكنهم قلما كانوا
تحلون بها ، كان من هذه الصفات ضبط النفس ، والاعتدال ، والهدوء .
والثبات فى السراء والضراء .

وإذ كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان الاسبارطى يفوق فى هذه

الفضيلة سائر الناس . وفى ذلك يقول الطبيب ديمراتوس Demaratus

لخشيائش : « إن اللسيديمانيين ، وإن كانوا أحراراً ، ليسوا أحراراً في كل شيء ، لأن القانون سيدهم الأعلى ، يخافونه أكثر مما يخافك شعبك » (٧٤) .
وقل أن تجد شعباً غيرهم — مع جواز استثناء الرومان واليهود في العصور الوسطى — كان احترامه لقوانينه سبباً في قوته . وقد ظلت اسبارطة مائتي عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت دستور ليقورغ ، وهي وإن عجزت عن فتح أرجوس وأركاديا ، قد أقنعت جميع البلوونيزيين أن يقبلوا زعامتها لحلف البلوونيز الذي ساد بفضل السلام في جزيرة هلويش ما يقرب من قرنين كاملين (٥٦٠ - ٣٨٠ ق . م) . وكانت بلاد اليونان على بكرة أبيها تعجب بحيش اسبارطة وحكومتها ، وتنطلع إلى معوتها في ثل عروش الطغاة الظالمين . ويحدثنا أكسانوفون عن « الدهشة التي عرنتني حين لاحظت أول مرة موقع اسبارطة الفد بين دول اليونان ، وعدد سكانها القليلين بالنسبة لغيرها من الدول ، وقوة شعبها ومنزلته العالية بالرغم من هذه القلة . وقد حيرني تعليل قوة هذا الشعب ومنزلة هذه الدولة ، ولم تزل هذه الحيرة إلا حين فكرت في أنظمة الاسبارطيين العجيبة » (٧٥) . ولم يكن أكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الاسبارطيين ، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم . ولا حاجة إلى القول بأن اسبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة ، التي طمس معالمها بعض الشيء إغفاله العجيب للمثل العليا . ولقد كان كثيرون من المفكرين اليونان يعملون إلى تمجيد نظام اسبارطة وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها .

والحق أنهم كانوا يستطيعون انثناء على اسبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها ، ولم يروا عن كتب ما في أخلاق الاسبارطيين من أنانية ، وبرود ، وقسوة ، ولم يتبينوا ممن يرونهم من الصفوة التي التقوا بها منهم ، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد ، أن الشرائع الاسبارطية كانت تخرج

جنوداً بوسائل ولا شيء غير الجنود ، وأنها جعلت قوة الجسم وحشية
مرذولة لأنها أمانت الكفايات العقلية كلها تقريباً . ذلك أنه لما أصبح لهذا
القانون المقام الأول في البلاد أصاب الموت فجاءة جميع الفنون التي ازدهرت
قبل سيادته ، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين ، أو بنائين في
اسبارطة بعد عام ٥٥٠ ق . م (*) ، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعي
والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الاسبارطى وأن يخفى الفرد ويضيع
في المجموع . ولقد كان أثر حرمان الاسبارطيين أن يتجروا مع العالم
ومنعمهم من الأسفار ، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة
في الظهور والنماء ، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال ،
لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها ؛
ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الحالية من الروتق
والبهاء ، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية ، وهذه المحافظة الشديدة
على كل عادة وكل خرافة ، وفي الشجاعة التي كانت موضع الإجلال ،
وذلك النظام الصارم ، وهذا الخلق النبيل ، وذاك الغرض الدفء الذي
لا يؤدي إلى غاية . وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور
الحياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة
واسعة المدى ، قوية في أعمالها ، تتقبل كل فكرة جديدة ، حريصة على
الاتصال بالعالم ، متساهلة ، متنوعة ، معقدة ، مترفة ، مبتدعة ، متشككة ،
واسعة الخيال ، شعرية ، مشاغبة ، حرة . لقد كان ما بين أثينة واسبارطة
من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة ورسم
خطوطه الرئيسية .

(*) لقد زين جتياداس Oltiadas هيكل أثينة بصفائح البرنز البديعة الصنع ، وشاد
بالتكليف Bathycles الهبيزي مرشاً فنياً لأبائهم في أمكل Amyclae كما شاد ثيردورس الساموسي
بهرأ كبيراً للمدينة اسبارطة ؛ وبعد هذا لا تكاد نسمع شيئاً من الفن الاسبارطى حتى على يد
فائين من خارجها .

ولقد قضى ضيق أفق اسبارطة في آخر الأمر على ما لها من قوة نفسية ،
ذلك أن نفسيتهما قد انحطت حتى صارت ترتضى كل وسيلة تؤدى إلى غرض
اسبارطى ، وبلغ من ذلتها في آخر الأمر للغزاة أن باعت للفرس تلك الحريات
التي كسبتها بلاد اليونان في مراثون . لقد استحوذت عليها النزعة العسكرية
وجعلتها سوط عذاب لجيرانها بعد أن كانت في مكان الشرف منها ، ولما
أن سقطت ، عجبت الأمم كلها من سقوطها ، ولكن ما من أمة حزنت لها .
ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من هذه العاصمة القديمة نقشاً
واحداً أو عموداً ملقى على الأرض يعلن للعالم أن اليونان كانوا في يوم من
الأيام يسكنون في هذا المكان .

الفصل الرابع

الدول المنسية

يمتد وادى نهر يوروتس Eurotas في شمال اسبارطة إلى جبال أركاديا المتجمعة بعد أن يجتاز حدود لكونيا . ولو أن هذه الجبال كانت أقل مما هي خطورة لكانت أكثر مما هي حالا . ويلوح أنها لم ترحب بالطرق الضيقة التي نحتت في منحدراتها الصخرية ، وأنها تهدد بقتامها كل من يحاول الاعتداء على هذه الملاجئ الأركادية المنعزلة ؛ فلا غرابة والحالة هذه إذا ضل فيها الفاتحون الدوربيون والاسبارطيون وتركوا أركادية كما تركوا إليس وأخيا للسلالات الآخية والبلاسية . ويعثر السائح في أماكن متفرقة من هذا الإقليم على سهل أو هضبة ، كما يجد فيه مدناً جديدة زاهرة كمدينة تريبوليس Tripolis ، أو بقايا مدن قديمة كدائن أركنوس Orchomenos ، ومجالبوليس Megalopolis ، وتيجيا Tegea ، ومنينيا Mantinea حيث انتصر ألاميننداس ولاقي حتفه . ولكنها في معظم أجزائها أرض يسكنها فلاحون ورعاة متفرقون يعتمدون على موارد مزرعة غير ثابتة ، ويعيشون هم وماشيتهم على هذه التلال الضئيلة ؛ ومع أن هذه المدائن قد استيقظت بعد مرثون لتستقبل الحضارة والفن ، فإن من الصعب أن نسلکها في قصة الحضارة قبل الحرب الفارسية . وفي هذه الغابات ذات الأشجار العمودية كان يجول الإله بان في وقت من الأوقات .

ويلتقي نهر يوروتس في أركاديا الجنوبية بنهر آخر أوسع منه شهرة وهو نهر ألفيوس Alpheus . وهذا النهر يشق طريقه شقاً سريعاً خلال سلاسل الجبال البرهازية Parhasian ، ثم يشق ببطء حتى يدخل سهول إليس ،

ويرشد السائح إلى أولبيا . ويحدثنا بوزنياس بأن الإليانيين^(٧٦) . كانوا من أصل إيولى أو بلاسجى جاءوا إلى إيتوليا بعد أن عبروا الخليج . وكان أول ملوكهم إيثليوس Aethlius والد إندميون Endymion الذى أغوى جماله القمر^(*) فأغمضت عينيه وأرسلت عليه نعاساً سرمدياً ، وما زالت تضاعفه على مهل حتى ولدت منه مائة بنت . وفى هذا المكان الذى يلتقى فيه نهر ألفيوس بنهر كلاديوس Cladeus المقبل من الشمال كانت المدينة المقدسة للعالم اليونانى كله ؛ وقد بلغ من قدسيتها أن الحرب قلما أزعتها ، ومن أجل ذلك نعم الإيليون Elians بتاريخ استبدلوا فيه الألعاب بالحروب . وفى الزاوية المحصورة بين النهرين كانت الألتيس Altis أو التخوم المباركة لمقر زيوس الأولي . وكانت موجات الغزاة المتتابعة تحط رحالها فى هذا المكان لتعبده ، كما كان مندوبون عن هؤلاء الغزاة يعودون إليه فيما بعد فى مواسم معينة ليسألوه العون ويغنوا مزاره بالندور . وظلت ثروة هيكل زيوس وهيرا وشهرتهما تزدادان جيلاً بعد جيل حتى انتصر اليونان على الفرس فحشد أكابر المهندسين والمثاليين اليونان ليعيدوا بناء الهيكلين ويزينوهما وينفقوا فى سبيل ذلك الأموال الطائلة اعترافاً بما كان لهما من فضل فى هذا النصر . ويرجع تاريخ هيكل هيرا إلى عام ١٠٠٠ ق . م ، وآثاره أقدم ما بقى من آثار الهياكل فى بلاد اليونان جميعها . وقد بقى من هذه الآثار أجزاء من ستة وثلاثين عموداً وعشرين تاجاً دورياً تشهد بأن هذه العمدة قد أقيمت المرة بعد المرة ، وأنها كانت تقام بأشكال مختلفة . ولا جدال فى أنها صنعت فى أول الأمر من الخشب . وكان جذع من أحدها وهو من شجر البلوط لا يزال قائماً حين أقبل بوزنياس على ذلك المكان ، ويده كراسته ، فى أيام الأنطونيين .

وإذا ما غادر الإنسان أولبيا مر بموضع إيليس العاصمة القديمة ودخل

(•) القمر فى القصة مؤنث وقد احتفظنا به كذلك حتى يستقيم المعنى .

آخيا التي فر إليها بعض الآخيين بعد أن استولى الدوريون على أرجوس وميسيني ، وهي شبيهة بأركاديا في أنها بلاد جبلية يرعى على منحدراتها الرعاة الصابرون قطعان الماشية ، ويصعدون إلى أعلاها أو ينزلون إلى سفليها في فصول السنة المختلفة . ولا يزال ثعر پتراس القديم قائماً مزدهراً حتى الآن على الساحل الغربي ؛ وهذا الثغر هو الذي قال پوزنياس عن نسائه لإنهن « ضعننا عدد الرجال ، وإنهن وفيات لأفريقي إن كان في النساء وفاء » (٧٧) . وكان : هناك عدة مدن أخرى محتشدة في غير نظام على طول خليج كورنثة - إيجيوم Aegium ، وهليس Helice ، وإيجيرا Aegira ، وپليني Pellene ، وقد كادت كلها تصبح نسياً منسياً ولكنها كانت في غابر الأزمان تعج بالرجال والنساء والأطفال ، وما من أحد منهم إلا كان مركز العالم .

الفصل الخامس

كورنثة

وبعد أن يخترق السائح عدداً آخر قليلاً من الجبال يعود إلى سكيون مستقر الدورين . وفي هذه المدينة علم رجل يدعى أوثجوراس Orthagoras العالم في سنة ٦٧٦ حيلة ظل يلجأ إليها فيما بعد ذلك من القرون . فقد قال للفلاحين إنهم من نسل البلاسجين أو الآخين على حين أن الأشراف المالكين للأرض والذين يستغلونهم من نسل الغزاة الدورين ؛ ثم أخذ يستثير نكرة غير المالكين العنصرية ، وترغمهم في ثورة موفقة ، ونصب نفسه حاكماً بأمره عليهم ، ووضع السلطة في أيدي طبقتي الصانع والتجار (*) . وأصبحت سكيون في عهد خليفته العظيم ميرون Myron وكليسنيز مدينة يشتغل نصف أهلها بالصناعة ، واشتهرت بأحذيتها وفخارها ، وإن كانت لا تزال تسمى باسم ما ينمو فيها من الخيار .

وإلى شرقها تقوم المدينة التي كان موقعها الجغرافي والاقتصادي خليفاً بأن يجعلها أغنى بلاد اليونان وأرقاها ثقافة . تلك هي مدينة كورنثة ؛ وكان موقعها على الخليج المسمى باسمها مما تحسدها عليه سائر المدن اليونانية ؛ فقد كان في مقدورها أن تغلق باب الطريق البري الموصل إلى الپلوپونيز ، وفي وسعها أن تيسر أسباب التجارة البرية بين شمالي بلاد اليونان وجنوبها ، أو أن تفرض عليها ما تشاء من الإتاوات . وكان لها موان وسفن على خليجي ساروس وكورنثة . وقد أنشأت بين هذين البحرين « مزلقاً للسفن »

(*) ودكنا فعل كامي ده مولن Camille Deamoulins في عام ١٧٨٩ فقد حرص

لغالبين من فوق دكته في المقهى على طرد الأشراف الألمان .

(ديولكوس Diolcos) - أى طريقاً خشبياً تجر عليه السفن نحو أربعة أميال فوق الأرض على اسطوانات ، وربحت من وراء ذلك كثيراً من الأموال (٨٠) . وكان لها قلعة منبعا تدعى أكر وكورنثس Acrocorinthus وهى قلة من قلال الجبال يبلغ ارتفاعها أثنى قدم ، ويفذيها بالماء نبع لا ينضب معينه أبداً . وقد وصف لنا استرابون المنظر الذى تقع عليه عين من يشرف على هذا المكان من القلعة ، والمدينة مبسوطة على سطحين مدرجين من تحتها ، والملهى المقام فى الهواء الطلق والحمامات العامة العظيمة ، والسوق ذات العمدة ، والهياكل البراقة ، والأسوار التى تصد عنها الأعداء والتى تمتد إلى ميناء لكيوم Lechaum على الخليج الشمالى . وكان على قمة الجبل نفسها هيكل لأفرديتى وكأنما أقيم ليرمز إلى صناعة من أهم صناعات المدينة (٨٠) .

وكان لكورنثة تاريخ يرجع فى قدمه إلى الأيام الميسينية ، واشتهرت المدينة فى أيام هومر نفسه بثروتها الطائلة (٨١) . وكان يحكمها بعد الفتح الدورى ملوك ، ثم تولى حكمها الأشراف تسبطن عليهم أسرة البكيادى Bakhia lae ثم حدث فيها ما حدث فى أرجوس ، وسكيون ، ومجارا ، وأثينة ، ولسبوس ، وميليتس ، وساموس ، وصقلية ، وفى كل مكان راجت فيه التجارة اليونانية ، وهو استيلاء طبقة التجار ورجال الأعمال على السلطة السياسية بالثورة أو الدساتيس . وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب أن يفهم من قيام حكومات « الطغيان » أو الدكتاتورية فى بلاد اليونان فى القرن السابع قبل الميلاد . فى عام ٦٥٥ استولى سيسيلوس على مقاليد الحكم ، وكان قد نذر أن ينحصر زيوس بثروة كورنثة كلها إذا ما وصل إلى غرضه ، فلما تم له الأمر فرض

(٥) وكان هذا المزلق طريقاً يرحب به للتجار ويفضله على المياه الصاخبة القريبة من رأس ماليا Malea التى تمرض الطريق الذاهب إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وكان الطريق الخشبي يقوى على حمل السفن التجارية المألوفة فى أيام اليونان . ولقد نقل أغسطس أسطوله على هذا الطريق وهو يطارد أنطونيوس وكليوباترة ، بعد معركة أكتيوم ، ونقل أغسطس يوقاف هذه الطريقة نفسها فى عام ٨٨٣ (٧٨) م . وقد وضع هيرندر فى أيامه مشروعا لحفر القناة التى تصل الخليجين ، ولكن مهندسيه رأوا هذا العمل فوق طاقتهم (٧٩)

على جميع أملاك المدينة ضريبة سنوية قدرها عشرة في المائة من قيمتها ، ووهب ما تجمع منها للهيكل ، فلم تمض إلا عشر سنين حتى كان قد وفى بنذره وأبقى ثروة المدينة كما كانت من قبل (٨٢) . وقد وضع بحكمه المحبب المستنير الذى دام ثلاثين عاماً أساس رخاء كورنثة (٨٣) .

وكان حكم ولده القاسى بريندر أطول حكم للطغاة فى تاريخ اليونان (٦٢٥ - ٥٨٥) . وقد أقر فيه الأمن والنظام ، ومنع استغلال الناس بعضهم بعضاً ، وشجع الأعمال التجارية والصناعية ، وناصر الآداب والفنون ، وجعل كورنثة زمناً ما أولى المدائن اليونانية ، ونشط التجارة بسك عملة رسمية (٨٤) ، كما نشط الصناعة بخفض الضرائب المفروضة عليها ، وحل مشكلة التعطل بإقامة طائفة من المباني العامة وإنشاء المستعمرات فى خارج البلاد ؛ وحى صغار رجال الأعمال من منافسة الشركات الكبرى بتحديد عدد الأرقاء الذين يجوز للرجل الواحد أن يستخدمهم فى أعماله ، وحرّم استيرادهم بعد هذا التحديد (٨٥) ، وأنجى الأغنياء مما عندهم من الذهب الزائد على حاجتهم بأن أرغمهم على الاشتراك بذهبهم فى صنع تماثيل ذهبي لتزدان به المدينة ؛ ثم دعا النساء ذوات المال فى كورنثة إلى حفلة كبرى ، جردهن فيها من أثوابهن الغالية وحلبن الثينة ، ثم أمرهن بالعودة إلى بيوتهن بعد أن أم جماعهن . وقد خلقت له أعماله هذه أعداء كثيرين أقوياء ، فلم يكن يجرؤ على الخروج دون حرس كبير ، وكان لحوفه وعزلته نكداً قاسياً . وأراد أن يحمى نفسه من الثورات فعمل بالنصيحة الخفية التى أشار بها عليه زميله الطاغية تراسيبولس الميليقي ، وهى أن يقطع « الفينة بعد الفينة أطول ما فى الحقل (٨٦) من سنابل (*) » . وأخذت سراريه يوجهن التهم إلى زوجته ، حتى أثرن غضبه عليها ، فألقاها فى نوبة من نوبات هذا الغضب من فوق سلم القصر ، وكانت حاملاً فماتت من شدة الصدمة ، فما كان منه إلا أن

(*) يريد بذلك أنه كان يعدم أقوى رجال الدولة (المترجم) . قارن ذلك بأعمال « التطهير » التى تحدث من آن إلى آن فى روسيا الشيوعية ١٩٣٥ - ٣٨ .

حرق السراري ونفى ابنه ليكفرون Lycophron إلى كرسيرا Corcyra لأنه حزن على أمه حزناً لم يطق معه أن يتحدث إلى أبيه . ولما أن قتل الكرسيريون ليكفرون قبض بريندر على ثلثائة شاب من أشرف الأسر وأرسلهم إلى أليئس Alyattes ملك ليديا ليتخذهم خصباناً ، ولكن السفينة التي أقلتهم مرت بسماموس ، فما كان من أهلها إلا أن أطلقوا سراح الشبان متحدين بعملهم هذا بريندر غير عابئين بغضبه . وعمر هذا الطاغية طويلاً وعده البعض بعد مرته من السبعة الحكماء في بلاد اليونان القديمة (٨٧) .

وثل الاسبارطيون بعد جيل من وفاته عرش الطغاة في كورنثة ، وأقاموا مكانهم حكم الأشراف - ولم يكن ذلك لأن اسبارطة تعشق الحرية ، بل لأنها كانت تفضل طبقة الملاك على طبقات رجال الأعمال . يد أن ثروة كورنثة كانت تقوم على التجارة يعينها من حين إلى حين أتباع أفرديني والألعاب الهيلينية التي كانت تقام في برزخ كورنثة . وكانت العاهرات كثيرات في المدينة إلى حد جعل اليونان يطلقون اسم كورنثيازوماي Corinthiazomai على المهرنفسه (٨٨) . وكان من العادات المتبعة في كورنثة أن تخصص إلى هيكل أفرديني نساء يحترفن فيه الدعارة وبأتين أجورهن إلى الكهنة . وقد وصل إلى علمنا أن رجلاً يدعى أكسانوفون (وهو غير أكسانوفون قائد العشرة الآلاف) وعد الإلهة خمسين محظية إذا أعانته على النصر في الألعاب الأولمبية . ويشير بندار الشاعر النقي إلى هذا النذر وهو يشيد بهذا النصر دون حياء أو استمزاز (٨٩) . ويقول استرابون إن « هيكل أفرديني قد بلغ من الثروة أن كان له أكثر من ألف عبد من عبيد الهياكل ، وحفاظ وهبن الرجال والنساء للهياكل ؛ وبفضل أولئك النسوة ازدهت المدينة بالناس وعظمت ثروتها ، من ذلك أن قادة السفن كانوا يتفقون أموالهم في المدينة بلا حساب » . وكانت المدينة تشكر لمن حسن صنيعهم وتنظر إلى « أولئك السيدات الكريمات » نظرتها إلى المحسنين للشعب . وفي ذلك يقول

مؤلف قديم نقل عنه أثينوس Athenayus : « من العادات القديمة في كورنثة ، كلما أرادت المدينة أن توجه دعاء إلى أفرديتي . . . ، أن تستعين بأكبر عدد مستطاع من المحاطى ليشاركن في هذا الدعاء » . وكان لهؤلاء المحاطى عيد ديني خاص بهن هو عيد الأفرديزيا Aphrodisia يحتفلن به احتفالا فخما محوطاً بضروب التقى والصلاح^(٩٢) . وقد ندد القديس بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيين^(٩٣) بأولئك النسوة اللاتي ظالن يمارسن حرفتهن في المدينة إلى أبامه .

وكان يسكن كورنثة في عام ٤٨٠ ق م خمسون ألفا من المواطنين وثلاثون ألفا من الأرقاء ، وهذه النسبة بين الأحرار والعبيد عالية علوا غير مألوف في المدن اليونانية^(٩٤) . وكان اقتناص اللذة والذهب هم جميع الطبقات ، يستنفد كل جهودهم فلا يبقى منها ما ينفقونه في الأدب والفنون إلا القليل . نعم إننا نسمع في القرن الثامن عشر عن شاعر يدعى بوملوس Eumelus ولكن الأدب اليوناني قلما يزدان بأسماء كورنثية . وكان هيريندر يرحب بالشعراء في بلاطه واستقدم أريون Arion من لسبوس لينظم شئون الموسيقى في كورنثة . واشتهر فخار المدينة وبرنزها في القرن الثامن ؛ وكان من يعملون في طلاء مزهرياتها في القرن السادس أرق أهل هذا الفن في بلاد اليونان كلها . ويحدثنا هوزنياس عن صندوق عظيم من خشب الأرز اختفى فيه سپسيلوس Cypselus من البكياديين وحفر فيه الفنانون نقوشاً ظريفة وورصوه بالعاج والذهب^(٩٥) . والراجع أن عصر هيريندر هو الذي أقامت فيه كورنثة لأبلو هيكلادوريا اشتهر بأعمدته السبعة المدحوت كل واحد منها من حجر واحد . ولا تزال خمسة من هذه الأعمدة قائمة إلى يومنا هذا توحى بأن كورنثة قد تكون أحببت الجمال في أكثر من صورة واحدة . ولربما كان الدهر والمصادفات قد ظلما هذه المدينة فلم يوفياها حقها من الشكر لأن تاريخها دونه رجال لا يدينون لها بولاء ولا يعترفون لها بفضل ، ولو أتيح للماضي أن يطلع على ما كتب عنه في صحف المؤرخين لعجب مما يرى أشد العجب .

الفصل السادس

مجارا

لم تكن مجارا أقل جاً للذهب من كورنثة ، وكانت التجارة عماد ثروة الأولى كما كانت عماد ثروة الثانية ، لكنها تخاف عنها في أنها كان لها شاعر عظيم تحيا تلك المدينة القديمة في شعره ، كأن ما قام فيها من الثورات هي بعينها الثورات التي قامت في بلادنا . وكانت المدينة تقع عند مدخل البلوبونيز نفسه ، وكان لها مرفأ على كلا الخليجين ، ومن أجل هذا كان موقعها يمكنها من أن تساوم الجيوش المغيرة على تلك البلاد ، وتفرض المكوس على التجارة ؛ وقد أضافت إلى هذه التجارة صناعة للنسيج زدهرة يشغل بها رجال ونساء كانوا يسمون بلغة تلك الأيام الصادقة عبيداً . وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها في القرنين السابع والسادس حين كانت تنازع كورنثة تجارة البرزخ ؛ وهذا هو العهد الذي أنشأت فيه مستعمرات لها كانت بمثابة محطات تجارية انتشرت ما بين بزنطية على البسفور حتى مجارا هبليا Megara Hyblaea في صقلية ، وازدادت الثروة في المدينة زيادة مطردة ؛ ولكنها تجمعت في أيدي طائفة قليلة برعت في جمعها وبقيت جبهة الشعب مكونة من أفنان معدمين بين أقلية موفورة الثراء ،^(٩٦) يستمعون إلى الدعاة الذين يمنونهم بعيش أرخي وحياة أنعم من عيشهم وحياتهم . وفي عام ٦٣٠ ترر ثياجينز Theagenes أن يصبح طاغية فيها ، فأخذ يتملق الفقراء ويندد بالأغنياء ، ثم قاد جماهير النوغاء الجياع إلى مراعى الأغنياء أصحاب الأنعام ، وأفلح في حل العامة على أن يؤلفوا له حرساً خاصاً ، فلما تألف ضاعف عدده ، واستعان به على إسقاط الحكومة القائمة^(٩٧) . وحكم ثياجينز مجارا

نحو ثلاثين عاماً حرر في أثناءها الأفنان ، وأذل الأقرباء ، وناصر الفنون ، ولكن أغنياء المدينة أنزلوه عن العرش حوالى عام ٦٠٠ ؛ ثم قامت ثورة ثالثة أعادت الديمقراطية الشعبية ، وصادرت أملاك زعماء طبقة الأشراف ، واستولت على بيوت الأغنياء ، وألغت الديون ، وأصدرت قراراً يحتم على أصحاب الأموال أن يردوا إلى المدينين ما استولوا عليه من فوائد عن قروضهم (٩٨) .

وكان ثيوجنيز Theognis حياً خلال هذه الثورات كلها ، وقد وصفها في قصائد مائة حقدأ تصلح لأن تكون وصفاً لحرب الطبقات عندنا في هذه الأيام . ويقول عن نفسه (وهو مرجعنا الوحيد في هذا الموضوع) إنه من أبناء أسرة قديمة شريفة . وما من شك في أنه قد نشأ نشأة منعمة راضية ، لأنه كان مرشداً ، وفيلسوفاً ، وعاشقاً لشاب يدعى سيرنس Cynus أصبح فيما بعد زعيم حزب الأشراف ؛ وهو يسدى سيرنس هذا كثيراً من النصح ، ولا يطلب إليه في نظير هذا إلا أن يجبه . وهو يشكو الصد كما يشكو سائر الهجين ، وأجل ما بقي من قصائده قصيدة يذكر فيها سيرنس بأنه لن يخلد اسمه إلا شعر ثيوجنيز :

هأنذا قد جعات لك جناحين تطير بهما
فوق البحر والأرض اللذين لا آخر لهما ؛
وسيردد اسمك على ألسنة الكثيرين ،
وستكون رفيقاً لهم في مآذهم وفي مرحهم .
وسأمرك الشبان الذين يحبونك أن
تطربهم بالنأى الفض ذى الصوت الشجى ؛
وإذا ما ذهبت إلى أطباق الثرى المظامة ،
إلى مستقر الموتى الذى يبعث الأسى فى القلوب ،
فلن ينقطع اتصالك بالمجد والشرف
بل سوف تجول فى الآفاق اسماً مخلداً ،

سيرنس ، يتردد في بحار بلاد اليونان وسواحلها ،
يعبر البحر المجدب من جزيرة إلى جزيرة
ولن تكون في حاجة إلى الخيل ؛ بل سوف تنطلق بخفة
تحملك ربات الشعر ذوات التاج البنفسجي .
وسيولع بذكرك كل من يولع بالغناء ،
أجل ، لقد جعلت لك جناحين ، ولم أنل منك
في نظير هذا إلا السخرية التي تتلظى كالنار بين أضلعي^(١٩)
وهو ينذر سيرنس بأن مظالم الأشراف قد توقد نيران الثورة فيقول
إن الليالي جبال ، وستلد عما قريب
من ينتقمون لهذا الفساد الطويل الأمد .
إن العامة ليظهرون حتى الآن بمظهر الاعتدال ،
ولكن سادتهم فاسدون عمى العيون .
وحكم النفوس النبيلة ، الباسلة العالية ،
لم تعرض السلام والانسجام للخطر في يوم من الأيام ؛
أما التشامخ والغطرسة والادعاء الكاذب
من ذوى العقول الصغيرة ، والضعف والوقاحة ،
واغتصاب العدالة والحق والقانون ،
والعبث بها بالحيلة والطمع والكبرياء ،
أما هذا كله فهو الطريق الذي سيؤدى بنا إلى الخراب .
وحذار أن تعلم يا سيرنس
(وإن بدت الدولة هادئة غير مضطربة)
أن ستكون الدولة في مستقبلها متمتعة بالسلام والأمن ،
بل سيعقب هذا الهدوء الظاهر ،

عاجلاً كان ذاك أو آجلاً ، الدم المراق والزراع (١٠٠) (*) .

وشبت نار الثورة فعلاً ؛ وكان ثيوجنيز من بين من نفهم الديمقراطية المنتصرة من البلاد وصودرت أملاكه . فترك زوجته وأطفاله في رعاية بعض أصدقائه ، وأخذ ينتقل من دولة إلى دولة - من عوبية ، إلى طيبة ، إلى إسبارطة ، إلى صقلية ؛ وكان يجد فيها بادية الأمر الطعام والحفاوة جزاء له على شعره ، ثم حل به بعدئذ ما لم يتعوده من ضحك شديد . وأنطقه غيظه بتلك الأسئلة يوجهها إلى زيوس ، وما أشبهها بالأسئلة التي يوجهها أيوب إلى يهوه :

طوبى لك يا جوف يا ذا الحول والطول ! إني أنظر إلى العالم وأنا مندهش غاية الدهشة ، متحير من أساليبك فيه . . . يا عجبا كيف ينطبق فعلك فيه على إدراكك للحق والباطل إذا كنت توزع نعمك على الصالح والطالح على حد سواء ؟ وإذن فكيف يعرف الناس كنه شرائعك أو يدركون معناها ؟ (١٠١) .

ويصب جام غضبه على زعماء الديمقراطية ويرجو زيوس الإله الذى تخفى على الناس طرائقه أن ينعم عليه بشرب دماهم (١٠٢) . وهو يشبه مجارا بسفينة استبدل بقائدها ملاحون عاجزون لا يعرفون قيمة النظام فى العمل (١٠٣) هـ وتلك على ما نعلم هى أول مرة يستخدم فيها هذا التشبيه . ويقول إن بعض الناس أقدر من غيرهم بفطرتهم ، وإن الأرستقراطية فى صورة من الصور نظام لا بد منه ؛ وهكذا نرى أن الناس فى ذلك العهد القديم قد تبينوا أن الأغلبية لا تحكم قط . وهو يستخدم لفظ الأخبار hoi agathoi بمعنى الأشراف ، ولفظ الأشرار أو الأراذل أو المنحطين hoi kekoi بمعنى السوقة . ويقول إن هذه الفروق المتأصلة لا يمكن

(هـ) إن نسبة هذه القصيدة والتصانيد التى سيرد ذكرها فيما بعد إلى فترات معينة فى حياة ثيوجنيز على محض .

استنصاها ؛ « وإن الرجل الشرير لا يمكن أن يصبح صالحا مهما علمته »^(١٠٥) . — وقد يكون كل الذى يعنيه بقوله هذا أنه ما من تعليم يستطيع أن يجعل السوق أرستقراطياً ، وهو ككل المحافظين الخللص يحرص أشد الحرص على نقاء النسل ويقول « إن ما فى العالم من شرور ليس ناشئاً من شره الأخيار بل من سوء اختيارهم لأزواجهم ومن ضعف خصهم »^(١٠٦) .

وهو يدبر مع سبرنس ثورة جديدة مقاومة للثورة السابقة ؛ ومن رأيه أن الإنسان ، وإن أقسم بيمين الولاء للحكومة الجديدة ، يجوز له أن يفتال الحاكم المستبد الظالم ؛ ويتعهد بأن يعمل مع رفاقه حتى ينتقموا لأنفسهم من أعدائهم أشد انتقام . لكنه بعد أن قضى فى النفي والعزلة كثيراً من السنين يرشو موظفاً من الموظفين ليمكنه من العودة إلى مجارا^(١٠٧) . ثم تسمز نفسه من نفاقه هذا وينشد أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن يأسه ، وهى أبيات يكرررها مئات من اليونان :

ليس فى العالم نعمة

أحسن من ألا يولد الإنسان ألا يرى الشمس !

ويلها أن يدركه الموت عاجلاً

ويدفن تحت أطباق الثرى^(١٠٨) .

وتراه فى آخر حياته فى مجارا رجلاً طاعناً فى السن مهتماً ، وقد أخذ على نفسه ألا يكتب شيئاً فى السياسة ليضمن بذلك سلامته . ويجده سلواه فى الخمر وفى زوجة صالحة^(١٠٩) ، ويحاول جهده أن يتعلم أخيراً أن كل شيء طبعى ممكن أن يفتقر .

تعلم ، ياسبرنس ، تعلم أن تكون هادئ العقل ؛

ووفق بين مزاجك وبين الجنس البشرى والطبيعة البشرية ،

وخذ تلك الطبيعة كما تجدها ،
فهى مزيج من العناصر فيه الطيب وفي الخبيث —
هكذا خلقنا كلنا ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .
فخير الناس لا يخلون من لنقص ، ومن بقى منهم
حين يراد الانتفاع بهم لا يقولون عن خيارهم .
ولو أن الأمر كان على عكس هذا
لا أمكن أن تسير شئون العالم (١١٠) !

الفصل السابع

إيجينا وإبدورس

لقد رفعت الزلازل أو خلقت وراءها في عرض الخليج الممتد من مجارا إلى كورنثة جزيرة من أقدم الجزائر المتنافسة لهاتين البلديتين في الصناعة والتجارة ، وهي جزيرة إيجينا حيث نشأت في أيام ميسيني مدينة عامرة كشف في مقابرها كميات كبيرة من الذهب^(١١١) . وقد وجد القائمون الدوريون أرض الجزيرة جذباء مستعصية على الزراعة ولكنها جد صالحة للتجارة . ولما غزا الفرس بلاد اليونان لم تكن في الجزيرة إلا أرستقراطية من التجار الحريصين على أن يبيعوا المزهريات الرائعة والآنية البرنزية التي يصنعونها في حوانيتهم ، ليشتروا بها العبيد الذين كانوا يستوردون منهم عدداً كبيراً ليعملوا في المصانع ، أو ليبيعوها للمدن اليونانية . وقد قدر أرسطو حوالي عام ٣٥٠ ق م سكان إيجينا بنصف مليون منهم ٤٧٠.٠٠٠ من العبيد^(١١٢) . وفي هذه المدينة وسكت أول عملة يونانية ، وبقيت الموازين والمكاييل الإيجينية هي الموازين والمكاييل الرسمية في بلاد اليونان إلى أيام الفتح الروماني .

ولقد عرف أن هذه البيئة التجارية يمكن أن تتحول من الاهتمام بالثراء إلى الاهتمام بالفن حين كشف أحد الرحالة في عام ١٩١١ في كومة من الخلفات التماثيل الجميلة القوية التي كانت تزدان بها في وقت من الأوقات قوصرة هيكل أفثيا Aphaea . أما الهيكل نفسه فقد بقي منه اثنان وعشرون من الأعمدة الدورية تحمل فوقها عوارضها . وأكبر الظن أن أهل إيجينا قد

شادوا هذا المعبد قبيل الحرب الفارسية ، وذلك لأن في التماثيل شواهد كثيرة من الطراز نصف الشرقي العتيق وإن كانت هندسة البناء من الطراز ليوناني . غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ، فربما كان الهيكل قد شيد بعد سلاميس لأن التماثيل التي تصور الإيجيين يهزمون الطرواديين قد تكون مجرد رمز للنزاع الدائم بين بلاد اليونان والشرق ، وإلى النصر الذي أحرزه الأسطول اليوناني من عهد قريب على مرأى من إيجينا في سلاميس ، وقد أمدت الجزيرة الصغيرة ذلاء الأسطول بثلاثين سفينة منح اليونان إحداها بعد النصر الجائزة الأولى من جوائز الشجاعة .

ويستطيع السائح بعد رحلة بحرية ممتعة أن ينتقل من إيجينا إلى إيدورس ، وهي الآن قرية لا يزيد سكانها على خمسة نسمة ، ولكنها كانت في وقت من الأوقات من نهر أشهر المدن في بلاد اليونان ؛ فقد كان فيها ، أوعلى الأصح على بعد عشرة أميال منها ، في أخدود ضيق بين أعلى الجبال وبين شبه جزيرة أرجوس ، الموطن الرئيسي لأسكليبيوس Asclepius إله الشفاء وبطله . وقد خاطبه أبلو نفسه على لسان الوحي في دقئ بقوله : « أي اسكليبيوس يا من ولدت لتكون مصدر السرور للخلق أجمعين ، يا وليد الحب يا من أنجبتك لي كورونيس الحميلة عند إيدورس الصخرية » (١١٣) . ولقد بلغ من شفاهم إسكيبيوس من الكثرة خدأ جعل بلوتو إله الحميم يشكو إلى زيوس — وخاصة بعد أن أحيار رجال من الموت — أنه لا يكاد أحدي يموت . ونحير زيوس في أمره ، ولم يدر ما يفعل بالجنس البشري إذا لم يكن مألهم الموت ، فأرسل على أسكليبيوس صاعقة أهلكته (١١٤) . لكن الناس اتخذوه إلهاً منقذاً وعبدوه في تساليا أولاً ثم في بلاد اليونان بعدئذ ، وشادوا له في إيدورس أعظم تماثيله ، وهناك أنشأ الكهنة الأطباء ، الذين سموا على اسمه بالأسكليپاويين ، مصحة اشتهرت في بلاد اليونان جميعها بنجاحها في علاج الأمراض . وأصبحت إيدورس فيما بعد أورديس Lourdes اليونان ، يحج

إليها الناس من جميع بلاد البحر المتوسط ، ينشدون فيها نعمة الصحة التي بعدها اليونان أعظم النعم جميعها . وكانوا ينامون في الهيكل ، ويتبعون بدقة النظام الذي يفرض عليهم ، ويسجلون شفاءهم الذي يعتقدون أنه من المعجزات الإلهية على ألواح من الحجر لا تزال باقية في أماكن متفرقة بين خربات الأيكة المقدسة . ومن الأجور والهدايا التي كانت تجمع من هؤلاء المرضى شادت إلبدورس دار تمثيلها وملعبها ، ولا تزال مقاعدها ومرامبها باقية إلى اليوم بالقرب من التلال المجاورة لها ؛ وقبائها المرفوعة على العمد والتي تعد بقاياها المحفوظة في متحف المدينة الصغير من أروع قطع الرخام المنقوش في بلاد اليونان . ويذهب اليوم أمثال هؤلاء المرضى إلى تنوس Tenos في السكلديس حيث يعالجهم قساوسة الكنيسة اليونانية (١١٥) كما كان قساوسة أسكليبيوس يعالجون أسلافهم منذ ألفي عام وخمسمائة . أما القلعة القائمة التي كان أهل إلبدورس يقربون عليها القرابين إلى زيوس وهيرا فقد أضحت الآن جبل سانت الياس St. Elias المقدس . إن الآلهة تموت ولكن التقى والصلاح مخلدان .

وليس أعظم ما يحرص العلماء على مشاهدته في إلبدورس هو خرائب أسكليبيوم التي سويت بالأرض . فالمكان كثير الأشجار وليس في وسع السائح أن يرى الملهي الكامل الذي جاء لمشاهدته حتى يصل إلى منعطف في الطريق يبسطه أمامه عند سفح الجبل على هيئة مروحة ضخمة من الحجارة . ولقد شاده بوليكليتوس الأصغر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه لا يزال باقيا إلى اليوم ، ويكاد يكون كاملا لم ينقص منه شيء . وإذا وقف السائح في وسط المرقص (الأوركسترا Orchestra) وهو مكان رحب مستدير مرصوف بالحجارة ، وأبصر أمامه أربع آلاف مقعد في صفوف متراصة يعلو بعضها وراء بعض ، وقد نظمت تنظيما رائعا بحيث يكون كل مقعد منها مواجهها له ، وإذا ما تتبع بنظراته الممرات المتشعبة التي ترتفع ارتفاعا

سريعا في خطوط مستقيمة من المسرح إلى سفح الجبل من ورائه ، وتحديث بصوت خافت إلى أصدقائه الجالسين على أبعد المقاعد وأعلامها على مسافة مائتي قدم منه ، وأيقن أن كل كلمة نطق بها قد سمعها هؤلاء الأصدقاء وفهموها ، إذ ما فعل هذا تمثلت له إندورس في أيام عزها ورخائها ، وصور له خياله الجموع الهائلة مقبلة حرة مرحة من كل مدينة ومزار لتستمع إلى يورپديز ، وسرى في نفسه إحساس ، أقوى من أن يعبر عنه بلسانه ، بحياة الهواء الطلق البهجة التي كان يستمتع بها اليونان الأقدمون ٥

الباب الخامس

أثينة

الفصل الأول

بؤوتية هزيبود

يتفرع الطريق في شرق مجارا - فيتجه جنوباً إلى أثينة وشمالاً إلى طيبة . والطريق الشمالى جبلى وعمر يودى بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithaeron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل پرنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتوسط سهل بؤوتية الحصب . وعند سفح التل تقوم بلاثية حيث ألقى حاة ألف من اليونان ثلثائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلاً نجد لوكترا Leuctra حيث كسب أپامينداس أول نصر عظيم له على الاسبارطين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر « وهكرين الحية » التى تسمى بها كيتس Keats ، وهى ينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذى تؤكد لنا الأساطير أنه نبع منه الماء حين ضرب بيجوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء^(١) . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثيبيا التى لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذى أبصر فيه نارسس خباله - أو خيال أخته الميتة التى كان يحباها على ما جاء في قصيدة أخرى^(٢) .

وفى بلدة أسكرا Askra الصغيرة بالقرب من ثيبيا كان يعيش ويكده الشاعر هزيبود الذى لا يعلو عنه فى حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد في عام ٨٤٦ وتوفي في عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالى ٦٥٠ (٣) ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام (٤) . وكان مولده في سيمي Cyme من أعمال إيوليا في آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها هاجر إلى أسكرا التي يصفها هزبود بأنها « بائسة في الشتاء ، لا تطاق في الصيف ، وليس فيها خير في وقت من الأوقات » (٥) - كمعظم الأماكن التي يعيش فيها الناس . وبينما كان هزبود الغلام الراعى والعامل في المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلاً تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت في جسمه روح الشعر فأخذه يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز في المباريات الموسيقية (٦) ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه (٧) .

وإذ كان ككل شاب يوناني مولعاً بعجائب الأساطير ، فقد كتب (*) أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت تسرد أسر الأرباب وملوكهم ، وهى أنساب لا غنى عنها في الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها في التاريخ . وقد تغنى في بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » في الهيكربن (٧) . ثم وصف بعدئذ مولد العلم - لا خلقه - فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه في بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين » ؛ وكان الآلهة في الدين اليوناني يعيشون إما على ظهر الأرض أو في باطنها ، وهم على الدوام قرييون من الناس ،

(*) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البزوتيين من عاشوا في القرن الثاني بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتأهون في أن هزبود هو مؤلف هذه لأنساب .

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجل الآلهة » كلهم^(١٠) . وولد للماء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ، وولدت الأرض الحبال والسماء ، وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يسمون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود فى اللغة اليونانية أيام هزيبود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم فى بادئ الأمر كان عماء ، ثم نشأت الأرض وما فى باطنها ، والليل والنهار والبحار ، وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شئ ولعل هزيبود كان فيلسوفاً ألهم الشعر فأخذ يحسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ لمبدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين فى صقلية^(١١) . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر فى أساطير هزيبود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزواج السماء (أورانوس) والأرض (جى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خمسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس يحبهم فقدف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهمة . فابتهجت « جى الضخمة بهذا العمل وأخفته فى كمين ؛ ووضعت فى يده منجلاً ، مثلم الأسنان ، وأوحت إليه بالخطوة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء محباً ولماً فاحتضن الأرض وامتد حولها فى جميع الجهات . فلما رأى كرونس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع فى اليم ، ونشأت من نقط للاء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furias) ؛ ومن الزيد الذى

(١٠ - ١ - ١٦١ - ٢٠١)

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفرديتي (*) (١٢) . واستولى الجبابرة على أولمبس ، وأنزلوا أورانوس (السماء) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhæ ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأ بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرونس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً (١٣) .

مذه هي الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هي أساليبهم كما جاء فى أقوال هزiod . وهنا نجد قصة پروميشيوس البعيد النظر ، جالب النار ، ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة — ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملاً خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هي القصص الشعبي الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكمن منها من تأليف هزiod نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمبس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزiod فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قتل أولمبس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قريباً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هي قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسوس ، وقد صورته فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعلم أن يكون تجسداً أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

(*) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite

فلا يعرف أصله على وجه اتتحقيق .

القصيدية : « والآن سأحدث إليك أيها الأخ الأبله پرسبوس ولا أبغى مر حديثي إلا الخير لك^(١١) » . ويقول لنا هزيود إن پرسبوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة في التاريخ تصف فضيلة الجلد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والحمول : « إن من أيسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكداً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة المخلدين قد أقاموا في سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلاً وعراً . شاقاً في بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلاً بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل^(١٢) » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الجدية ، ويحدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله في أمثال فجأة صقلها فرجيل فيما بعد في شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر پرسبوس من عاقبة الإفراط في الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بوؤتية القاسي فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجؤذر والبحار والأنهار تضطرب مياها بفعل ريح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تتساقط ، والحيوانات « تهرب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرهم ومذاذرهم^(١٣) ، وما أدفاً الكوخ الحسن البناء في ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهي خير عرض للرجل مما سببته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى في الزوجات ، وما من شك في أنه كان أعزب أو أرملة ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ في آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبناً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مسامعنا قصص تلك الأيام التي كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر في كتابيه الكبيرين في اغتياب الحاقد الشامت أن معظم الشرور التي في العالم من فعل پندورا الحسنة ، وأن زيوس لما غضب على پروميتيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحسنة جميلاً كوجه الآلهات والمخلدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وأمر أفروديتي الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذي يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كمقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً ؛ وسمى هذه المرأة پندورا لأن كل الساكنين في البيوت الأولمبية قد أهدوا إليها هدية لتؤدي بها الرجال المبدعون (١٧) » .

ثم يقدم زيوس پندورا إلى إيميتيوس Epimstheus ؛ وقد حذر أخوه پروميتيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان پروميتيوس قد ترك مع إيميتيوس صندوقاً خفياً عجبياً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على پندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن پندورا ، كما يقول هزبود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديديات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنهم على التخمه ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى (١٨) » .

ثم يقول الشاعر المديذب بعدئذ في حسرة ولوعة إن العزوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فإن من مصلحة الرجل أن

يتزوج - وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد - وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخبر سن الزواج هي سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التي تهدي إليك فتاة من جبرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخبر ما تنبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضى كل وقتها في الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب ؛ وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب^(١٩) . »

ويقول هزيبود إن الجنس البشرى عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئات من السنين يرسل في حلال السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولاً في أيام كرونس (ستورينا في شعر فرجيل) جيلاً ذهبياً كانوا كالألهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلثا طعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت آخر الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة في نزوة من نزواتهم القدسية جيلاً فضياً أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفراداه في نموهم إلى مائة عام ، فلماذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلاً يدرّكهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلاً نحاسياً ، رجالاً أعضاؤهم وأسلحتهم ويوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « سلب عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا في طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم في جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجبل الحديدي ، وهم خاق أدنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكدهون بالنهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلة ويخاؤون عليهم ، كسالى مشاغبون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يثق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود في حسرة : « ألا ليتني لم أولد في هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتمنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجبل الحديدي في باطن الأرض (٢٠) .

هذا هو اللاهوت التاريخي الذي يفسر به هزيود ما في زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه الشرور بعينه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك في أن الماضي الذي ملأه أبطالاً وآلهة كان أنبل وأجل من هذا الجيل ؛ ولما نرتاب في أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم في بوثونية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التي ينتمى إليها قد أثرت في نظريته ، وأن آراءه في الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التي تطالنا في شعر هومر ، وهي صورة إن كان فيها الإجرام والفرع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن ومضة من الجمال تحو آلافاً من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، وينضب من وقاحة النساء اللاتي يجاسن حول المائدة مع أزواجهن (٢١) . ويكشف لنا هزيود في صراحة فظة عما كان في المجتمع اليوناني القديم من انحطاط قبيح — عن النقر المدقع الذي كان يعانيه رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمراء للأشراف من الرجال والنساء ، أما هزيود فلم يكن يعرف أمراء ، بل كان يتغنى في قصائده بالسوقة من الرجال ويؤثم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع في شعره إلى قعقة ثورات الفلاحين التي أنتجت في أتكنا من بعد إصلاحات صولون وطغيان بيسستراتس(*) .

لقد كانت الأرض في بوؤتية ، كما كانت في الهلوبيونيز ، في حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون في المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كپسيس Capsais ، وهي الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمتد بالماء شبكة معقدة من قنوات الري وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب في أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon في إپروس الذي أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قيرونيا Chaeronia (وبقربها قضى فليب على حرية اليونان) ، وطبية عاصمتهم في مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركنوس العاصمة الميناوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها في أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طبية في اتحاد بوؤتي يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الخلف يختارون في كل عام ، ويحتفل أهلهم مجتمعين في كورونية Coronea بعيد الجامعة البوؤتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البوؤتيين ويتهمهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم في الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار — كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سراء بسوء . وقد

(*) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو في سن الثلاثين أغوى العذراء كليمنى Clymene ؛ وإن أخاها قتله وألقى بجثته في البحر ؛ وإن كليمنى حملت منه بابه الشاعر العاني استسيكوروس Stesichorus وهو الشاع الذي ولد مع ذلك في صقلية .

يكون في هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البووتيين يضطلمون في تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلاً قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة في جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع في الكفة الأخرى — كفة الحسنتات — أبطال پلاتية الشجعان الأوفياء ، ونضع هزبود الكادح المثابر ، وپندار الذي بلغ السماكين ، وأپامينداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

الفصل الثاني

دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قبرونيا مدينة أفلو طرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثني عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة . وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسيا Crisaea الذى تتلأأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل يمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تهادى فى بطاء وصمت فوق المياه الساكنة الخلداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح ببيع كستاليا Castalia فى خائق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا لإسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة (وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته) ؛ كما يروى التاريخ أن فلوميلوس Philomelus الفوق Phocian طارد للكربين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة (*) الثانية (٢٣) . ومن فوقها قمنا برنسس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هليكن . ولم يكن اليونان الذين يتسلقون مئآت

(*) اقر أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكل أبلو أولاما من ٩٥٠ إلى ٨٠٠ وفيها قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة لهيكل من إنناوات باعظة على الحجاج المارين بشترم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ . فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياد دلفى وإلى إقامة الألعاب الهيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن فحمت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل - متزينين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التي يكسوها الضباب من جهة والبحر الذي تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهوالها - لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون في أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض في هذا المكان وقذفت الرعب في قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام في قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى في قلوب الغالبين النهابين ؛ وكانت الزلازل في اعتقاد اليونان من فعل الإله يحميها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمنون هذا المكان من أقدم الأزمنة التي تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا في الرياح التي تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التي تنبعث من باطن الأرض ، صوت إلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التي تكاد تسد الفتحة التي تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها في اعتقاد الأهليين ، ومن ثم كانت هي سرّة العالم أو أمفالوسه omphalos كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم ليلحي أهمهم الأرض في الأيام القديمة ، ثم لأپلو مالكتها الأزهر فيما بعد . وكانت تحرس الأخدود في الزمن القديم أفعى رهية فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس Phoebus بسهم وأصبح هو أپلو البيشين الذي يعبد في هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران في عام ٥٤٨ هـ هيكلاً قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكمونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتسبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقاموا رأّت بلاد اليونان ضريحاً مثله من قبل . وكان طريق مقلّس ملتف حول الجبل يؤدي إلى المزار ، ويزدان في كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أى الهياكل الصغيرة التي أقامها عند تخومه المقدمة (في أولمبيا ، ودلفي ، وديلوس المدن اليونانية) لتودع فيها أمراًها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع في
دلقي ، وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيريني ، وأقامت أحسن
منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفي وسطها كلها شيد ملهى مواجه
لجبل برنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان في اليونان أصلاً من الأصول
الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر
لإلههم وهي عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفي وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان في عيد أبلو ، فنصور لأنفسنا
الحجاج المتحمسين يزحون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، وتغص بهم
وبصخبهم وضجيجهم النزل والخيام التي أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم
يمرون في حذر وارتباب بين الحوانيت التي يعرض فيها للتجار الماكرون
بضاعتهم ، ثم يصعدون في مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أبلو يطلبون
إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ،
أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويجلسون خاشعين في الملهى ، ثم يصعدون
في خطى ثقيلة متعبة تبلغ الحصانه عدا ليشهدوا الألعاب البيئية أو ليتطلعوا في
دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا
النهج المليء بالحمية والحماسة .

الفصل الثالث

الدول الصغرى

كان الأهلون في الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس في لكريس *Locris* ، وإيتوليا *Aetolia* ، وأكرانيا *Acarmania* ، وإينانيا *Aeniania* ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة البحار ، لا يجدون متسعاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والمهلى العزيزين على أنكا لم يجداهما مواطناً في هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يحملها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم في فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا *Amphissa* في لكريس ، أو نوبكتوس *Naupactus* الإيتولية ، أو كليدون *Clydon* الصغيرة حيث صاد مليجر *Meleager* في يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا *Atalanta* (*) . وعلى الساحل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون *Messolongion* أو مسولنجى *Messolongi* حيث

(*) دمر خنزير برى حقول كليدون فانبرى له مليجواين مليكها إينيس . ودير أمر صيده مستعيناً بشهرس ، وكاستر ، وبلكس ، ونسطور ، وجيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخطو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ومليجر قتله . وتزاحم الخاطبون على أطلنطا في بيتها في أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لا يستطيع أن يسبقها . واستطاع هيرمينس *Hippomenes* أن يسبقها بأن ألقي في طريقها وهو يمدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفرديتى من المهردين *Hesperides* ، فوفقت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفي وسع انقارى أن يطالع على حب مليجر الخنى لأطلنطا وموته المفجع في قصيدة سوثيرن *Swimburae* المسماة « أطلنطا في كليدون *Atalanta in Clydon* » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقتل برون Byron ، ويمجى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر في بلاد اليونان — نهر أكولوس الذى اتخذته اليونان ذو الخيال الحصب لها لم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه فى إبيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه فى دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون فى العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هليز وهو الاسم الذى سمي به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التى لا تخضع لغير الهوى . وفى اتجاه الشرق يقع ممر ترموبيل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وممره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالى Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثريس Othrys ويحرق أخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفىها عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات بيمى ؛ وليس فى بلاد اليونان كلها لإقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولاً ، أو أفقر فنوناً . وتجرى فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها فى نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال مخترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحدر بين قمم أسا Assa وأوليس وادى التيمى (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر فى الزمن القديم مدن كثيرة — فيرى ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا في أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قلال البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم پيريا Pieria التي كانت موطن ربات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أساً Ossa إلى پليون Pelion .

وتمتد جزيرة عويية العظيمة Euboea مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخلجان الداخلية ومياه بحر إيجه الخارجية ، مبتدئة في عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة في كليس تكاد تصلها بيووتية . والعمود الفقري للجزيرة سلسلة جبلية هي امتداد لأولمبس ، وپليون ، وأثريس وتنتهي بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا في أيام غزو الدوربين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين في عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التي تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پيريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عويية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء لكليس والأصل الذي اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتاً ما أهم مراكز الصناعات المعدنية في بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التي لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التي بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كليس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية في تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكايل العوى أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كليس المهاجئة التي أخذتها رومة عن كوى الإيطالية مستعمرة

(*) وهي التي وردت في نصيحة ألكسندر بوب الحكيم التي يعرضها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار

فلما أن تروى منه وإما ألا تمس النبع الهمري (٢٤)

عوية ، كما أوضحت هذه الحروف في صورتها اللاتينية هي الحروف لهجائية لأوروبا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرثريا منافستها القديمة حيث أنشا منديموس Meredemus أحد تلاميذ أفلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرثريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر اسمهما واضحين في تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبّر الخشبي الذي أنشئ في عام ٤١١ ق . م مضيق يوربوس Euripus عائداً إلى بوثوتية . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب على الساحل البوئوتى تقع بلدة أويس الصغيرة حيث ضحى أبهمون بابنته للآلهة . وكانت تعيش في هذا الإقليم في يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هي قبيلة الجرايس التي أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشئوا مستعمرة كوى بالقرب من نابل ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذى أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الحراكي (الإغريق) (*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسماً لم يسم أهلها بلادهم به في يوم من الأيام (٢٥) . وإلى جنوب أويس تقوم تنجارا Tangara التى كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من پندارحوالى عام ٥٠٠ ق . م . والتى صنع خزاؤها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة في التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفي وسعنا إذا وقفنا على قلل جبال پارنيس أن نبصر تلال أثينة .

(٥) وقد قل العرب هم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . (المترجم)

الفصل الرابع

أتكا

١ - ما حول أثينة

إن الجو نفسه في هذا الإقليم يختلف عنه في الإقليم السابق - فهو هنا نظيف ، بارد ، مضيء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثائة يوم ذات شمس ماطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أثينة الصافي الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر في حدة عقول أهل أتكا » (٢٦) . ويسقط المطر في أتكا في الخريف والشتاء ، وقاما يسقط في الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الثلج في أثينة مرة واحدة في العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أضعافاً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها (٢٧) . والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ، وكانت الأراضي المنخفضة في الزمن القديم ذات منافع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة (٢٨) . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض في كل مكان تقريباً ، وهذا القرب يجعل الزراعة كفاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة (*) ؛ ولولا التجارة التي تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التي تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة في أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة في هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهي تطالع الإنسان في كل مرفأ على الساحل ، وفي كل واد

(*) يقول توكيديس إن « أتكا نجت افقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (٩) والغزو الأجنبي » .

بين اللال ، فقد استقر في أنكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجري الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين - وهم مزيج من الهلاسجيين الميسينيين والآخيين^(٢٨) - الفارين من بؤتية والبلوونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهيلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصابية^(٢٩) ، يصلون عن قدسها القوي ، الأكروبوليس ، الدورين نصف المميج الحديثي المعهد بالثقافة اليونانية^(٣٠) .

وكان نظامهم الاجتماعي ممتداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون في حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون (حاكم) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضي العامة ، ويستمتعون بحق الزواج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدفاع ، ويوارون التراب آخر الأمر في مدافن القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أنكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم^(٣١) . وكان تقسيم المجتمع الأتيكي هذا التقسيم القائم على صلة القرى مما يسهل تنظيمه الحربى وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطرت كليشئز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع إقامة نظام ديمقراطى فى البلاد .

وينبغ على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت فى الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى (١٥ - ج ١ - مج ٢)

تعبده ، وكانت هذه هي الحال في أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا من بوثوية الشرقية التقى أولا بأوروبوس Oropus وانطبعت في ذهنه صورة غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع لها السائح ارتياعه من أية بلدة مثلها في هذه الأيام . ويصفها ديكي آرکوس . Dicaearchus حوالي عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروبوس معشش للبائعين المحتالين . وموظفو الجمارك في هذا البلد شرهون شرهاً لا يدانيه شره سواه ، وخستهم متأصلة في لحمهم وعظامهم . ومعظم أهل أغلاط ، شرسو الطباع ، لأنهم أطاحوا بروثوس المؤدبين الظرفاء من الأهلين » (٣٢) . وإذا اتجه السائح من أوروبوس نحو الجنوب التقى في الزمن القديم بسلسلة من البلدان المتقاربة ، رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Dereleia (وهي مكان ذو موقع حربي حصين اشتهر في حرب البايونيز) ، وأكارني Acharnae (موطن ديسهوبوليس Dicaeopolis داعية السلام الشرس في مسرحيات أرسطوفيز) ، ومراثون ، وبرورونيا Brauronia . وفي الهيكل العظيم الذي كان قائماً في هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتيميس الذي جاء به أرسيز وإفيجينيا من كرسنيز Chersonese في طوروس Taurus ، وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا ليشاركوا في حفلات التقى والدعارة المعروفة باسم برورونيا أو عيد أرتيميس (٣٣) . وبعد هذا يلتقى السائح ببراسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ، ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذي تستخرج الفضة من مناجمه ، والذي كان عظيم الشأن في تاريخ أثينة الاقتصادي والحربي ؛ ثم يلتقى في طرف شبه الجزيرة بسونيوم Sunium التي شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدى به الملاحون ويوفون فيه بنظورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربي (لأن نصف أرض أتكا سواحل ، واسمها نفسه مشتق من أكتيكي Aktike أي أرض

(السواحل) ، يمر المسافر بأنافليستوس Anaphlystus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis (*) موطن لإچاكس ويورپدیز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود الأمر إلى پیریس (پیریه) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذى ظل مهملًا حتى كشف ثمستكلیز فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جذب تربة أنكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانئ الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أنكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم بقوة ابتكارهم أسواق بحر إيجه ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، فى عصر پركليز .

٢ - أثينة فى عهدھا الأجركى

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين فى نظام سياسى واحد وجعل لهم عاصمة واحدة (**). ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من پیریس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وپنتلكوس Pentalicus وپارنس Parnes ، حول الحصن الميسينى القديم . وكان جميع ملاك الأراضي فى أنكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكًا هى التى تحتفظ التوازن بين ذوى السلطان فى البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

(٥) وأكبر الملن أن الفيزيين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أى السلام ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

(٥٥) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أنكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٠٠ ، وذلك لأن نشيد دمتري الهومري الذى وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث عن إلوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها (٣٦)

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستيمسك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus ميتة الأبطال مضجياً بنفسه لصد الدوربين الغزاة(*) أعلنوا (كما تروى القصة المتواترة) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا (حاكماً) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفي عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة في عام ٦٨٣ . وفي هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكاً ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشرعين . وحدث هنا ما حدث في إسبارة ورومة ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الديمقراطية ، بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ما كان يحدث في التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ما كان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك في الدستور الأثيني حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عليها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماؤها دون تغيير .

وظل « الحاكمون الشريفو المختد » (Eupatrid Oligarchs) يحكمون أتنكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان (Rippes) الذين يملكون الخيل(**)

(*) والراجع أنها حادثة خرافية ترجمها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .

(**) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المذهب كما كانت الحال عند الفرسان

الرومان equites والفرنسيين Chevalliers والإنجليز Cavaliers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان في الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال المأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان في عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء في البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع في نسيم المساء العليل على الأريوپاجوس Areopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوپاجوستى في عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الأجركية كان له مثل ما لنظيره في رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان^(٣٦) .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المختد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقيمون في المدن بينما يقوم العبيد والعمال المأجورون بزراعة أملاكهم في الريف ، أو انتجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . وبلى هؤلاء في الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتمحورت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالها في عهد صولون وبيستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها في عهد كليستينز وبركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا في ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا^(٣٧) . وكان أفقر الأهليين عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين يتزعمون القوت من التربة الضئيلة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون في أيامهم الحالية أراضي واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتقسمت هذه الأرض ثم تقسم بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالاً سريعاً ، كما كانت الأسوار والخنادق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . وكلما صغرت مساحة الأراضي التي يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم - رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يحرمون بسببه من حقوق - ونزحوا إلى أثينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل لزامات الملكية ، مستأجرين لضبياع الأشراف hectemoroi ، أو عاملين فيها لقاء نصيب من غلتها^(٣٨) . وظل غيرهم في أرضهم يكافحون ، يقرضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقي حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لوحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية^(٣٩) . ونضاءت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « وأصبحت كل الأراضي ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبنائهم لأن يباعوا بيع الرقيق » لا في داخل البلاد فحسب بل في خارجها أيضاً ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون^(٤٠) . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أبقت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤدوه ثمناً للسلع المصنوعة التي كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لاسلطان لم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالى السنين . وإذا ما أجذبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك في أتكنا درجة رحب معها الأهليون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدى إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدى حتاً إلى قلة الأفواه التي تتطلب الطعام^(٤١) .

وفي هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف في وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً^(٤٢) . وبلغ الجهد العضلي من الرخص حدّاً أصبح معه كل القادرين على ابتياعه يرفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوى غلاماً وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون في خارج البلاد الحبوب التي يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاماً لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثنيين أنفسهم تطبيقاً لقانون الديون^(٤٣) .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشرع ثسموثيتي Thesmothete حوالى عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكنا ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة . في تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما نجده من تقدم في قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لم الحق في أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل الغضب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوسى بعدئذ صاحب الحق في النظر في جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدماً ، ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يقنع ذوى الثراء بقبوله وبأنه أقسى من كل ما يستطيعون فرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذاك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسى الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو خروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع في شرائعه ما كان في نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقرباء للضعفاء ، ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام المحتد (اليوترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق في أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف^(٤٤) . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخي في العمل ، يعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين(*) بالإعدام^(٤٥) .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقرب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمي النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة في أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلا بد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها في الفقر الشامل الذي تؤدي إليه الحرب الاجتماعية والذي لا يميز بين من كان في الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا ريفيين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهى بأن يكون نظاماً مهلكاً ميئداً . وفي ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت في الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت في حال تحدى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية^(٤٦) . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(*) « كان الذى يسرق كرنبه يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو يتهك حرمة الغير » صولون لأفلوطرخس .

فزام الحكم والحيش في أيدي سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضو في كل نزاع في غير مصلحتهم^(٤٧) — فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة^(٤٨) . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملأهم^(٤٩) ، بلجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا الحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لا يهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

٢ - الثورة الصولونية

قد يبدو عجيباً بعيداً عن المعقول أن يقوم في هذا الدرك الذي تدهورت إليه شئون أثينة والذي يتكرر كثيراً في تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجيباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مريرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسوا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصادياً جديداً خيراً من النظام السابق ، بقي ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التي تبعث الشجاعة والأمل في النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دماً ، ينتهى نسبه إلى الملك كلدروس ، بل إنه كان يتبع نسبه إلى يوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم بيسستراتس الطاغية الذي خرق دستور صولون في أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه . وقد انغمس صولون في شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذ الصداقة اليونانية^(٥٠) ، وفعل ما فعله نرتانوس Tyrtaetus فأثار حساسة

الناس بشعره ودفعهم إلى فتح سلاميس^(٥١) . ثم صلحت أخلاقه في سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائحه جيدة . انظر مثلاً إلى قوله في أشعاره : « إن الكثيرين من الناس أغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكننا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فلإنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورثته وقدميه ، وهي الأعضاء التي تأتيه بالسرور ولا تأتيه بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفنى أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام^(٥٢) » . ولما حدث في أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياء ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحيلة جريمة^(٥٣) ، ولكنه لم يتردد قط في التشهير بالوسائل التي سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعهم إلى أخضاض الفاقة^(٥٤) . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطرخس فإن والد صولون قد « بدد ثروته في التصديق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذا مصالح كثيرة في أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل في بلاد بعيدة ، وكان يسير في عمله على المبادئ التي يدعو إليها في قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً — في الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين — حين أقبل عليه في عام ٥٩٤ ميثاق الطبقات الوسطى بدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم *teponymos* ، على أن يمنح ساطة مطابقة لإخاد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهى كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المنتظرين بإحجابه عن إعادة تقسيم الأراضى . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى الفوضى التى تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكتيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغى كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة »^(٥٥) ، وهكذا حرر أراضى أنكا من جميع الرهون بجرة قلم ، هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من يبعوا رقيقا فى خارج البلاد وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرّم مثل هذا الاسترقاق فى المستقبل . وخلق بنا أن نذكر من خصائص الخلق فى هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعزّمه من إلغاء الديون فاشترى أراضى واسعة مرتبة ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ، ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمى بأن هذا كان منشأ ثروات طائفة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمة لا يذكرها الناس لقدم عهدها »^(٥٦) . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشيء الكثير^(٥٨) . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان فى حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن سماع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أنكا من الثورة^(٥٩) .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثا يقينيا واضحا . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقود الفيدونية « Pheidonian » — أى النقود الأجنبية التى كانت مستعملة فى أتكا حتى ذلك الوقت — « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina (*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين^(١٠) » .
ويقر أفلوطرخس فى بيانه عن هذا الإصلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التى تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان فى هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين^(١١) . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هو الذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة ينفذ بها المدينين دون أن يلحق الضرر بالدائنين — إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى فى بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله (**).

وكان أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التى أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لما صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفي منها لجرائم سياسية إذ لم تكن هذه الجرائم هى محاولة اغتصاب مقاليد الحكم فى البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمناً معظم شرائع دراكون؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتل^(١٢) وقد طبقت قوانين صولون

(*) انظر قيمة العملة الأثينية فى الفصل الثالث من الباب الثانى عشر من هذا كتاب .

(**) فسر جرروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض العملة بمقدار ٢٧٪ من قيمتها فتيهر لأسر للملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدبنيين وحرماً من فوائد الرهون التى كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم أو أنه قد حصل لكان ضربة مؤذية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا الأجار أموالاً ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين أنفى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط فى تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر التجارة مع بلاد الإليوبوديز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد العوبى مستعملاً فيها^(١٣) .

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقبدين بقيود واحدة تفرض عليهم عتوبات واحدة . وإذا كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتى التجار والصناع ، ورغبة منه في أن يجعل لهم حظاً في حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكنا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل *oushel* (*) وهم الذين يصل دخلهم السنوى إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها *pentacosimedemni* (***) ، والثانية هم الهبي *hippes* الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتائى *zeugitai* الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة الثنقى *hetes* وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدى من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانية ؛ يضاف إلى هذا أن الضرائب التى تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوى اثنى عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أى أن ضريبة الأملاك كانت في واقع الأمر ضريبة دخل تصاعدية (٦٥) . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة (المباشرة) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هى التى يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان في الجيش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل في فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود اعمادين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

(•) البشل مكىال إنجليزى يعادل ثمانية جالونات .

(••) كان المدمنس *medimnos* - المادل لبشل ونصف تقريباً - يمد مساوياً في قيمته النقدية للدرخة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأبحاركية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ « التقراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو لمنزلة ، ويحدد لهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم « بلوتوقراطى (يتولاه المثلون) » ، شبيه بهذا الحكم منتشرأ خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبقي دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوبجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يتمتع به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة^(٦٦) . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مؤلفاً من أربعائة عضوبلى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعدها . ووضع صولون فى منزلة أدنى من هذا النظام الأبحركى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمة ديمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكليزيا leklesia (الجمعية) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسمائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوبجوس ؛ وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيلىايا heliaea ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التي تنظر في جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة ، والتي يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال المحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد إدخال الغموض على قوانينه ليتمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين المحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين^(٦٧) » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الديمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قررناها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاء نفسها لقبيلته^(٦٨) . فقوانين صواون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذا كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنة لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرّم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة^(٦٩) . ويرجع الفضل فيها نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون - لا إلى من جاء بعده من الأثينيين .
ولم يحجم صولون عن التشريع في ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق .
والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن
يسمح للرجل الذى يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية
بطلب^(٧٠) ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاة ضريبة ، وأنشأ مواخير
عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكلًا لأفرادتي
بندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه
يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلندى المعروف فقال :
« مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لحير المدنية ، ولوقاية أخلاق
المدنية الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء
الشبان فضليات النساء ونشروا في المدينة الفساد والاضطراب^(٧١) » .
وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ،
وهى عقوبة أقل كثيراً مما فى قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك
برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائئات العرائس
ومهورهن لرغبته فى أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل
بين الزوجين والرغبة فى النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن
يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل ، وكان فى ثقته بقدرته
على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال فى ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامره
ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه
لم يجب هذا الطلب وقال فى تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل
الحمل^(٧٢) » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء
فى الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفى ساحات الألعاب ؛
ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك السنة الناس فى أثينة حيث كانت
الغسة والشمعة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الديمقراطية

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياء في أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدي إلى خراب الدولة . وحرّم الاحتفالات الفخمة ، والقرايبن الكثيرة النفقة ، والندب الطويل في الجنائز ؛ وحدد مقدار ما يدفع مع الأموات من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذي ظل مصدراً لبسالة الأثنيين أجيالاً طويلة وهو القانون الذي فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون في الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها في ساحة الأركون الديني (أركون باسليوس) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحمورابي ، ونحوما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل في حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكماً بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مقام جميل حقاً ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه »^(٧٢) . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس في الملك وفي السلطان ، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكركسيس Anachrsis ، الحكيم السكودى صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستورهِ الجليد وقال في ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن في وسع الأقوياء والمهرة أن يحوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه بيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما فى شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثينيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سنت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطوه » — أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتصاربة فى أثينة بأن تقبله كلها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحاً من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستجيري Stagirite . وتزرو إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أبلو فى دلفى وهو metenagan أى لا إفراط فى شئ^(٧٥) ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخبر شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعته من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعة كانت لا تزال نافذة فى أثينة^(٧٦) . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكماء ، ويطيع الحكام القوانين^(٧٧) » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأثينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالاً طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب البلوپونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر^(٧٨) . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشط

الذى أصبحت أثينة بفضلها الزعيمة التجارية في بلاد البحر المتوسط وكانت أرسقراطية الثراء الجديدة ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التى تمت في العصر الذهبي .

ولما بلغ صولون في عام ٥٧٢ سن السادسة والستين أثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها . وظفوها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين^(٧٩) ، وسافر بعدئذ ليطلع على حضارة مصر والشرق ، ويلوح أن ذلك الوقت هو الذى قال فيه قائله الذائعة الصيت - « إلى لتكبر سنى وما فتئت أتعلم »^(٨٠) . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ في عين شمس (هليوبوليس) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التى قص قصتها في ملحمة لم ينمها ، افتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتى عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التى غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له^(٨١) . ويصف هيرودوت^(٨٢) أفلوطرخس حديثه مع كروسس ملك ليديا في سرديس - وما أقوى ذاكرتهما التى أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث - فيرويا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المنقطعة النظر مزداناً بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلاً : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بـقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهى حكمة مريحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر في البلايا الكثيرة التى تكتنف الناس في جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

(*) يقص ديريجنيز ليرئيس هذه القصة عن صول في قليقية - وهى البلدة التى كان احتفاظها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً في وجود لفظ *solecism* ومعناه الخطأ في الكلام أو خرق حرمة الآداب .

يتأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما نتمتع به في وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد نتبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتى بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن في وصف الرجل الذى لا يزال في منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما في تنويع المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال في حلبة الصراع (٨٢) .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هيريس hybris - أى الرخاء الوقح - لينم عن حكمة أفلاطون الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت في ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين في أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك في أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما في هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس في عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل (إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت في ألفاظ دانتى) وهو في بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان في تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة لياق في الموت ، شهد في آخر أيامه القضاء على دستوره ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً في ظاهر الأمر فحسب .

٤ - دكتاتورية بيسستراتس

لما غادر صولون أثينة - عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة في طبيعتها . وكان فيها ، كما كان في أيام الانفعالات الشديدة في الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » و « بيزز » و « السهل » .

ويتزعمه ملاك الأراضي الذين يكرهون صولون ؛ و « الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لا يزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضي . ورضى پیستراتس ، كما رضى بركلیز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولاً . وكشف في إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إزاء أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريبه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو في جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأثينيين : « يا رجال أثينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غدر پیستراتس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم يخوفهم يسكتون عنها »^(٨٣) . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلاً ، غير أن پیستراتس لم يكتف بخمسين - بل جمع أربعمائة ، واستولى على الأكروبول ، وأعلن نفسه حاكماً بأمره . ونشر صولون على الأثينيين رأيه فيهم فقال إن « كل واحد منكم يمشي وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزاً »^(٨٤) ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

وانحدت قوات أصحاب المال من حزبي الشاطئ والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن پیستراتس اصطاح مع حزب الشاطئ سراً ، وعاد إلى أثينة في ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون في عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطئ قد غص الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء ملرعة بدرع أثينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس في مركبة جليلة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش پیستراتس إلى المدينة ، بينما كان المبشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت في هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك في أن هذه المرأة هي الإلهة نفسها ، فحروا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة ببستراتس^(٨٥) » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد في عام ٥٤٦ . وهزم الجنود الذين سيروا لقتاله ، وبقي في هذه المرة حاكماً بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخططه الحكيمه في خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التي استولى بها على أزمه الحكم .

وكانت أخلاق ببستراتس مزيجاً نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفاية الإدارية ، والحادية الشخصية . وكان في وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم دون ما تردد ؛ وكان في مقدوره أن يعيش في أكثر التيارات الفكرية تقدماً في أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد في الهدف وإحجام عن البت في الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيماً في أحكامه ، كريماً في معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلاً ، وسار فيه سيرة السياسي لاسيرة الرجل الظالم المستبد »^(٨٦) . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الجدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيهم ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر في المدينة التي لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة ، حتى أصبح من الأقوال التي تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبي .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذي لا يستحق الذكر . ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يرين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال

الديمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعائة ، ومجلس شيوخ الأربوبجوس نجتمع ونقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما وجد أن اقتراحات پيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكي إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلمهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفي آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أثينة كانت بعد صولون في حاجة إلى رجل مثل پيسستراتس أوفى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان في الحياة الأثينية من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه في بادئ الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكل العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسبها الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتورية بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقي معها الإطار الخارجى للدستور صولون ، لترثهما الديمقراطية . فكان پيسستراتس لم يأت ليحمو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأرض الزراعية آلاف من الأثينيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أنكا بعدئذ قروناً طوالاً لا نسمع فيها عن تدمير بين الزراع^(٨٧) . وأوجد عملاً للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من المجرى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآفة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم Laurium ، وسك

للبلاذ عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة في المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة في المائة (٨٨) . ووضع مشروعا لإقامة مستعمرات في النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة في أيامه رواجاً عظيماً ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ، وامتنع تركيز الثروة الذي كاد يقذف بالمدينة في أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرض فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للديمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسماً وعقلاً في أيام بيسستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة في المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليوناني ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، ومتليني ، وسرقوسة ، في الثروة والثقافة ، والحيوية والنتاج العقلي . أما في أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروبول بأن ضم إليه رواق دوري الطراز ، وبني العمل في هيكل زيوس الأولمبي الذي تزين أعمدته الكورنتية الفخمة ، حتى وهي محطة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفأها . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيماً ، فضلاً عما بعثه فيها من النشاط رؤيتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفي أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليوناني كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحياه أماننا على إفريز البارثون . وقد أقبل على بلاطه ، بفعل منشآته العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع في قصره مكتبة من أولى المكتبات التي أنشئت في بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

تعرفهما بهما الآن . وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسبيس وغيره من الكتاب بالتمثيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » بيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية النشيطة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسعى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أبدى الملاك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة مؤقتاً مع الطبقات الفقيرة (*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيد قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . ولما لم يكن للفقراء بد من أن يثوروا بين المال والحرية السياسية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تشذب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسييل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فاعلى من يريد لها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى (٨٩) . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان ألقى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء ليجول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيد قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه إجماع إلى جانبه

(*) والكلمة الإنجليزية tyrant أى المستبد أو طاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم قريها Tyrha المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلعة ، ولله ذملة بعيدة باللفظ Tower الإنجليزية (ولفظه بترىس اليونانى) . ويبدو أن أول من وضعه هو جيجيس Gyges ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهاها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع منزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى . وإذا كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث في السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت في الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحث على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء في المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتفق المال بسخاء في تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله في كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها في العمل ، ومن ثم كان الناس حتى في عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغييرات كثيرة لجعل ديمقراطية الأحرار قائمة شكلاً وعملاً .

٥ - قيام الديمقراطية

لما توفي بيسستراتس في عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق في كسب حب أبنائه له . وقد وعد هيباس أن يكون عادلاً عاقلاً في حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن في هذا من الضرر أكثر من تبديد المال في هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذي استقدم أنكريون Anacreon وسمنيدس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابني بيسستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنتهم في كل شيء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليوناني الحقيقي يسير في طريق وعرشائك لاستطال

حكم هيباس الهادئ حتى يصل إلى خاتمة السلمية الطبيعية . وكان أرسوجيتون Aristogeiton وهو رجل كهل قد كسب حب الفتي هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ « في ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس^(٩٠) ، ولكن هباركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يحبوا الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتحب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرسوجيتون بهذا اعتزم أن يقتل هباركس ويعمل في الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه في هذه المؤامرة هرمودوس وغيره من الأثينيين (٥١٤) واغتلوا هباركس وهو يعد العدة لمكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هيباس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن لينا Leana عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقيين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فلإنها قطعت طرف لسانها وبصقته في وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم^(٩١) .

وارتاع هيباس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروع إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكماً طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان في مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلاً كاملاً ، أن يطلبوا الآن ترف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دويّاً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرسوجيتون في خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يحكيان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الديمقراطية^(*) . ورأى الألكيونيون في دلفي الذين نفاهم بيسستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

(*) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاسيس يمثلان هذه الطبقة في رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه . مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيلاس . ورشوا في الوقت نفسه الناطق بلسان الوحى في پيثيا لكى يعلن لكل من يستشيرُه من الاسبارطيين أن من واجب اسبارطة أن تقضى على حكومة الطغيان في أثينة . وقاوم هيلاس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديمونى ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوبجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ، ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، واقتداهم هيلاس بأن قبل النزول عن الحكم والنفى (٥١٠) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليستينز الباسل (*) ، أثينة ظافرين ، وفي أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختبر إسجوراس Isagoras في الانتخابات التى أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليستينز أحد المرشحين المهزمين حرض الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسبارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسبارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليستينز ، الشريف الألكيمونى ، ينشئ حكومة ديمقراطية (٥٠٧) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية - ونعنى بها القبائل الأربع والبطون الثلاثمائة والستين التى كانت تتولى زعامتها ، جرباً على التقاليد التى دامت مئات السنين ، أقدمُ الأمر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليستينز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسماً آخر إقليميًّا جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

(•) وهو حفيد كليستينز طاغية سكيون .

منها من عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطئ ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التي كان يخضعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله إلهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم في القسم الذي يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب في العهود الأرستقراطية التي كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ، وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للديمقراطية التي أضحت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذي قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجي (القواد) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى في قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذي حل الآن مجلس صولون المؤلف من أربعمائة ، وجعلت له السلطات الهامة التي كانت لمجلس الأريو پيجوس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا في المجلس القديم دورتين . وفي هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النبائي استبدل بالمبدأ الأرستقراطي القائم على شرف المحتد ، وبالمبدأ الهلوثقراطي القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتيح لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب في أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذي كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التي تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ، (١٧ - ج ١ - مجلد ٢)

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلساتها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو التيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لا يختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرود من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليستينز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فمن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقرع على نوى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه (*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن النفى لم يكن يلحقه من جرائم عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الديمقراطية لقطع « أطول السنايل » (١٢) . ولم تسمى الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

(*) وقد أنفى نظام كهذا فى أرجوس ، ومجارا ، وسرقوسة .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التي مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به في أثينة إلا في إخراج عشرة أشخاص من أنكا .

ويقال إن كليستينز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا في واقع الأمر لا نعرف تاريخه في آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع في لآلاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر في أثينة دستوراً ديمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الديمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل في ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم يرق قط في تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتباط بهذه المغامرة التي تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وباعتدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية في العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يترعمون بلاد اليونان كلها في الآداب والفنون ، بل في السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

(*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب في المراحل الأولى من الديمقراطية الأمريكية والفرنسية .

هم أنفسهم ، وأن يحبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التي كانت تمثل وحدتهم وسلطانهم ، والتي تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان ؛ ولما همت أعظم إمبراطورية في ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ، نسيت أنها سيقاومها في أنكا رجال يمتلكون الأرض التي يفلحونها ، وسيطرون على الدولة التي تحكمهم . وكان من حسن حظ بلاد اليونان ومن حسن حظ أوروبا أن كليستينز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون باثني عشر عاماً .

الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقد ضحينا في سبيل استكمال قصة اسبارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحدة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونان الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية في بحر إيجه وفي جزائر أيونيان ، وإن هذه هي التي أنشأت في كثير من الحالات المستعمرات التي سنصف حياتها في هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحي بما حدث من انقلاب مربك في سياق الحوادث السوى أعظم شأناً من المدن التي أنشأتها وسبقها في ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التي نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوربين الفاتحين وحاربوا حرب المستبشرين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التي جعلت لهم قبل مرثون بزمان طويل المقام الأول في العالم الغربي ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شيء في تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

في جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متتلاً ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التي أثارت الموجات اليونانية المتتابة التي طغت على جزائر بحر إيجه وعلى السواحل الغربية للقارة الآسيوية كانت غزوات الدورين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الوطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التي بعثت على هذه الهجرة ما في الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ، فكان المغلوبون يختارون النفي من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقى على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا في حرب طروادة فضلوا البقاء في آسية ؛ واستقر غيرهم في جزائر بحر إيجه حباً في المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التي كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التي تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد تلت وأن زوجاتهم قد احتضنن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة في خارج بلادهم (٢) . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصلية ، كما عاد صنوه على أوروبا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان والمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعى ، وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصلية ، ومستودعات حصينة في مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار في آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول Plater : « لعل أروع حوادث التاريخ اليوناني كله وأشدها إثارة للنفس هو استعمارهم في بايئة أمره ! » .

والفنون ، وأساليب الحياة ، والأفكار ؛ من أقوى العوامل في نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات في خمسة خطوط رئيسية — إيولية ، أيونية ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . . وبدأت أقدمها في الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصبيلة ، وهي التي لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبووتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الإيولي . وبدأ الخط الثاني من خطوط الهجرة في البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة الهرقلين » ، واستقر بعضهم في أنكا والبعض الآخر في عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سككليس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا في غرب آسية الصغرى المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الأيوني الاثني عشرى Ionian Dodecapolis . وسار في الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا في جزائر سككليس ، وفتحوا كريت وسيريني ، وأنشأوا حلفاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع في مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروبنتس (بحر مرمرة) والبحر اليكسيني (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التي أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وأسبانيا .

وليس في وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات في سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التي دامت مائة عام ، أو كيف ذلت ، إلا إذا كان عُطوفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين

فى تاريخنا الاستعمارى . لقد كان فى مغادرة الأرض التى خلعت عليها شعائر
القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتى يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج
إلى أصقاع غربية لا تحمىها فى أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان فى
هذا وذلك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم
حفنات التراب من بلادهم الأصلية لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ،
وحملوا فى جد ووقار قديماً من النار من المذابح العامة فى مدافنهم الأولى ليشعلوا
به النار فى مواقع المدن التى أنشأوها فى مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون
مواقع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون
السفن - وهى الموطن الثانى لنصف اليونان - ملجأ يعصمهم من هجمات
الأعداء براً ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلى
تحميها الجبال التى تصد المغيرين من ورائها ، أو على تل يكون حصناً منيعاً
فى داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء فى البحر يحميه لسان بارز
منه ؛ وخير من هذا وذلك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجارى
أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد
لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنعش ويعمها الرخاء عاجلاً
كان ذلك أو آجلاً . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ،
واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم
يكن اليونان فى هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاه نحن
الآن(*) ، فكان الفاتحون فى بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس
الدعوى المضحكة الباطلة التى ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية .
وكان أكثر من هذا حلواً أن يتوود المهاجرون الجدد إلى السكان
الأوليين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لبهم بثقاتهم الراقية ،
ومغازلة نسايتهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون ببقاء
الدم(٣) . وكان فى وسعهم على الدوام أن يجدوا فى مجتمع آلهتهم الكثيرة

إلهاً شبيهاً بإله الموطن الحديد شبيهاً ييسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعتهم أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أهمهم التي هاجروا منها ، والتي لا تنفك قلوبهم تنطوي لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة البضيقة التي كان يطلق عليها هذا الاسم في أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى تراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقي من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود في تاريخ نساء اليونان ، فلسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مما كن في ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التي تفيض جديداً وحيوية وذكاء نشر اليونان في جميع أنحاء أوروبا الجنوبية لمور ذلك الترف المزروع الدال على الخلق والدهاء الذي يطلق عليه اسم الحضارة ، والذي لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثاني

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بحراً من پريس (پرية) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان في يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغوا الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشكران السام حتى يكفي الطعام من يبقى حياً من الناس^(٤) » إذا قبلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوطرخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينثى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ في موطنه الأصل السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمنديس وهو في سن الثلاثين ، ولما مات في عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته في الشعر والغناء هى التى جعلت هپاركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكين بأمرهما معاً في أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع في بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقي حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قبريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش في شبخوخته في بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حداً أمكنه به أن يعقد الصلح في ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Theron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما^(٥) . ويحدثنا أفلوطرخس في مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيخوخة » أن سمنديس ظل يكسب جائزة

الشعر الغنائى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر
أن يموت دفن فى أكرجاس بمظاهر التكريم الخليفة بالملوك .

ولم يكن سمندس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلاً ذا شخصية
عجيبة ، وكان اليونان ينددون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرمًا بالمال
فلذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ،
وحجته فى هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس ؛ ولكن هذه
العادة كانت جديدة فى بلاد اليونان ، وكان أرسطينز يردد غضب الشعب منها ،
ويقول إن سمندس « لا يستنكف أن يذهب إلى البحر فى محفة ليكسب فيه
فلساً^(١) » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار
أخذها عنه شيشرون واعترف بفضلها عليه^(٢) . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم
عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة فى ترتيب
منطقى من نوع ما بحيث يؤدى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان
رجلاً فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة فى جميع مدن اليونان وتداولها
الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال فى شيخوخته إنه كثيراً ما ندم
على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت^(٣) .

وإننا ليدهشنا أن نجد فى القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى
نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكآبة التى كانت طابع الكثير من أدب
اليونان بعد هومر - ونقول بعد هومر لأن الناس فى أيامه كانوا أنشط من أن
يكتبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا تحت
أطباق الرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛
إن الأحزان تأتى فى أعقاب الأحزان طوال حياته القصيرة ثم يدركه آخر الأمر
الموت الذى لا ينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأخيار والأشرار على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالد ؛ وما أصدق قول شاعر طشيوز Chjos : إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكر منهم أحد ، لأن الأمل قوى في صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان في نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر في المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حق من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة^(٩) . ولم يكن يجيش في صدر سمنيدس أمل في جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولبس قد أصبحت كأرباب المسيحية في بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحده هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفي اليوم الثاني استمهله يومين آخرين ، وكان في كل مرة يضاعف المهلة التي يطلبها ليعد فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزداد غموضاً كلما طال تفكيره فيه^(١٠) .

ولم تنجب كيوس سمنيدس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته في الشعر الغنائي ، وأنجبت في أيام الإسكندر الأكبر إراستراتس Erasistratus العالم الكبير في تشريح الأجسام . ولبس في مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفسوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيوس los . وفي سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالى ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أبلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل

حلودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت منيته يبعد عنها ، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أبلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية^(١١) . وفي هذه الجزيرة احتفظت أثينة هي وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يختلط فيه الثنى بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة^(١٢) » ، والتجار الحريصين الدائنين على العمل في حوانيتهم ؛ والجهاهير المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام في المعبد من شعائر وطقوس مهية ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرح والترانيم الجماعية التي تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن للجهان وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التي كانت تمثل في الملاهى في الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون في كل عام بعثة إلى ديلوس تحفل فيها بمولد أبلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم في أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التي انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتي أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائز السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرهما . واشتهرت في الزمن القديم بخمرها وورخامها ، وأثرت في القرن السادس ثراء أمكنها أن تبني لها أسطولا خاصاً بها ، وأن تكون لها مدرسة خاصة للنحت . وإلى الجنوب الشرقى من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذي هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پرکستيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الأدنى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتراة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغمين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شتالاً إلى ثاسيوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة ألقي بدرعه وأطلق ساقه لاربع لأنه وجدها أعود عليه بالفائدة من الدروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكمبىز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضعة ، لها صغيرتان تنوسان على كتفها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن « كل ما يتمناه أن يلمس يدها^(١٢) » . ولكن ليكمبىز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، فقضى على آماله ، فما كان من أركلوكوس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حلة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلاً قلب أركلوكوس حقداً على پاروس فترك « تينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الحرب قتل وهو يحارب النكسين^(١٣) .

وتدلنا قصائده على أنه كان بغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولع بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب^(١٤)

(١٢) يشبه صمنيدس النساء فى أيامه بالنماط والحديد والخنازير ، والبحر المنقلب ، ويهشم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(١٣) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التي ترسم له في مخيلتنا هي صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذى اللفظ الخشن في نثره المصقول في شعره ، يعمد إلى البحر العميق(*) من بحور الشعر ، وهو الذى كانت تصاغ فيه الأغاني الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لازمة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العميق ذو الثلاثة الأوتاد هو الذى كتبت به المأسى اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقيقى(١٥) السداسى الأوتاد والبروق(+) الرباعى الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدداً(++) . وهو الذى أدخل في الشعر اليونانى الأوزان التى احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولنا نجد بدأ من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بلوطنه بعد هومر . وكان هوراس يحب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما سئل أرسطينز البيزنطى الناقد المتأغرق العظيم أى قصائد أركلوكوس أحبها إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد(١٦) » .

وعلى مسيرة باجورة اليوم بالسفينة من باروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيماً استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(٥) البحر العميق Iambic هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا ذبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو ذبرة صوتية . (المترجم)
 (٥٥) البحر الدقيقى هو الذى يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(+) والبروق يتألف كل وتد من أم تاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(++) إذا شاء القارئ أشلة هذه البحور فإنه يجدها في قصيدتي Evangeline

Hiawtha لنج فلر Leaffellow ، وفي مقطوعة Blwo blow, thou winter wind لشكسبير ؛ فالأولى من البحر الدقيقى السداسى الأوتاد والثانية من البروق الرباعى الأوتاد والثالثة من العميق الثلاثى الأوتاد .

عليه في إقامة الخزانة السَّفينة في دلي ، وما فيها من تماثيل النسوة اللاتي يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدنين النفيسين على الأهلين في آخر كل عام (١٧) . وفي عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا في هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة — أى ما يساوى ٦٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس في العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدورى

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سككديس وروضوا طباعهم العسكرية بتلريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرومهم . وفى ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزى استخراج الحجر الزجاجى الطبيعى ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبدلون قصارى جهدهم لكسب معونتها فى كفاحهم مع اسبارطة . وسرى هذا فى الفصول التالية من هذا الكتاب . وفى هذه الجزيرة عثر المنقبون على « أفرديتى ميلوس(*) » وهو الآن أشهر نمثال فى العالم الغربى كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا بجالية منهم استعمرت سيرينى . واستقر عدد قليل منهم فى قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار بجمليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفرديتى نحتة هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهبه الحياة ، فلما أجابته رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده^(١٨) . والراجع أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلىن الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين لهاها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(*) أوفثونس (زهرة) مملوكا يعرفها الفرييون باسمها المشتق من اسم الإلهة اثرومان واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف المجدية كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، في العصر اليوناني خليطاً من آثار الفن المصري والفينيقي واليوناني ، ولم يكن له في يوم من الأيام طابع واحد خاص به (*) .

ولم يكن اللوريون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما في رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء في القرون التي بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا في العصر الذي اضطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون اللوريون على لسان في البحر بارز من قارة آسية مدينة نيلوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أضحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفي هذه المدينة ولد في مستقبل الأيام بودكسس Eudoxus الفلكي وتيسياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وسستراتس Sostratus الذي بنى في مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمر الأمم الجزيرة المحفوظ في المتحف البريطاني .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقرط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليوناني ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أبلير Apelles الرسام وثيريكتوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكرنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت في أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكاري وحبيته أرتيميا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكبرس ، وبليس) المدائن الست الدورية في آسية الصغرى وهي التي قامت تنافس إلى جين مدائن أيونيا الاثنتي عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٢ من مجموعة العاديات القبرصية لسنولا Cesnola في المتحف الفن بمتروبولك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليز في عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة بفنتين اصطاحوا بفضلها أن يحلوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم وللعالم أنها لغة من اللغات اليونانية تكتب برمز مقطوعة . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تفض شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

١ - ميليتس والموطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربي من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلي جبلي يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف في الزمن القديم باسم أيونيا . ويصفه هيرودوت بقوله « إن هواه ومناخه أجل هواه ومناخ في العالم كله » (١٩) . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط . منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهي أبعد المدن الاثنتي عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليوناني كله في القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة في موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوي ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالي ١٠٠٠ ق . م ، وجدوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت في صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخلوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكشفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل (٢٠) . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، في أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها في الحرب ، ثم خصصت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى ذروتيهما في عهد الطاغية ثراسيبولوس Thrasybulus في بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثمر رخاوتها المطرد أدباً وفلسفة وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلا الغنية في الداخل وينسج ملابس في مصانع النسيج القائمة في المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها في مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروبنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلمهم في هذا المجال فكان ميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها في الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أيلدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوب ، وألبيا Olbia ، وتراپيزوس Trapezus ، ودبوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعات اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعبّر بهما المدينة في بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات في طول البلاد وعرضها وفي المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشى في عصر النهضة الأيونية .

وفي هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهني أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التي امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله — نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، ففاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقي السليم . وقد تلاقى في ميليتس كما تلاقى في أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلي بعثه التنافس التجاري ، وقد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية

وعلم الفلك البابلي العقل اليوناني ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها في وقت واحد . وكان الثراء في هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ، ونشأت في البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكري لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة في المدينة . ولم يكن يُضَيَّق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد المومرية التي أمست فيها بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائي المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيوني والمرح المحوئي . ومن ثم أصبح التفكير في هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير ديني يسمى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يحير العقول من مسائل العالم والناس^(٥) .

على أن الفرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الفرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية الطيبة التي كانت من خصائص التجار الفيزيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبيين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليفة المجسدة التي صاغها هزبود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن موربا moria أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم في الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذي يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهي الفكرة التي تدل على الفرق الجوهرى بين العلم والأساطير ، وبين الاستبداد والديمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التي جعلت اليونان ذوى خطر في

(٥) وقد ظهرت حركات دينية بهذه الحركة في الهند والصين في هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعهم فيه إلى أعلى مكانة ، هي أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه في البحث الفلسفي وفي اختيار الحكم الذي يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أى بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبي ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هي التي تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر ديني قوي . وقد كان في الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعي النزعة ظاهر والثاني تيار صوفي غامض . وقد نشأ الثاني من عهد فيثاغورس ، وشمل پرمنديس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلنتيس Cleanthes وانتهى ببلنتينوس Blontinus والقديس بولس ، وأما الثاني فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكرنوفانيس Xenophanes ، وپرونجراس ، وهقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم - كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس - فيمزج التيارين في مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التي لا تنطبق على قانون . على أن النغمة الغالبة في هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هي حب اتباع العقل ، وهي النغمة التي يمتاز بها التفكير اليوناني .

ولد طاليس حوالي ٦٤٠ ق . م وأكبر الظن أنه ولد في ميلينس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين^(٢١) ، وتلقى معظم تعليمه في مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذي أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته في معاصر الزيت^(٢٢) . ثم صرف باقي

(٥) وهامى ذي القصة حل لسان أرسطو نفسه ، يقولون إن طاليس أدرك بهارته في علم النجوم (انظر) أن محمول الزيتون سيكون موفوراً في ذلك العام فاستأجر في الشتاء =

وقته في الدرس وانهمك فيه انهماكا توحى به قصة سقوطه في حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزلته يهتم بشئون المدنية ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس (٢٣)

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والملكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو في مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها في الساعة التي يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أيونيا واصل دراسة الهندسة النظرية التي خلبت له بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمي ، وشرح كثير من النظريات التي جمعها إقليدس فيما بعد (*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذي قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعلم الفلك الأساس الذي قام عليه هذا العلم في الحضارة الغربية ، بعد أن خلاصه من التنجيم الذي أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أيونيا بأجمعها حين أفلح في التنبؤ بخسوف الشمس في الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م ١٢٥ ، والراجع أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته في نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

قبل أن يحين موعد جنيهِ جميع معاصر الزيت في ميليتس وطشيوز بإيجار منخفض لأنه لم يجد وقتئذ أحداً ينافسه . ولما حل موعد عصر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجراها لهم بالشروط التي يرتضيها ، وجمع بهذه الطريقة أموالاً طائلة وأثبت لهم أن من اليسر حل الفلاسفة أن يفتنوا إذا شاموا .

(*) وهي : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوي الساقين متشابهتان (يقصده متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتان ؛ وأن المثلثين يتساويان إذا تساوت في أحدهما زاويتان ووصل بنظائرها في المثلث الثاني (٢٤) .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يتركز على منبسط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستو طاف على السطح المستوي في داخل هذا الجسم النصف الكروي . ويذكرنا هذا بقول جيته Goethe إن الإنسان يشترك في رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه يتفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلائق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلي ومصدرها النهائي . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأي بعد أن شاهد أن غذاء كل شيء رطب وأن ... بدور كل شيء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شيء هو دائماً مبدؤها الأساسي^(٢٧) . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث - الغازية والسائلة والصلبة - التي يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما في آرائه قوله إن الماء أصل كل شيء ، بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول بوحدة المادة في التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء في العالم حي ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأها عن الآخر ، وأن في النباتات والمعادن « نفساً » خالدة كما في الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً^(٢٨) . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهري بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما »^(٢٩) .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعترمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طاليس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذى جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ما ليس له بداية ولا نهاية » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عبثة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله »^(٢٠) . ويقول ديوجينيز ليرتيوس Diogenes Laertius^(٢١) : إنه مات « وهو يشاهد مباراة فى الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظما والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون^(٢٢) . إن طاليس كان من كتب فى الفيزيولوجيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيماً على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شياً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطين . ويقول أنكسندر إن المبدأ الأول كان لا نهائياً غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة^(*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإليتيّة Elastic فيما وراء الطبيعة — وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجسدية فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإلها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شئ، تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ، إلى التباين المترابط المحدد^(٢٣) .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى اللانهاية الأزلية على جميع الأضداد — الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح فى حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفى حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهاية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسينسر آراءهما) . وفى قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويمتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء فى الأشياء التى ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التى يمكن أن تغتفر فى عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شيء فى وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء^(٢٤) . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك فى دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع فى اسطوانة مزولة (gnomon) — وأكبر الظن أنه قلد فيها نماذج بابلية — أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول^(٢٥) . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكاتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علماً ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور(**) .

ويقول أنكسمندر إن الدنيا فى أول صورة لها كانت فى حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضاً ، وبخرت بعضها فكان صحاباً ؛

(*) ودائرة فلك البروج هى الدائرة الكبرى التى تدور فيها الشمس فى حركتها الظاهرية السنوية فى السماء . وإذا كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣°) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضى ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة محدودة .

وإن اختلاف الحرارة في جوها الذى تكون بهذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ، وكانت الحيوانات الأرضية في بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التي هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك^(٢٦)

وكان أنكسيمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأناً ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالي الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله^(٢٧) تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، وتجد لها عاصماً في الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ المليون في بلاد اليونان كلها^(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعي في شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى قوى الطبيعة في الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنّب تجسيد القوى ومنحها روحاً ، كما أن أصعب الأشياء على هذا التجسيد وذاك المنح أن يتجنبنا الشعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التي تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نفوج الأمة والشاهد على انقضاء عهد

(*) حل القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف بعد كلمتى أقدم وأول وأشأطاً .

شبابها . وقد ظل الأدب اليوناني كله تقريباً إلى العصر الذي نتحدث عنه (٦٠٠ ق . م) ، ونقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثراً ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زنوفانيز ، وهرميدس ، وأنبدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفي ثوباً شعرياً ؛ وكما أن العلم كان في بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة في أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسيد القوى ومنحها روحاً ، ومن التشايبه والاستعارات(*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة في تاريخ العلم أن يشرح فرسيدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما في ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدموا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لميليتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لباموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً لليديا . وفي أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus الميليقي بالتاريخ والجغرافية رقباً عظيماً في كتابين يعدان فتحاً جديداً في هذين العلمين هما المسترياي Historiai أو البحوث والحس پريودوس Qes Periodos أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثاني الكوكب الأرضي قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقية ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيروdot على الكثير منها دون أن يعترف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إني أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان في نظري كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أقوال هومر تاريخاً وأخذ منها

(*) للكاتب الإنجليزي لورد مكرول بحث طريف في هذا الموضوع تضمنت مقالته من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحقة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ اليونان يمكن الركون إليه . وجملة القول أن كتابة التاريخ اليوناني كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهرُوا في هذا العصر في معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ في أيونيا معنى يثير الريبة في نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأبطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفسير عقلية لعل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليوناني قبل هيرودوت بهزيمة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وفقرها في العصر الذي بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة في مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الثرف سبباً في انغماس الناس في الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية في نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التي يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليديون شجعاناً في يوم من الأيام » (٢٨) . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طبيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قوته على تخفيف النزاع بين الطبقات بين مبادئ الرحمة والعدالة في

(*) وهى مشتقة من *histor* أو *istor* ومعناها عارف ، وهى تهيىء فى النطق لكلمة *id-ter* المأخوذة من *id* فى *eidemael* بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة *wit* الإنجليزية فى *wisdom* . وكلمة *Story* اختصا لكلمة *history* .

نفوس الأقوياء والسلوى في نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورية الأبحاركية حزباً متحداً يقف في وجه الفقراء المطالبين بالديمقراطية ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطرّدوا الأغنياء من البلاد ، وجعوا من بقي من أبناء الأغنياء في أماكن الدّراس ، وأطلقوا عليهم الثيران فداسّتهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلّوا جلود زعماء الديمقراطية بالقار وأحرقوهم . أحياء^(٣٩) ؛ وستقال هنا هذه القصة في مستقبل الأيام . ولما شرع كروميس في عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم ليديا ساحل آسية الصغرى اليوناني الممتد من نيدس إلى الملسينت (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانية . ولكن قورش فتح ليديا في عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبيرة في الاستيلاء على مدن أيونيا التي مزقتها الانقسامات الداخلية ، وضمها إلى الدولة الفارسية ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجيد . إن العلم والفلسفة في تاريخ الدول يصلان إلى غايتيهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ - بوليكراتيز الساموسى

على شاطئ الخليج في مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر الميندر Maender كانت تقوم بلدة مبوس المتواضعة أشهر مدائن البرينى Priene ، وكان يسكنها في القرن السادس بياس Bias أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرمبوس Hermippus يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختلفوا في أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التي وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ؛ وبياس ، وبتيكوس Pittacus الميليئى ، وهريندر الكورنثى ، وشيلون Chilon الأسبارطى ، وكليوبولوس Cleobolus اللندى (Lindus) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين ، وكما عظمت إيطاليا في عهد النهضة العبقريّة الفنيّة ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكمائهم هم أصحاب النظريات العلمية ، بل كانوا رجالاً جعلوا لحكمتهم عملاً جدياً نشيطاً في العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكماً وأمثالاً يتناقلها اليونان ، وكانت في بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أبولو في دلفي . فقد كان الناس مثلاً مولعين بتريد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلاً أو قصيراً ، وإن الحكمة يجب أن يعتز بها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أبهى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان (١٠) .

وإلى غرب يربني تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا في الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبي الشرقي ، وكان الإنسان إذا ما دخل مرفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التي يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشهده الأرصفة والحوانيت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ، ثم حصنها القائم على الربوة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومنهم وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظرًا يثير الحماسة الوطنية في قلب كل ساموسي .

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها في الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم بوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذي تدره عليه رسوم الميناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق في جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفي

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان في الرياضة والمهندسة إذا عرفنا أن التقين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا في وسط التقى ، وأن الخطأ في تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمانى عشرة قدماً في الاتجاه وعلى تسع أقدام في الارتفاع (١٠)(١١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبل بوليكراتيز بزم طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبداً فرجياً للادمون Lodmon اليونانى . ونقول إحدى الروايات التى لم تؤيد بعد إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش في بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التى كلفه كروسس بتوزيعها في دلتى ، وإنه لقي حظه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالم (١٢) . وكانت خرافاته التى أخذ معظمها من مصادر شرقية منشورة بين الأثينيين في عصر بلادهم الأدبى . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً (١٣) ، وإن ما فيها من فلسفة فلسفة يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها مصوغة في قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ، والأرض والبحر ، والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هذه فخوف وألم » (١٤) ، وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا تزال حتى الآن نلتقى به في الثابتكان حيث نراه على كوب من عصر بركابر ذى رأس أصاب الصلع نصفه ولحية كلحية فاندليك Vandyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له قصة ذات فائدة له (١٥)

وفى ساموس ولد فيثاغورس العظيم ، ولكنه غادرها في عام ٥٢٩ لمعيشى في كروثونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى بمحاسن بوليكراتيز ويربى له ابنه ، وكانت أعظم شخصية في بلاد بوليكراتيز هى شخصية الفنان ثيودوس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزد الخطأ عند التقاء التقين في هذه الايام على بضع بوصات ، وقد لا يكدن تمة خطأ على الإطلاق .

طرفاً من كل شيء . ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان - ولعلمهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب - اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والمخرطة^(٤٦) . وكان ماهراً في الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك في تصميم المعبد الثاني لأرتيميس في إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة في اسبارطة ، وساعد على إدخال التماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المخوف من مصر أو من آشور إلى ساموس^(٤٧) . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بثبيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب^(٤٨) ، أما في أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربى في دلفى وقاذف القرص في ميرون . واشتهرت ساموس فضلاً عن هذا بفخارها ؛ ويثنى بلنى على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبل لم يكرنوا يستخدمون غير شقافة ساموس في حرمان أنفسهم من رجولتهم^(٤٩) .

٣ - هرقليطس الإفسوسى

وعلى الجانب الثانى المقابل لساموس من خليج كايشتر كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أبونيا ، وقد أنشأها حوالى عام ١٠٠٠ ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهري كايشتر وميندر سيباً في رخاء المدينة . وكان في أصلها ، وفي دينها ، وفنها ، عنصر شرقى واضح . وكانت أرتيمز التى تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمم والحصوبة . وقد حدثت في هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون في عددهم عن ماتو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوالى عام ٦٠٠ ق . م في موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيرنى . وشيد الهيكل الثانى حوالى عام ٥٤٠ وقدم كروسس جزءاً كبيراً من المال الذى أنفق فى تشييده ، واشترك فى تصميمه بيونيوس الإفسوسى وثيودورس الساموسى ، ودمتريوس أحد كهنة الضريح . وكان أكبر هيكل يونانى أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان بعد بلا نزاع من بين عجائب الدنيا السبع^(٥٠) . ولم تشتهر المدينة بهياكلها وحدها ، بل اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبنسائها ذوات الجلايب الغالية^(٥١) . وعاش فيها فى ذلك الزمن البعيد أى حوالى ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus أول من نعرف من شعراء المراتى فى بلاد اليونان . وكان أعظم منه قلراً وأقبح منه منظراً هبوناكس Hipponax الذى ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة فى موضوعها ، غامضة فى ألفاظها ، لاذعة فى فكاهتها ، دقيقة فى وزنها الشعرى ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية فى قبح المنظر . ويقول فى بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة للرجل فى يومين - « أحدهما يوم يتزوجها ، والثانى يوم يلعنها^(٥٢) » . وكان هجاء قاسياً هجا كل عظيم فى إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل ، ولما عرض المثلان بوبالوس Bupalus وأثينيس Athenis رسماً له مضحكاً لطيفاً ، هجأهما فى شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حداً جعله أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هو هرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

(٥٠) وكانت العجائب الست الأخرى هى حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ، وتمثال رودس الضخم ، وزيرىس فيدياس فى أولمبيا ، وقبر موسولس فى هليكرنيس ، وأهرام مصر . ويصف باني الهيكل الثانى بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً فى الطول ، ٢٢٥ قدماً فى العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً - وكان بعضها مزداناً أوشوهاً بالنقوش^(٥١) . وقد تم بناء هذا الهيكل فى عام ٥٢٠ ق . م بعد كنج دام قرناً كاملاً ، ثم احترق وتهدم فى عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد في عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الديمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله في هذا المعنى (١١١*) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » و « عندي أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبوه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب في هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هي : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأفاد هزبود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتبوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحققة الوحيدة هي معرفة الفكرة التي تسيطر بنفسها على كل شيء في جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش في شعاب الجبال ، ويجعل العقل في الفكرة الوحيدة التي يستطيع بها أن يفسر كل شيء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره في ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب في غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه في أمثال جامعة غامضة في الطبيعة ، أودعها هيكل أرنيمز لتحرير عقول الخلف .

وقد صور هرقليطس في الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقي من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن الوجود المستتر وراء الكثرة ، وعن وحدة تثبت العقول ، ونظام بين ما في العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال في هذا المعنى قولاً لا يقل قوة وحساسية عن قول برميندز Parmenidez (١) « إن الأشياء كلها وحدة » ، والمشكلة التي تواجهها الفلسفة هي أن تعرف ما هي هذه الوحدة . وقد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التي بين الأقواس إلى الباقي من أقوال هرقليطس كما رقمها هـي ووتر

هى النار . ولعله كان فى هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالاً رمزياً وحرافياً معاً ، ويقصده به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله فى معنى واحد . على أننا ليس فى وسعنا أن نقطع برأى فى هذا بالاستناد إلى القليل الباقى من فلسفته . انظر مثلاً إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شيء صورة من صور النار ، فهو إما فى « طريق » النار « إلى أسفل » فى تكثفها المتتابع إلى رطوبة ، فناء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة (*) ، إلى النار (٥٤) .

ومما يضايق هرقليطس فى النار الخالدة أنها تبدل تبديلاً لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثانى الذى يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده فى كل شيء » ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً فى الكون أو فى العقل أو فى النفس ؛ فلا شيء كائن بل

(•) وربما كان فى عقل هرقليطس شيء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتى : يبدأ العالم فاراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التى فى الأرض (٥٥) ، والماء والأرض (أى السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، والنار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أى انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل - . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يمتنع (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان فى دورة دائية من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون فى طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق للتكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كانت ورامها . وقد هيراسهونزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هى المادة الخالدة الموجودة فى كل مكان أو هى المبدأ الأساسى . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هى الأفعال الظاهرة فى العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى في أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائم على الخروج عن حاله التي هرعابها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلقى من هرقليطس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما ينتصر طاليس) على السؤال عن مادية الأشياء في حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشيوس ، واسفسر عن الطريقة التي أدت بها إلى ما هي عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هي خير طريقة تعرف بها الأولى . ولسنا نجد فيما بقي لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei,ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليطس^(٥٦) : « إنك لا تستطيع أن تخطو خطوتين في نهر واحد ، لأن مياهها أخرى لا تنفك تجري إليك (٤١) » . « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل في ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكيونة ؛ والتعدد حقيقة لا تقل في ذلك عن الوحدة^(٥٧) . فالتكثرة هي الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هي الكثرة ، وفي قلب النار نفسها يخفق التغير الذي لا يستقر أبداً^(٥٨) .

ومن هنا ينتقل هرقليطس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته - وهو وحدة الأضداد ، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض ، واتلاف الزراع . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلام ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخير والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر ، (٥٧-٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة » (٧٨) لأن هذه

(٥٨) هل القارىء أن يذكر هل الدوام أن هرقليطس هو الفيلسوف الأناضلي !

الأضداد كلها مراحل في حركة متقلبة ، ولحظات في النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد في الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هي توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدةها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفسه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرامى وتوتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شددته أحدث التآلف في الذبذبة الذي نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تآلف الحياة والتغير ومعناها . وفي النزاع القائم بين كائن حي وكائن حي ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هي اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التي تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة واتفاقه الخبوء . وأجل التطابق ما كان بين الأشياء التي تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى بخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها - النار والتغير ووحدة التوتر في الأضداد - تدخل كلها في فكرة هرقليطس عن الروح والله . وهو يسخر من الذين « يسعون عبثاً ليظهروا أنفسهم من خفايا الدم بتدنيس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا - ولا فرق بين من يفعل هذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحقّة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شيء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء في الليل » (٧٧) . والإنسان في هذه الحالة نفسها ، نار ؛ والنفس ، أو المبدأ الحيوي في الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة في الأشياء جميعها ؛ وهي بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت والميلاد تنمطان حددهما العقل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفياً ؛ ولكنهما من وجهة نظر الكون الزمنية الحالية من التحيزات لا نعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التي لا تقف عند حد ؛ ففي كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويميش الكل ، وفي كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وألفاظنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقنا نفسها ، نزعات وأهواء ، وتمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية في ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ، فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التي لا تنفنى أبداً . وهو الوحدة التي تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعاني في كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كليهما توجد في كل مكان ، وهما شيء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على ساء التغير ، ولا تفتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتي يوم بعيد « تحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، في يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعاً ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علماً أو عقلاً أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبتنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمى ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التي هي الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إلى بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبحثوا عن العقل اللانهائى للكل وتبعوه .

وحين يطبق هرقليطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره - الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد - وعقل الكل - ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقرنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ « وفي التغير يجد الإنسان الراحة » ، والإنسان يمل الكدح الدائم في الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد » (٧٢ - ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولاً يمكن فهمه وغفرانه . « ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حاوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة » (١٠٤) . وهو يابوم الذين يرغبون في القضاء على ما في العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تألف ، ولا نسج نسج حتى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى يفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شئ ومليك كل شئ ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالاً ؛ وجعل البعض عبيداً ، والبعض أحراراً (٤٤) . وفي النهاية يكون التنازع هو « العدالة » (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكون محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقليطس في جملتها ، كما تجمعها لنا الآن مائة وثلاثون جملًا متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة في اللاهوت المسيحي هي الكلمة الإلهية ،
أو الحكمة المجسدة التي يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه
الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعي في الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت
الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد
انتعاشاً قوياً في فلسفة هيجل ، واستردت فكرة التغير في فلسفة برجسز
Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح
المحددة لجميع الأشياء ، في فلسفة دارون ، واسبنسر ، ونتشه - وقد واصل
آخرهم حرب هرقليلس ضد الديمقراطية بعد أربعة وعشرين قرناً .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقليلس ؛ ولا نعرف عن موته
إلا قصة لا سند لها رواها ديوجنيس ليرتس توضح لنا ما قد تنتهي إليه حياة
النواذب الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى
وقته يضرب في الجبال يقات بالمشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء
الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن
يحدثوا الجفاف بعد الجوع الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه في حظيرة
ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تتبخر منه بما يحدثه هذا
الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من
العمر سبعين عاماً ٥٨ .

٤ - أنكريون التتومى

تقوم كاوفون Colophon على مسيرة بضعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها
مأخوذ من اسم التل الذي تقوم على جانبه (*) وقد ولد فيها حوالى ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kolophon اليوناني ومعناه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill
لما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم على قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة =

زنوفانيز الذى كان يبعض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصففة المضمخة بالزيت العطرة الغالية » ، إن للزهو بلا شك تاريخاً طويلاً^(٦٠) . وكان الشاعر ميمرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى فى هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً فى أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشاب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التى كانت توقع أغانيه على نغمت الناي الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها فى قصيدة من الشعر الرثائى العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلهب ، وفى مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك فى يدها عمراً واحداً محزناً وموتاً واحداً^(٦١) » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش فى مدينة تنوس القريبة من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد فى أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش فى بلاطهم لأنه لم يكن يتنافسه فى بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيلس وحده . ونشده منضمّاً إلى جماعة من المهاجرين إلى أبдера Abdera فى تراقية ، وينخرط فى سلك الجندية ، ويحارب فى سلسلة أو سلسلتين من المعارك . ثم يترك درعه فى الميدان كما كان يفعل الشعراء فى زمانه ، ولا يستل بعدئذ إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين فى بلاط بوليكراتيس فى ساموس ؛ وجيء به من هناك فى موكب رسمى فخم ، ليزدان به قصر هيباركس فى أثينة ، ثم عاد آخر

— Kolophon فى اللغة اليونانية مراعاة لعبارة الضربة القاضية ؛ ولما انتقلت إلى اللغة الإنجليزية أصبحت رمزاً لناشرين كانوا يسمونها أولاً فى نهاية الكتاب .

الأمر إلى تنوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه القناء في شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه في ملذاته أن عمر طويلاً حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ؛ وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنب في حلقه (٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكربون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هي الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف يصوغه في البحر العبدى (iambic) الخفيف ه وأيا كان الموضوع الذى يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بذنباً أو غليظاً لأنه يصوغه في ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكربون مثل هوناكس ذا ألفاظ بذينة حادة ، أو مثل سافو في شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثروته الملهذة الرقيقة على من يشترها ، ويمتدح كل ملك يعجبه ويتنازع له خمره . ويظن أنديوس أن أغانيه الحمرية ، وتغلبه في عشقه ، كانت كلها تصنعاً (٦٣) ؛ ولعل أنكربون كان يخفى وفاءه لكى يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفى اعتداله في الشراب ليزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو ثمل طفلاً صغيراً فأنهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب في شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيّل له المدح (٦٤) . وكان لا يفرق في عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الحسنين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء في بعض ما بقى لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشعر الذهبى يضربنى بكرته الأرجوانية ، ويدعونى لكى ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددى الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشائخة ، ولا يعجبها شعرى الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى (٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذى عاش بعد عصره قبرة تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أبني وطولي فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب التمل صديق الشراب الصافي ، الذي كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نفثات العود أغاني حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب التمل أن يعث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملء مثقل ، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذي لم يكن شذاه الذكي إلا أنفاساً تخرج من فم الرقيق حين كبر^(٦٦) .

٥ - طشيوز ، أزمر ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الأصلية من تنوس نحو الغرب في خلجان ونتوءات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر في البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios^(*) . وليس بعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه في هذه الجزيرة بين غياض التين والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر لخم من الصناعات الكبرى في طشيوز ، وكان يشغل به عدد كبير من الرقيق ؛ فقد كانت الجزيرة في عام ٤٣١ تضم ٣٠,٠٠٠ من الأحرار ، ١٠٠,٠٠٠ من الأرقاء^(٦٧) ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النخاسون يتناعون من الدائنين أبناء من عجزوا عن للوفاء بديونهم ، ويتناعون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون في قصور ليديا وفارس^(٦٨) .

وفي القرن السادس تار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التي أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم ؛ كان منبع في الجبال وفرض الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أموالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(٥) هنا هو الاسم التركي لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

حينئذ (٥) في هذه الأيام ، وأرغمهم يجبرونه على أن يعاملوا عييدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقُطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى للجماعة من أصدقائه حتى يمتحن لهم أن يطالبوا بالمكافأة التي وعد بها من يأتي به ، وظل مئات من الستين بعد موته بعد نصير الأرقاء والإله الحامي لم (٦) ، وتلك حياة ما أجدرها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثورى مثل حياة اسبارتكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرق في طشيوز . وكانت الجزيرة مركز المومرين وهم رابطة من الشعراء المتتابعين ، وفيها ولد أيون Ion الكاتب المسرحي ، وتيويووس Theopompus المؤرخ . وهنا كشف جلوكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالي ٥٦٠ صناعة طرق الحديد الحمى ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولده بوبالوس وأثنيس أجمل ما صنع من التماثيل في القرن السادس في بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع لإريثرا Erythra وكلازوميني Clazomenae - مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم بركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التي استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م (٧) ، ثم استحال بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة في أيام أخيل ، وقد بهبها أليآتس Atyattes الليسدي حوالي عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مرلوا ، كان آخرها في عام ١٩٢٤ م على أيلس اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق في قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاعت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء (٨) . ويدل ما بقي من مباني المدينة القديمة على ثرائها

(٥) يريد في أم يكا .

(٥٥) إن اسم المدينة القديم أزميرنا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان في أغلب الفطن بتجارة القطن . وهي ثاني مدينة في تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة في آسيا الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف في أرضها عن ملعب رياضي ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينا الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسي ، المعروف بالذهبي ، مشهوراً ذائع الصيت في بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالاً مدينة فوقية ، Phocaea ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هذا الاتصال مزية عظيمة في تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانية إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هي مدائن أيونيا الاثنتا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأننا نطوف بها في رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق في المصالح ، وكانوا يجتمعون في مراسم معينة في ميكالي Mycale ، الأكمة الممتدة في البحر عند پرين Prien ، في عيد جميع الأيونيين Panionium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤلفوا منهم جامعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً في مدينته وفي الاتحاد الأيوني ، ولكن التنافس التجاري كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه يدل أن يودى إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ — ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلاً للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث في نفوس الجماعات
الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الحرية .

وتلك هي الظروف التي نمت فيها في أيونيا العلوم ، والفلسفة ،
والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها في الوقت نفسه
الشعراء الكثيرون الذين جعلوا القرن السادس في هيلاس يبدو خصيباً
كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة
التي حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان
جميعها .



الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفى أهل المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها فى التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة ، والرقى ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متلبى أكبر مداتها الخمس ، وكانت تجارتها سبباً فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس ، وساموس ، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع ، وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Bitacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف ياتَمرون ليستعبدوا سلطانهم ، ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ، ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولاً من متلبى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس ثائراً صحابياً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائده ماثراً للفتنة والثورة . وكان شريف المحدث ، وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفي من البلاد . وقد صطّح هو وبحوره الشعرية التى أسماها من جاموا بعده « ألفيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت فى الحرب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما
سئحت له الفرصة التي كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ،
وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمدح نفسه لحصافته الباسلة .
وفد غنى أحياناً في الحب ، ولكن أحب الموضوعات التي كتب فيها إلى
نفسه كان موضوع الخمر التي اشتهرت بها لسبوس شهرتها في الشعر . وهو
يتصحنا بأن نعب الخمر عماً ، وأن ننقع بها غليلنا في الصيف ، وأن
نستقبل بها الموت بلا رهبة في الخريف ، وأن ندقّ بها دماءنا في الشتاء ،
ونحتفل بها يبعث الطبيعة في الربيع .

يزل مطر زيوس ، وفي السموات العلا تثور العاصفة ،
ومعك البرد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن قم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية —
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولقاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التي تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالاً بأي حال ؛
أما خبر دواء لنا
فهو الخمر نظرد بها لأفكار (٧٣) (٥)

ولقد كان من سوء حظه — وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصلو
رحب ولم يلق بالآلها — أن كان بين معاصريه امرأة هي أشهر نساء اليونان
أجمعين ، ونعى بها سافرو . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة في مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Excestidez ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغاني سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « لئى أريد أن أتعلّمها ثم أموت » (٧٣) . وكان سقراط — ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه — يسميها « الجميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربّات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة ! (٧٤) .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ، لأنى لا أعرف أن قد وجدت فى جميع العصور التى وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر » (٧٥) . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت بسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، فى إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أسرتها انتقلت إلى مثلىنى وهى لا تزال فى المهد . وكانت فى عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمروا ببثاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ، ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، ويقول الشعر . ولم تشتهر بجياله ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان (٧٦) ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تحق رقها وحنانها . ومما قالته هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل » (٧٧) ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس « كانت تمتاز باللهب » (٧٨) ؛ وكانت مرهفة الحس إلى حد ما ، وكان هذا سبباً في الحد من حماسة عقلها . وقد وصفها أئيس تلميذها المقرب إليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها بالزهر ؛ وما من شك في أن قوامها التحيل قد أكسبها ملاحظة وجاذبية ، وشاهد ذلك أن لفيوس الذي نقي معها إلى پيرا أرسل إليها مسرعاً رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفل ، يا طاهرة ، يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك في أمر ولكن الحياء يمنعني أن أنطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لو كانت رغباتك طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو ذئب ، لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة » (٧٩) . وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها في قصائده وأناشيده ، ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة قد عقدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد افترقا حين نفيت سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيا أن يتاكوس قد خشي قلمها بعد نزوجه فنفاها في هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك في أغلب الظن عام ٥٩١ ، وهي في سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً . وقد تزوجت حوالي ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ، وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عيني ، التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة » (٨٠) . وما من شك في أنها كان في وسعها أن ترفض ما في ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت في منفاهها خمس سنين ، وأصبحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية في الجزيرة . ولما نللمح بهرج الترف في إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن في علمكم أنى أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال مما تشبه الشمس » (٨١) . وأصبحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت
أشد الغضب حين شغف في إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى
دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط (٨٢) .
وفي هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل في قلبها . ذلك أن
نفسها تاقّت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمن فيها
الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هي أولى « مدارس صقل » الفتيات في
التاريخ كله : ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسمين
الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط
الجنسى الشاذ . وأحبت سافو - وكانت وقتئذ أرملة - هاته الفتيات واحدة
بعد واحدة . وقد قالت في إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز
الحب قلبي كما تهز الريح القوية أشجار البلوط (٨٣) » . وتقول في إحدى
القطع الأخرى : « لقد أحبتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت
أنوثتي كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن
تقبلت أثيس حب شاب من مثليتي ، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تملو
فيها قوة العاطفة في قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء
جون أدنجن منمنس في شعر من البحر السافي :

لأنه ليبدو لي هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذي يجلس
ويراك بعينه أمامه . فهو يجلس بالقرب منك ويستمتع إليك وهو معقود
اللسان تتحدثين حديثك الفضي وتضحكين ضحك الحبيب في غير صوت
عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفي لأن يثير قلبي المكوم في صدري
ويبعثه على الاضطراب ! لأنني إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتي من
فوري ، وانقدت لساني ، وسرت في ضلوعي نار قلبي يسمع من حولي
حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتطن في أذني أمواج من
الصوت عالية ، ويتصبب جسمي عرقاً فيجري أنهاراً ، وترنحف جميع
أعضائي ، ويصبح لوني أكثر اصفراراً من لون الكلا في الخريف ، وتتناهى

آلام الموت المترصد لى فأضطرب وأضل فى سكرات (*) الحب (٨٤) .
وأخرج والدنا أنيس ابنتهما من المدرسة ، ولدنا رسالة تعزى إلى سافو
نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أنيس ؟) بكاء مرأ لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أنسى
حقلنا ، وأقسم لك يا سافا أن فراقى لياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها :
« سبرى فى طريقك منشحة الصدر ، ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى
بك . فإذا لم تذكرينى ، فلانى سأذكرك بما تنسين ، ألا ما أعز وأجل الأيام
التي قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غداثك المتهاوجة بتيجان القرنفل
والورد الجميل وأنت إلى جانبي ، وتزينين جيلك الرقيق بعقود مجدولة من
مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليفة بالملوك دهنت لإهابك
الأيض النضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع
مقدس ، أو غدير ماء لم تذهب إليه ، ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير
الربيع غابة من الغابات بسجع العنديل إلا ذهبت إليه معى (٨٥) » .

وثأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن
أرى أنيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هذا وبين الموت » . إن هذا
بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال
ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم
واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللسبوسى » أو أنها لم تكن
إلا تلرياً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكننا لا شأن لنا بهذا

(*) ولقد ترك لئاسونيرن مثلاً من هذا البحر غيراً ما تركه جون أدنجن سنندس
ووصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads
مطلماً : لم يطرق جفونى الكرى طول الليل .

الجلد ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالمعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال في لفظه ومبناه . وفي قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهرة » ، وفي قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعذاب المر - الحلو » وتُشَبَّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتي سها عنها الجاني ، لا لم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها^(٨٦) » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحنَت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها مئاة يندر أن تكون متتالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية ورومة بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً^(٨٧) ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعة من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتهم نطع من كتب قديمة ؛ وجدت عليها بعض قصائد سافو^(٨٨) .

وقد ثار ذكور الأجيال التالية لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas^(٨٩) تروى كيف قفزت « العاهر سافو » - وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة - من فوق صخرة فى جزيرة لوكاس Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار قاوون لم يستجب لحبها . ويشير مناندر ، واسترابون . وغيرهما من الكتاب إلى هذه القصة ، ويروونها أوفد فى تفاصيل جميلة^(٩٠) ولكننا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، ونخلق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها في مصر جواباً لها موثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتوجه فقالت « لو أن ثديي قد بقيا قادين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحي قد بقى قادراً على حملهم ، بلحنت إلى فراش الزوجية بقدمي ترتيجان ، ولكن الزمان قد خط على جسدي خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً^(٩١) . وفي الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذي نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللفظ والدعة ، وأنها يزت الفبيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها في آخر قطعة لها تلوم في غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى مجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون :
« سنتوجك يا سافو الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغاني وأشجاءها ، ألا تعرفون أن إهابي كله قد تجعد من طول العمر ، وأن شعري قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ .. وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتماً الفجر ذا النراع الوردية وينشر الظلام في طول الأرض وعرضها ، كذلك يقتنى الموت آثار كل حي ويمسك بتلابيبه آخر الأمر »^(٩٢) .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

في شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التي يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجمل النساء في بلاد اليونان جميعها^(٩٣) ، ومنها يسير الإنسان في أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسبرديس الشمالية ؛ إلى إمبروس ، ولنوس ، وسمثريس . وأنشأ الميليزيون حولي عام ٥٦٠ في سعيهم للإشراف على الملسينت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئه الجنوبي ، ولا تزال هذه البلدة قائمة حتى الآن^(*) . ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرون Byron المضيق سباحة ، ومنه عبر جيش خشيارشاي البحر إلى أوربا على جسر من القوارب ، وإلى شرق هذه البلدة استعمر القوقيون لمپاكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور . وفي داخل البروبنتس مجموعتان من الجزائر ، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهي غنية بالرخام الذي أكسب البروبنتس اسمه المعروف به في هذه الأيام (بحر مرمره - أي بحر الرخام) وثانيتهما مجموعة الأركتنييسوس Arctonnesus . وفي أقصى طرفها الجنوبي أنشأ الميليزيون في عام ٧٥٧ ثغر سيزكوس Cyzicus العظيم . وقامت على طول الساحل مدينة في إثر مدينة : پنورموس Panormus ، ودسيلوم Dascylium ، وأپاميا Apameia ، وكبوس Cius ، وأستكوس Astacus ؛ وخلقدون Chalcedon . وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور ، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة ، وأنشأوا كرسپوليس .

(*) كل المدن المذكورة في هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم ، وإن سميت بأسماء غير أسمائها القديمة .

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Neopolis ، و مدينة النصر ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن في هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتوم Pontica ، وسينوب Sinope — التي يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة^(٩١) ، بها ملعب رياضي عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظلة ذات عمد ؛ وكانت خليفة بأن يولد فيها ديوجين الكلي Diogenes the Cynic ؛ ثم تلبا أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتربوليس Tripolis ، وتراپيزوس Trapezus (تربزند أوطريزون) ، والتي صاح فيها رجال زنوفون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذي طالما تاقت نفوسهم لروءاه . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد جيسن في أكبر الظن ، ثم على أيدي الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها في ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوروبا في بداية العصر الحديث^(٩٢) . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكير Colchis الميضية وأسسوا فاسيس Phasis ، وديوسكورياس Dioscurias ، وثيودوسيا Theodusia ، وبنتيكيوم Panticapaeum في شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهري البوج Bug والدنيير مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesnis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إسترور Istrus (قنسطنطة أوقسطيج) ، وتومى Tomi (التي مات فيها أوفد) ؛ وأدِسُوس (وارنة) ، وأبولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية لذهله قدم هذه المدائن التى لاتزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المنهمكين في أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة في بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ المجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium (*)) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتي تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الثغر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام هرقليز مفتاح أوربا كما سماه نابليون في معاهدة تليز Tilsit . وقد وصف پوليبوس في القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « من حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى في العالم المعروف لنا » (٩٧) . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوديا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع في المضائق الضيقة . وقد كان التواؤمها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائهما اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » ، وكانت أثينة في عصر هرقليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها في أوقات الشدائد ، وتعامل لإصدار الحبوب من موانئ البحر الأسود معاملة مهربات الحرب (٩٨) .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو التراقى للبروبنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وپرنثوس Perinthus (لرجلى Eregli الحديثة) وبيزنثى Bisanthe ، وكاليوبيس Callipolis (غاليبولى) ، وستتوس Sestus . ثم أقاموا فيها بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبي الغربى عند أفروديسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسپوس

(*) ونراجع أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقريطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية الذرية(*) وأمام ساحل تراقية في البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، و الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار في البحر ، كما وصفها أركلوكوس^(٩١) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل منتجاتها منه تقي بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقدونية الشرقى أوبالقرب منه مدينتي نيبوليس Neapolis وأمفيبوليس Amphipolis — وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً في اشتعال نار الحرب التي خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس وإدتريا على شبه جزيرة كلسدس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهسنا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قمر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيوني Scione ، ومندي Mende ، وپونديا ، وأكتوس Acanthus ، وكليوني Cleonae ، وتوروني Torone ، وأولثوس Olynthus التي استولى عليها فليب في عام ٣٤٨ والتي تشتهر عندنا لصلتها بخطب ديمستين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة في أولثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوى بعضها خمسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها في أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفي وسعنا أن نستدل من هذا العدد الكبير الذي كان يقيم في مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر پركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا في الجزائر العويية الواقعة بين كلسدس وجزيرة هوبية الكبيرة ، وهي جبرونيا Geronia ،

(*) هي الفلسفة المتأثلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه في صور مختلفة (الترجم)

وبولييجوس Polyaeos ، وإيكوس Icos ، وبيارثوس Peparethos ،
واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط
الإمبراطورية في الشرق والشمال انطباقا تاما والتي طرفاه . وبفضل نشاط
اليونان ومغامراتهم استحال جزائر بحر إيجه وسواحل آسية الصغرى ،
وشواطئ الهلسنت ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا
من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ،
والتجارية ، وبالنشاط السياسي ، والأدبي ، والديني ، والفلسفي ، والعلمي ،
والفني ، وبالبلاغة ، وبالسفسطة ، والمحاكاة . ولم يبق أمام اليونان في
ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى في غرب بلاهم ، ويقيموا
قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .

الباب السابع

اليونان في الغرب

الفصل الأول

السياريون

بعد أن تمر سفينتنا الخيالية بسنيوم Sunium وتوجه نحو الغرب تصل إلى سثرا Cythera مقر أفرديتي الجتزري ، والتي كانت من أجل هذا مقصد وتو Watteau (*). وفيها شاهد پوزنياس في عام ١٦٠ م (أقدم وأقدم ما شاهده اليونان من الهياكل لأفرديتي^(١)) ، وفيها كشف شليمان في عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هذا الهيكل^(٢) . وكانت في أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التي تجاور ساحل بلاد اليونان الغربي وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هي زاسنثوس Zacynthos ، وكيفالينيا Cephalenia ، وإثكا Ithaca ، ولوكاس Leucas ، وباكوس Paxos ، وكورسيرا Corcyra . وحسب شليمان أن إثكا هي جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر^(٣) . غير أن دورفيلد Dörpfeld كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرايون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق محورها ضحية بشرية يقدمونها في كل عام قرباناً لأبلو ؛

(*) كانت صورة Embarkation for Cythera (السفر إلى سثرا) التي صورها وتو تمثل روح الطليقات العليا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين القدر الذي يسمح لها بأن تكون أبيقورية .

(٢١ - ج ١ - مجلد ٢)

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون في الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنتها من شدة الصدمة عند سقوط الضحية على الأرض^(٤) . والراجع أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية . واحتل كرسيرا (كورفو Corfu) مستعمرون كورنتية حوالي ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنتية ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا في البحر الأدرياتي متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ، واستقر بعضهم في مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفي وادي نهر الپو Po^(٥) ، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهانجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا في كعب إيطاليا . ووجدوا في ذلك المكان شاطئاً جميلاً ينحني فتكون من انحنائه مرأى طبيعة آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهلها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً^(٦) . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلي بمقتضى قانون التوسع الاستعماري الذي لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القائل إن الموارد الطبيعية التي لا يستغلها أهل الإقليم تجذب ، بنوع من الجاذبية الكيميائية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الجدد — وأكثرهم من الدورين — كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم (برنديزي) وأنشأوا مدينة كبيرة في تاراس Taras — تارتم الرومانية (تارنتو الحديثة)^(*) وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

(٥) ذكرنا في جدول الحوادث التاريخية المتصلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن في غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنتيكوس السرقوسي Antiochus of Syracuse . ومظنة الخطأ فيها كبيرة ، ويعتقد مهني Mahaffy أن المدن التي أنشئت في صقلية قد أنشئت في عهد متأخرة من العهد الذي أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها كثيرون من المؤرخين^(٧) .

السّمك بالشبّاك ، وجمّعوا بعض القوابع البحريّة ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانيّة التي كانت أعلى قيمة من نظيرتها الفيّنيقيّة^(٨) . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانيّة بأن كانت أبحاريّة يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدي طبقة بالمال الطبقة الوسطى ، واستمّعت بفترات من الحكم الديمقراطيّ القويّ المضطرب . وفي هذا المكان نزل پيرس صاحب الشخصية الروائيّة في عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم في الغرب بالدور الذي قام به الإسكندر في الشرق .

وأُسست موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتي سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارنتم . وتدلّ الغيرة القائلة التي نشأها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جياشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقيّة وإيطاليا الغربيّة طريقان أحدهما بحريّ والثاني برى في بعض أجزائه . وكانت السفن التي تسير في الطريق البحريّ تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمرّ بعدها برجيوم Rhegium وتوّد في المكوس ، ثم تجتاز في حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلياوكوى ، أقصى المستعمرات اليونانيّة في إيطاليا شمالاً . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم في سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجاديف والشرّاع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلاً إلى ساحل لوس Laus الغربيّ ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى بوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق في داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجاريّ ، فأثّرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق أقوال د يودور الصقل^(٩))

ثلاثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيبارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(*) . وكان يحزم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعاتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر^(١١) . ويقول أرسطوانه كان لألسثنيز السيارى ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة (٧٢٠ ر. ١٠٠٠ ريبال أمريكى^(١٢)) . ولما جاء اسمندريدز Smyndyrides السيارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليسنيز ، كان معه ألف خادم^(١٣) .

وسارت الأمور على أذلالها فى سيارس حتى انزلت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها (٥١٠) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السياريين سارو إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلاثمائة ألف^(١٤) . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هذا الجيش بأن عزفوا النغفات التى علم السياريون خيولهم أن يرقصوا عليها^(١٥) . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

(*) ويقول أنثيوس إن الطهارة أو صانمى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمع لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكرها مدى عام^(١٠) . وربما كان أثينوس يخلط فى هذا القول بين المزحل والتاريخ .

الفصل الثاني

فيثاغورس الكروتونى

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيارس ؛ فقد أنشئت فى عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعى الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التى تفرغ بضائعها فى سيارس . وقد بقى فيها من التجارة ما يكفى لكى يعيش أهلها عيشة هنيئة ليئة ، كما أن هزيمتهم الموفقة فى الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلاً ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم اللورى المترمت بعض الشيء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفى هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Mito ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية فى بلاد اليونان الكبرى (Magna Greca) (*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صهى هو الذى حجب إلى فيثاغورس المحبى إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق الفصحى » بلسان مهبط الوحى فى دلفى ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أبلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذة الذهبية (١٧) . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد فى ساموس حوالى عام ٥٨٠ ، وتحدث عن جده فى صباه . ونعزو إليه أنه صرف ثلاثين عاماً فى الأسفار . ويقول عنه هرقلطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد فى مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة (١٨) » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد يلقى على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هى قوله : إذا كنت مسافراً فى خارج بلادك فلا

(٥) هذا هو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا . (الترجم)

تلتفت وراءك إلى حدودها^(١٩) ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك في أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضاً قليلاً من السخف^(٢٠) . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان بوليكراتيز يحد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر^(٢١) .

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيئته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال في مدرسته ، سبباً في إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئتين في زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بماتتي عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشيء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلي ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات في الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج في الأنوثة أخرجته بلاد اليونان في جميع العصور » .

وقد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة في جميع طيبات الحياة ما داموا يعيشون في هذه الجماعة الفيثاغورية^(٢٢) . وكان اللحم والسّمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ، ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة في جنوبي إيطاليا في هذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب ديني ذي صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجح أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيشاغورى أقوى رجل في بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول^(٢٤) ، — وإن كان العجل الذى أصبح بن ذراعيه ثوراً^(*) قد شب على أكل الكلا . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا في الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدق الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان في وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم في آخر كل يوم عما ارتكبه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير^(٢٥) .

وقد أخذ فيثاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما راعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلاً من أبرع الممثلين . وما من شك في أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانة عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تذمر ، وما جعل الكلمة الفاصلة في كل جدال أو نظرية هي : لقد قالها هو نفسه Autos epha-ipsi dixit . وقد نقل إلينا في عبارة تم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هي الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ، وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط في الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يفرق في الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً وواو كان عبداً^(٢٦) . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجذ ، ويعمل على اصطياد الناس^(٢٧) » ، ويتنقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان في وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوجينز ليرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان في خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط في أحاديثه مع أنه كان في وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد في فضلها أنها امرأة (٢٨) » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلاً عن تطهير احمم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين - ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة - قبل أن يعترف به عضواً كاملاً في الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس (٢٩) أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات (*) ؛ ولكنها لم تكن العلم العمل الذى استحوطت إليه على أبدي المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث في الكميات ، ومثلاً أعلى في التدريب المنطقي يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأوضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البديهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة في القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق - على حد قول الفيثاغوريين - يستطيع منه أن يطلع أكثر من ذى قبل على بناء العالم (٣١) . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(*) ويلوح أن الفيثاغوريين كانوا أول من استعمل كلمة ماثماتيكا Mathematike . بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شئ (٣٠) . هما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة في أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين . ويقول أبلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم (٣٢) . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب — على عكس النظام المتبع في هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هي أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة (٣٣) ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها و « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسي (٣٤) . ولعل دراسة النسبة هي التي أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان في يوم من الأيام ماراً بمناوت حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتي بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولما عرف أن الطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التي سمعنا بها في علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين في السمك وفي التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعف طول الآخر أخرجاً إذا جنبهما نغمة من الدرجة الأولى ، وإذا كان أحدهما ثلث طول الآخر مرة ونصف مرة أخرجاً ثُمساً (دو — صول) ؛ وإذا كان أحدهما ثلث طول الآخر مرة وثلاث مرة ، أخرجاً رُبماً (دو ، فا) (٣٥) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذا كانت كل الأجسام التي تتحرك في الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب في فلكه حول الأرض (كما يقول فيثاغورس) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ؛ ويتكون من هذه النغمات المختلفة اثتلاف في الأصوات أو « موسيقى الأفلاك » وهي موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام^(٣٦) .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حتى مركزه الأرض ، وإن الأرض هي الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق . وقد قسم الأرض ، والعالم كله في الحقيقة ، خمس مناطق — المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذي نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التي يواجه بها الأرض نصفه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس^(٣٧) . ويقول ديوجينيز ليرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كونا Kosmos^(٣٨) .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه في الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية في أوربا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى حجة الحكمة^(٣٩) . وقد صارت كلمة فيلسوف وفيثاغورى في القرن السادس كلمتين مترادفتين^(٤٠) . وبينما كان طاليس وغيره من المليونيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها في المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه في الشكل ، وبعد أن كشف ما في الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عددية منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية في الكواكب نفسها ، قفز قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد في كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسبنوزا قد قال فيها بعد(*) إن
ثمة عالمين - أحدهما عالم الأشياء أو عالم الناس الذى يدركونه بالحواس
والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل -
وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس
أن النواحي الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة
عددية(**) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة
صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى
عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استفاها من
مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس
تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ،
واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان
والإنسان على السواء(+) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو
خالد لا يفنى(٢٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم
Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم
آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حسي
حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أولعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله
لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

(*) فى مقاله عن « تحمين العمل » .

(**) بحول العلم أن يرجع الظواهر كلها إلى تقديرات كمية رياضية قابلة للتحقيق .
والكيمياء تتحدث عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى
قوانين دورية ، وترجعها إلى حساب ذرى داخل من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات
سمائية ، وعلماء الطبيعة يحدون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرومغناطيسية ،
والجاذبية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة
رياضية .

(+) ومن واجبتنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باستيعاب بعض السبق فى
إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق
« البلور » أو « الأصول » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته في حصار طروادة ، وإنه قد تعرف في هيكلها في أرجوس على الدرع الذي كان يابسه في تلك الحياة القديمة^(٤٣) . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف في عوائه صوت صديق له ميت^(٤٤) . وفي وسعنا أن ننبئ شيئاً من الصلات الفكرية التي كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية في القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة في وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس في بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية في إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تبرز في فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة في النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هي الفضيلة ، والفضيلة هي ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهي فهم الحقائق التي يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية . أما الطريقة المضادة لهذه - أي طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة - فتؤدي حتماً إلى المآسى والعقاب والعدالة « عدد مربع » ، وكل خطأ « سيريع » إن عاجلاً أو آجلاً بالعقوبة المكافئة له^(٤٥) . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهي فلسفة أفلاطون حققتها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسب ما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرستقراطية شيوعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق

العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس لجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتدئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفرادها فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون يجتمعون منه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يطأ بقدمه حقلاً من القول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى متابنتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً - ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتب من العمر بثمانين عاماً - وأما نفسه جوعاً^(٤٦) .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام ، ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ، كما عاش مجتمعه ثلاثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيون أمثال فيلولوس Philolaus الطبيعى ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الغامضة ، وهو يأخذ عنه فى جميع نواحي نشاط الذهن - فى سخريته من الديمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرستقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تألف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس - على قدر ما وصل إليه علمنا - هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوروبا ، وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

الفصل الثالث

زنوفانيز الإيلاني

في غرب كروتونا مكان^١ لكري Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكري في أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذي أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحي في دلفي يطلبون النصيحة فقبل لهم إن عليهم أن يسئروا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذي أنطق الوحي بما نطق به ، لأنه وضع للكري في عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتة عليه في المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة في بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التي هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكرين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفي جيده حب ، حتى إذا رفض اقتراحه شفقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(*) (٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالي عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذي سمته الأوديسة « سلاو كربينيس » Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذي وقف فيه لوس Laus ؛

(*) كان اليونان مولين بهذه الخرافة ولما حلهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كاتانا Catana وثورديا Thuria ، وشغف ميشيل ده مونتاني Michel de Montaigne بهذه الخطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلي^(١١) Hylee القديمة وهي فليا Velia الرومانية ،
المعروفة في التاريخ باسم إلليا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن
فلاسفتها وحدهم هم الذين بقى ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفوني حوالى
٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقبل في ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب
من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا بكل من العمل ، مبتكراً لإيهاب
الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً — على حد قوله هو نفسه — يطوف « في
أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه
فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ،
ويندد بهومر وبعبير عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛
وقد أنشأ مينا في إلليا وأنم من العمر قرناً كاملاً قبل أن يموت^(٢٩) . ومن
أقواله أن هومر وهزيود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التي تحط من قدر
الآدميين وتجللهم بالعار — كالتلصص ، والزنا والغش^(٣٠) . ولكنه هو لم
يبلغ شأواً بعيداً في التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد في العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد
عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورون أن الآلهة يولدن ، ويلبسون
الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان
للثيران والآساد أيد مثلنا ، وكان في وسعها أن ترسم وتصنع صوراً
كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها
هي ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها في صورتها ، ولصورت الثيران
آلهتها في صورة الثيران . والأجباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ،
والترافيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلماً
واحداً يعلو على الآلهة والبشر ، لا يشبه الآدميين في صورته ولا في عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير نصب على الأشياء كلها بقوة عقله^(٥١) .

ويقول ديوجينيز ليرتس^(٥٢) إن زنوفانيز قد وحد بين هذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والنامر أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية^(٥٣) ، وأن الماء كان في يوم من الأيام يغطي الأرض بأكملها لأننا نرى الحفريات البحرية في الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطي الأرض كلها يوماً ما في المستقبل^(٥٤) . بيد أن كل ما يحدث في التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث في الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس إلا ظواهر سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف في الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هي حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار برميندس الإلياني تلميذ زنوفانيز إلى الفلسفة المثالية التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذي دام إلى يومنا هذا .

الفضل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلاً إلى شمال إلبا كانت تقوم مدينة بسلونيا - بسم Paestum الرومانية - التي أنشأها مستعمرون من سيباريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفي وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من نابلي مختزفاً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقول مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى في عزلتها . فلقد سد النهر في هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادي الذي كان من قبل وادياً صحياً طيباً منافع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل فيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم في سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالملاريا . وقد أبقى الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكأن العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التي شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر وأغلب الظن أن أقدم هذه المباني ، وهو البناء الذي سمي فيما بعد « الباسليكا Basilika » ، كان هيكلًا لپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون في طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذي خلق كل عظيم في الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجليل الذي تلاه

هيكلاً أصغر من هذا الهيكل شبيهاً به في بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكننا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرايئه . وشاد جبل بعد هذا الجبل أيضاً ؛ قبيل الحرب الفارسية أوبعدها^(٥١) ؛ أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ؛ وأكبر الظن أنه شيد ليوميدين أيضاً - وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن في وسع الإنسان أن يطل من أروقه على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينما ولى الإنسان وجهه في هذا الهيكل رأى عمداً : ففى الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفى الداخل رواق من العمد ذو طابقيين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً فى النفس ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل الذى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفى وسعنا أن نستدل منه على ما كان الأقوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حيوية وولع بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفى وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة وواضحة جليلة لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيباريس وسرقوسة من أبهة وثراء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلى الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض المغامرين من كولسييس ، وإدترىا ، وكيجى Cyme العوية ، وجرايا Graia ، حوالى عام ٧٥٠ ثغركومية العظيم أقدم المدائن اليونانية فى غرب بلادهم ، وسرعان ما أثرت كومية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعها فى أواسط إيطاليا ، وأعانتها ذلك على استعمار جيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجارياً أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة قرضتها عليها^(٥٢) . وانتشر الكومبود

جنوباً وأسسوا ديسآركيا Dicaearchia — وهى التى أصبحت فيما بعد ثغر
پتيولى Puteoli (پتسيولى Pozzuoli) الرومانى — ونيپوليس Neapolis
أو المدينة الجديدة وهى مدينة نابلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت
الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التى
لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالاً إلى إتروريا .
واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية — وبخاصة أبلو ،
وهرقليز ، وابتاعوا الملفات التى تنبأت فيها سييل الكومية — كاهنة أبلو
العجوز — بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيو أبونيا على سواحل
فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا (مرسيليا) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان فى
نهر الرون وروانده حتى أريس Arles ونيمز Nimes . واتخذوا من
الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم
إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين
ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هى الأخرى فى أيام قيصر
حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون فى اتجاه
الشرق على طول الساحل مدن أنتبوليس Antipolis (أنتيب Antibes
الحديثة) ، ونيسية Nicaea (نيس الحالية) ومنوكوس Monoecus
(موناكو) . أما فى الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية
(رواس Rhodae) رواس Rosas (ولامپوريوم) أمپورياس (وهمروسكويوم
Hemeroscopium وميناكا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى
اليونان فى أسبانيا وقتناً باستغلالهم مناجم الفضة فى تارتسوس Tartessus ؛
ولكن القرطاجيين والإترويين نالوا عليهم فى عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول
الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان فى غرب البحر المتوسط
تنضال ولم تقم لهم فيه بعدئذ قائمة .

الفصل الخامس

صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأَصْصاع التي استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوروبية — ونعني بذلك تربتها التي لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها — ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس ديمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها بساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ؛ وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همتوس Hymettus ، وأزهار تفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كثلة ترعى فيها الماشية والضان ، وتنمو على منحدرات نلالها أشجار لا يحصى عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الحديد في الألف الثالث من السنين التي قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزي في الألف الثاني منها ؛ وحتى في الأيام المنيوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان^(٥٧) . وفي أواخر الألف الثاني من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهي موجة السكان من Sicans من أسبانيا ، وموجة الإليمي Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين SiceIs من إيطاليا^(٥٨) . واستقر الفينيقيون حوالي عام ٨٠٠ ق . م في متيا Motja وبنورموس Panormus (بالرمو) في غربي الجزيرة . ثم تدفق

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ،
وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا (مسينا) ، وقطانا Catana ،
وجيلا ، وهيرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة
الأصليون في جميع هذه المحجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة
السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبلية الداخلية تفلحها
وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزواج عدد منهم مع
الفاحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية
في صقلية الغلبة على طباع الأهليين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان
من ثورة عاطفية وانهماك في العلاقات الجنسية^(٥٩) . ولم يفتح اليونان
الجزيرة في وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ الفتح ، بل بقي
الغينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربي ، ودامت
الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان
والساميين ، وبين أوروبا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع
من جديد في العصور الوسطى بين أهل الشمال (النورمان) والعرب بعد أن
ظلت رومة مهيمنة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جزائر ليارى Lipari
بشيوعيتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس
بهاكلهما ، وسرقوسة بقوتها وراثتها . وأضحت الشرائع التي سنّها
كارنداس Charondas لقطانا قبل صولون بجيل كامل أئوذجاً تحتذيه
كثير من المدن في صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملاً قوياً في استتباب النظام
العام وكبح الشهوات الجنسية في مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق
المقدسة المرعية . ومن أقوال كارنداس في هذا المعنى أن في وسع الرجل
أن يطلق زوجته ، كما أن في مقدور الزوجة أن تطلق زوجها ،
ولكن ينبغي للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلقة كما أن عليها هي الأخرى

(*) أو لعل ذلك كان بعد جيلا . من ذلك الوقت . انظر هامش . ص ٢٩٠ .

ألا تزوج برجل أصغر من طلقها^(١٠) وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً في القصص اليوناني أن كرننداس حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث في يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهواً منه ، ولما أن لأمه أحد الناحيين على مخالفته لشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه^(١١) .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب في هذه المستعمرات التي نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فاعلمنا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التي كانت تسود جزائر ليايزي (أى المحيدة) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالى عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم في الجزيرة ويقتسمونها فيما بينهم قسماً تعد مضرب المثل في العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلاً خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى في مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمالى كانت تقوم مدينة هيارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلائية في الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأنشيد الجماعية » خرافات بنى جنسه في صورة أغان جماعية في الوقت الذى أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ، وحتى هلن وأخيل نفسيهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسبا على يديهما بهذا « الثواب الجديد » . وكأنما أراد استسيكورس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ، روى في إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

يستجيب لحبها ، وكان الأسلوب الذى روى به هذه القصة شبيهاً بأسلوب أغاني الحب البروفنسالية Provençal فى فرنسا أو قصص العصر الفكتورى فى إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد فى الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقريطس Theocritus بأن كتب قصيدة فى حياة الرعاة روى فيها موت الراعى دفينيس Daphnis الذى كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية فى العصر الرومانى . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلى نفسها . ولما فقد استسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلى ، وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله فى أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلى اختطفت من بيتها قوة واقتداراً ، وأنها لم تسلم نفسها قط لپاريس ، ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة فى مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محنتها . وقد حظر الشاعر فى شيوخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجامى المطلقة(*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة فى صقلية فى العصر الرومانى .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segesta ، التى لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية فى أحسن صوره ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلينس وأكروجاس . فأما سلينس فقد شادت للآلهة الصامئة ، فى أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها فى

(*) وقد صاغ هذا التمثيل فى قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وعل مرءاه ، فطلب إلى رجل أن يمينه على عقاب المعتدى ووعد الرجل أن يحجب عنه إذا سمح له أن يركبه وسحرته فى يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الرجل من المسمى خائفاً مذهوراً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجيون عام ٤٠٩ ، سبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الحص المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجوة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل في وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطة وتيجان ملقاة على الأرض .

وأما أكروجاس - أكرجنم الرومانية - فقد كانت في القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفي وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التي تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفي هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضي أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها في هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفي عام ٥٧٠ اغتصب فلارس زمام الحكم ، وخلد اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه في داخل ثور من النحاس الأصفر ، ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنايب كأنه خوار الثور نفسه^(١٢) . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثيرون Theron الرجلين الذين تمتعت المدينة في عهدها بالنظام السيامي والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً في سبيل تقدمها الاقتصادي ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار ميلنس ، وكروتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين في تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأنًا في بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينتقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالضخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك في أن هيكل زيوس في أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه پوليبوس بأنه لا يعلو عليه هيكل آخر في حجمه أو تصميمه^(١٣) ، وليس في مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جمال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جيل من ذلك الوقت ، أى فى عصر هركليز ، هياكل أخرى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكल الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها . ويكنى ما بقى من المعبدين للدلالة على أن اللوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن الرق ليس فى الضخامة . وفى أكروجاس ولد إله دقلىز العظيم ، ولا يعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لا فى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم - قرية محتشة على لسان أرنيجيا Ortygia الجبل المتد فى البحر . وكانت كورنتة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرين مسلحين بأخلاق قويمة وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردها معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبنائهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ، فكان طول محيطها أربعة عشر ميلاً ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لساائر الأهلى من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الديمقراطية الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس^(٦) ، عجزت عن أن تقيم مجتمعاً منظماً ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجبل Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعينة على ذلك بنحلة من الغدر المستنير . وكان كالكثيرين من أمثاله حاكماً قديراً لا يرعى عهداً ولا ذمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرنيجيا حصناً منيعاً لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليوتيني ؛ ومسانا ؛ وفرض الضرائب على شرق صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هيرودوت متحسراً :
« وهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (*) عظيماً » (٦٥) .

ثم صلح حاله وصار بابايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشاي أسطوله ليهاجم أثينة ، فسبر القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوى عدد مراكب الأسطول الفارسي ؛ لتنتزع جنة الجزائر كلها من أيدي اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذي لاقتة بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار في هيمرا في نفس الشهر - أوفى نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة - الذي واجه فيه ثمستكلز خشيارشاي في سلاميس .

(*) ويقول لوشيان Lucian : « لقد كان جيلون السرقوسي أغبر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطافية المستبد على هذه الحقيقة حتى جرات امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فما كان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنها على سكوتها من ذلك رغم ما لديها من الغرور الكبيرة التي كانت تمنحها من الإفضاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال من قرب طوال حياتها ولم تقترب منهم قط » (٦٦) . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

الفصل السادس

اليونان في أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا في أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارتها . فقد أرسل الدورليون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين في منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن في السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلا كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ، وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم البدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتمائيل وحلبات الألعاب . وفيها ولد ارسطوبس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع للصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم في مصر نفسها وهى المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها (*) ؛ وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ الميليثيون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

(*) هذا ما يؤيد التاريخ فقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيفة لزلاتها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناءها . (المترجم)

لهم أسمانيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنية طيبة له يحصل منها جبايته على ضرائب بحرية عالية (١٧) . ووجههم أحسن الثاني قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي ، وأصبحت نقراطيس مدينة صناعية أو كادت ، تنتج انفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ، وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيماً ، يأتى إليها زيت بلاد اليونان وخمرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصفوها وعاج أفريقيا وعطورها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان ألفاظهم وأساليبهم فى الحياة ، فهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر فى العصر الإسكندرى .

وإذا تصورنا مركباً يونانياً يسير من نقراطيس إلى أثينة ؛ أتمننا بذلك طوافنا حول العالم اليونانى . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكى ندرك مدى الحضارة الهيلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستورى فى ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها فى تجارة البلاد التى نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعاتها ، وتفكيرها . وفى المستعمرات لا فى أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئات من اللوامس الماصة التى بثتها فى العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لما وجدت الحضارة اليونانية وهى أئمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً فى آسية وأفريقية وأوروبا .

الباب الثامن

آلهة اليونان

الفصل الأول

أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحدة في حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها في الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به في المباريات التي تقام بين الأفراد في المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا في التفرقة بين اليونان بقدر ما كان عاملا في وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمبس العامة البعيدة ، وهي العبادة التي كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللأقوى التي تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذي الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة في أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له في البيت النار التي لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها حالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق الشعر الصوفي وفي إكساب الحادثات الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقاء أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإله أثينا ؛ وإلوسيس تعبد ديمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وبوسدونيا تعبد بوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيتها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يجنبه الغيب لها . وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها ، وكان يبلو لأهلها أحياناً أنه قد يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطعموا جميعاً أمام هذه النار . وكلما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركانها كبير كهنة في دين الدولة ، وكان الإله يخضع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلي خيال اليونان الديني من القيود فأخرج للعالم أساطير دنيئة موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شيء وكل قوة في الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة — ولو كانت رذيلة — من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً في صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص أوراخ حارس ، بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلاً عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفي هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم : هل الدين من وضع الكهنة ؟ . ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك في أن من أكبر النعم التي ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفتانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحية . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعدّدات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توأم كل المواهمة ما في العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذي يوحى إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ وهيب النفس الذليلة المعونة والراحة واللين لا تجزؤ على انتظارها من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه (*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أى قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له .

(*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحدة الله واقترابه من هذه الوحدة أنه يقدر استنارة عقله . كذلك لا تتر ما يراه من أن النفس البشرية لا تجد المعونة والراحة إلا في الأساطير وفي الشرك ، بل نفتقه أن في وسعها أن تجد في رعاية الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المحبب للمعونة البشري إذا دعاه .
(المترجم)

وقد أصبحت هذه الأساطير التي نشأت نشأة تلقائية مما في المكان وما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً . فنها استمدوا الموضوعات التي زينوا بها مزهرياتهم ، وهي التي أوحى إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسهم ، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان في وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدلوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشابيه ، وفي وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفي مقلود رجال من أمثال زونوفانز أن ينددوا بها وينبذوها ، غير أن هوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحمية في قلوب الأهلين في عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير(*) الدين عملية طبيعية ، تحدث في هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام في العصور الحالية ؛ ونعمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كينها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة(**).

(*) صياقتها شعراً . (المترجم)

(**) للراء التي يعرضها المؤلف في هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد أثرتنا

أن نفسها أمام القراء وترك لهم معارضتها أو تأييدها . (المترجم)

الفصل الثاني

سجل الآلهة

في وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيماً مصطنعاً إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » كما يقول هزiod^(١) .

(١) وكان إله الغزاة اليونان في بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . وبشبه اليونان في هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانتوس أو السماء نفسها ، ثم أضحي « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زيوس . وإذا كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمأى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلى له أبجمنون ودعاه لمعونه^(٢) ، وكان الاسبارطيون يضحون له بالخليل لتجرع ربه الملتبة في قبة السماء^(*) ، وكان أهل رودس حين اضطبغت بلادهم بالصيغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعبدونه كبير آلهتهم ، ويلقون في البحر كل عام أربعة جياذ وعربة ليستخدمها في تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

(*) وطلب فيتون Phaéon (المتألول) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس في عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بهور ، وكاد يشعل النار في العالم كله فصمغه البرق ، وسقط في البحر . ولعل اليونان ساقوا هذه القصة ، كما ساقوا قصة إكاروس Icarus ، ليهبط بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته في أثينة بركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست إلها وإنما هي كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكذب لها أثر في تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأنًا ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

(٢) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها في بادئ الأمر هي الإلهة جى Ge أو جيا Gaia الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء ، التي حملت حين عانقها أورانوس - السماء - فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جى شأنًا ، في مائها وفي الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها الزيريدات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات في الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تتفجر من الأرض عيونًا ، أو تجري جداول عظيمة مثل الميندر أو الاسبركيوس Spercheus ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إيوس ؛ وكان من آلهة الأرض بان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذي تُسمع صفارته في كل جدول وواد ، والذي تبعث صبيحته الفزع (*) في كل قطع لا يعنى به ، والذي يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسلينى Sileni وهي مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان في كل مكان في الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « نجد فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف (٥) .

(٣) وإذا كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هي قوة التكاثر ، فقد كان

(*) إن كلمة Paale أى المعر مشتقة من الإله بان . (المترجم)

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزي الإخصاب الرئيسيين في الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب الله . ولهذا كان قضيب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر في طقوس ديمتر ، وديونيسس ، وهرمس ، وحتى في طقوس أرتميس الطاهرة^(٦) . ويتكرر ظهور هذا الرمز في النحت والتصوير في أهم عصر من عصورها : تكراراً فاضحاً ، بل إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الديني الذي كانت تمثل فيه المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها^(٧) . وما من شك في أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرسطوفان^(٨) ، ولكن كثرتها كانت خالية من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية في الرجال والنساء وتساعد على كثرة النسل^(٩)

وكانت أحط ناحية من نواحي مراسم الإخصاب تظهر في العهود التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتي كان يعبد فيها بريابوس Priapus الذي ولد نتيجة لاتصال ديونيسس وأفرديتي ، والذي كان الفنانون يزینون بصورته المزهرية وجلران المباني في بومبي Pompeii . وكان أطرف من هذه المراسم وأعف في موضوع التناسل نفسه لإجلال الإلهات التي ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ، وأرجوس ، وإلوسيس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن تجل أعظم الإجلال لإلهات معظمهن لا أزواج لهن ، كنّ في أغلب الظن أئراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر الزواج^(١٠) ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات^(١١) . ولعل سبق النساء على

(٥) حل القاري أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات في المجسمات ذات الصبغة الأبروية القوية كالمجسمات اليهودية والإسلامية والمسيحية والبروتستانتية (المؤلف) . يصعب علينا أن

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذى يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى ديمتر إلهة الحنطة أو الأرض المزروعة . ومن أجل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترنيمة ديمتر وهى الترنيمة التى كانت تغزى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف بيلوتو Pluto إله العالم السفلى پرسفونى ابنة ديمتر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الحزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت بيلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام - وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجدها . وإذا كان أدل إلويسيس قد عطفوا على ديمتر المتكبرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكرب » ، فقد علمتهم هم وأهل أتكاسر الزراعة ، وأرسلت ترينولوس Triptolemus ابن ملك إلويسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشثار فى بابل ، وأسطورة عشتروب وأدنيس فى سوريا ، وسبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأمومة طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظم وتتخذ أنصاف آلهة - إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدمياً إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدها فى مصر والهند ، ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

= ننهم ما يرى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهاب فى الإسلام وهو دين اتوحيد لا يعترف بالألوهية إلا لله وحده . (المترجم)

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لها تنكرا فيها ، أو رمزاً لها ، وربما كان إلها قبلهما^(١٠) ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هي أيضاً بقرة مقدسة^(١١) . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمر الظريفة . وكان القربان الظاهر الذى يقدم لها هي في أحد أعيادها المعروف بعيد التسموفوريا Thesmophoria خنزيراً ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه^(١٢) . وفي عيد الديازيا Diasia كان هذا القربان يقرب لزيوس في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن في باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريماً لها^(١٣) . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها في ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فإننا نراها تنتقل في صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقلمة تقيم في هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها في كل شهر كعكة مقدسة زلنى إليها واستدراراً لعطفها . وكثيراً ما ترى الأفعى في الفن اليوناني حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكليبيوس^(١٤) ؛ وقد صوّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بياكليل من الزهر في درع « أثيني پرثنوس » ، وتغطي الأقامى الجزء الأكبر من تمثال أثينا الفرنيزية^(١٥) . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للهيكل والمنازل أو صورة لهذا الإله^(١٦) ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً في اعتقاد الناس أنها روح الموتى^(١٧) . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها في بادئ الأمر تكريماً لأفعى دلفي الميتة .

(ه) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض . ففي المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحات السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التي لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوي على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلاً عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تتم عن التوبة والملح . وكانت هذه القوى غير البشرية هي المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات المسيحيين الذين نقلوها في أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتبعها إلى أصلها الأول لكان في وسعنا أن نصل إلى أنها كانت في بدايتها الأرواح المستقمة للحيوانات التي طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض في أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضي ، وزيوس هنا اسم نكرة لايعنى أكثر من إله^(١٩) . وكان يسمى أحيانا زيوس ميليكبوس Meilichios أى زيوس الخير ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذي كان يصور في صورة أفمى رهيبة . وكان هاديز Hades رباً ما تحت الأرض أخا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه پلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان في مقدوره أن يبارك أو يبيد جنود كل ما بنيت على سطح الأرض^(*) . وكان أشد من پلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتى Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقرّبون لها الجراء ليعلموها عنهم^(٢١) .

(٦) وكان الموتى قبل عصر اليونان المحيد يعدون أرواحا قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرايين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيما يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها في هذا شأن الأسرة الصينية^(٢٢) . وكان اليونان في عصرهم الزاهر يربّون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

(*) وكان پلوتس Plutus إله الثروة صورة من پلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تنخد في أكثر الأحيان صورة الحبوب منزوعة في الأرض أو مخبأة في جوار ، وكانت في كلتا الحالتين تحت حماية پلوتو .

فى عيد أنثستريا Anthesteria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان فى وسع الآلهة أن تهب العظم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ؛ الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولمبيا يقربون القرابين فى كل عام إلى هوداميا Hippodameia ؛ وكانت كسترا Cassandra تعبد فى لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلى فى إسبارطه ، وأوديب فى كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلهاً ، وقد يتصل الإله اتصالاً جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلاً — إلهاً كما فعل زيوس مع أكمينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلاً يصلون نسبهم إلى أسكليبيوس . وكان الإله فى أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبد فى الأصل قبراً ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن فى معظم البلاد مكاناً تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا فى مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

٢ — الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها فى المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتماً فى المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأى سبب لا نسمع فى شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأى سبب نسمع عن الآلهة الأولمبية الشيء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمبس قد جاءت إلى البلاد مع الأخيين

والدورين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفي وسعنا أن نشاهد ما حدث للآلهة الأولى في دودونا Dodona ودلفي حيث حل زيوس في المدينة الأولى محل جيا وحل أبلو محلها في الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمنح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ؛ بينما كانت الآلهة الأولمبية المنتصرة تتقبل وهى مستوية على عروشها في أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب في أن هومر الذى كان يكتب للصفوة المختارة لا يكاد يحدثنا بشيء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيبود والمثاليون الفاتحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمبية . وقد حدث في بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لبوسيدن كما خضعت الأرواح التي تقطن الغابات لأرتيميس ، واختفت الطقوس والأساطير الممجية شيئا فشيئا على مر الأيام ؛ وحلت محل الأساطير المضطربة التي كانت تصور الأرض مملآة بالشياطين حكومة للآلهة على شيء من النظام كانت في واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليوناني من استقرار سياسي أخذ في النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهي الحديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس ، ولكنهما ماوالجبايرة Titans قد ثلت عروشهم كما ثلت عروش جيش الشيطان Lucifer (*) . وقسم زيوس وإخوته العالم وزعوه فيما بينهم بطريق

(*) لقد أصبح النزاع الذي قام بين زيوس وأمرانه من جهة وبين الجبايرة من جهة -

القرعة ؛ فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب بوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس في أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقت من تزاوج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأنثائها غير الخالدين ؛ والله في دين اليونان ليس إلا والدأ ، كما أن الآلهة الأولمبية ليست قادرة على كل شيء عارفة بكل شيء ، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها ، وتحشد في بلاطه كما يحشد الأتباع في ساحة أمير إقطاعي ؛ وهو وإن استشارها في بعض الشئون ، وعمل برأيها في بعضها وإن خالفت رأيه (٢٣) ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها (٢٤) . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذي لا غنى للناس عنه (٢٥) ، وهو في بعض صوره الأولى إله حرب كيهو ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » ويأخذ بالرأى الثاني (٢٦) . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، الهادئ القوى الجالس فوق أولمبس ، الملتحي الوقور ، رأس النظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمي أملاك الأسرة ، ويوثق الأيمان ، يعاقب الخائنين ، ويحفظ الحدود ، والمساكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصدر الأعلى للأحكام الذي نحت فدياس تمثاله لأولمبيا .

= أخرى في نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والعقل على الممجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(•) أكبر الفن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة *dies* اللاتينية التي اشتقت منها كلمة *day* الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند - أروبي هو *id* ومعناه يلتدح . وچوثير عند الرومان هو ريو - *Zeu-pater* أي زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة *dios* . وفي هذه الأيام سميت الأماكن وقمم الجبال التي كان يأوي إليها زيوس أو كانت حرمًا مقدسة له باسم القديس إلياس من قديسي الكنيسة اليونانية ومنزل المطر البلاد ، أو أصبحت حرمًا مقدسًا لهذا القديس (٢٥) .

وعيه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزع الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تجدد الآلهة نفسها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويمجد نفسه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثبناً طويلاً بمحجوبات الإله ، وبما أنجب منه من أبناء عظام^(٢٧) . وكانت حبيته الأولى ديوني ، Dione ولكنه يغادرها في أفيروس حين يهاجر إلى أولمبس في تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هي متيس Melis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويترامى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا في جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المونس الجميل فيتزوج ثيمس Themis وتلد له الساعات الاثنتي عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له إلهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسيني Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أبلو وأرتميس ؛ ثم أخته ديمتر وينجب منها پرسفوني : فإذا ما صرف شبابه في الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمبس فتلد له هبي Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقل عنه سناً ؛ وهي تلقى أكثر مما يلقي من التكریم في كثير من الدول اليونانية ، وهي رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهي ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبته ومداعباته ؛ وهي إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها^(٢٨) ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين ، وكانت آخرهن ألكينا وهي من نسل نيوبى في الجيل السادس

عشر(*) ، وهو يسير على سنة اليونان في عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسيم ، ويحتفظه لكي يجعله ساقبه فوق أولمبس ، وكان من الطبيعي أن يكون من بين أبناء هذا الأب المخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة النمو والسلاح من وأس زيوس ، أمدت أدب العالم بلحدي استعاراته التي ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عذراء وتتخذ من هذا سبباً لمواسات فتياتها العذارى ، وتبعث في نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل لبركليز الحكمة التي هي خليفة بها لأنها ابنة مينيوس وزيبوس . ولما حاول الجبار پلاس Pallas أن يغارها قتلته وأضاف اسمها إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطاياها . وقد خصنها مدينة أثينة بأجل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أبلو الرسم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أبلو إله الشمس المتلألئ ، راعي الموسيقى والشعر والفن ، منشئ المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكليبيوس ، إله الحرب الراى بالنبال إلى أبعد مدى ، الذي خلف جيا وفوبي Phoebe(**) . في دلتى ، وكان أقدس من ينزل الوحي في بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور في أيام الحصاد ، وكان في نظير هذا يبعث بدفته وضوئه الذهبين من ذيلوس ودلتى ليخصب التربة ويغنيها . وكان في كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ، وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النعمة السائدة في عبادة أبلو وفي أعياده العظيمة في

(*) من واجبتنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموت ، أن معظم هذه المفامرات كانت في أغلب الظن من اختراع الشعراء أو القبائل التي كانت تحرص على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(**) ومن فوبي اشتق اسم فيبوس أى « الملهم » .

دلقى وديلوس هى التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتميس (ديانا) . سعيدة مثله . وكانت أرتميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة فى شئون الحيوانات ، وفى ملذات الغابات ، انهماكا لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمرامى والغابات واتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أبلو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات — كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عفيفة ، وهذا قد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسبوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وبهذه الطريقة اختلطت فكرتا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف مابقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء^(٢٩) . وبهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الجديد بالقديم ويتبدل كل شئ عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وجن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولي الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهيمن المظلوم ، إله السماء الأول كان إلهاً سخيفاً خليقاً بالرثاء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما يستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسمى معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكبر . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأننا بلا معونة ، فولدت هى الأخرى هفستس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رآته قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقت به من فوق أولمبس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التى كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعا مجيداً فى نزاعها مع زيوس ، فإما كان من إله أولمبس العظيم إلا أن تمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفستس فى تروله يوماً كاملاً ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمнос ، وجرح عقبه ، ويؤكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى (وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة) . وعاد مرة أخرى إلى أولمبس ، وصنع فى حانوته الكثير الفوضاء سداً ضحكاً وضع فيه عشرين متاعاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تنحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصنائع البدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هى مداخن حوانيته التى تحت الأرض . وكان من سوء حظّه أن تزوج أفرديتى ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال فى شخص واحد . ولما عرف هفستس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركاً وقع عليهما فى أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهى الحب والحرب مكبلين فى الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو - كما يحدثنا هومر :

« أى هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفرديتى ، ولو كنت مكبلاً بالأغلال الثقال ؟ » فأجابه الرسول (*) يقول : أياها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، ولينى أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التى لا أجد منها خلاصاً ، وأن تشاهدونى أنتم أيها الآلهة - نعم

والإلهات كلها أيضاً - إن استطعت أن أنام إلى جوار أفزدتي الذهبية (٣٠) .
حسبنا هذا عن هفستس ، أما إزيس (المريخ) فلم يكن يمتاز بالذكاء
أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفزدتي ومفاتها لم تكن
تثير فيه النشوة التي يثيرها التقبيل الذي كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه
هومر « نقمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا
على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهونائم قد غطى سبعة أفدة (٣١) » .
هذا أريس أما هرمس (ميركرى أو عطارد) فأكثر منه طرافة . فقد كان
في بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا
تزال المراحل التي مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار في المرحلة الثانية الحجر
الطويل الذي يوضع فوق المقابر ، أو الروح (الديمون) الكامنة في هذا
الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول وبحرسها ،
وإذ كان عمله فيها فضلاً عن تجديدها وحراستها هو توفير الحصب لها ،
فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود - ذا الرأس
المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز - الذي كان
يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن في أثينة (٣٢) . وسرى كيف كان يتر
هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك ألقبيادس وخراب
أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامى المتأدين ، وعصيم من أحب
شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ،
والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكايل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح
الملاك الراعى للحنانين والمحتلسين واللصوص (٣٣) . وهو نفسه بشير ونذير يحمل
الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بينها وبين البشر ، وهو يسير على خفين
مجتمعين بسرعة الريح العاصفة ، وتكسبه هرولة لبناء ورشاقة ،
وتنهته لأن يتخذ الصورة التي يظهر بها في تمثال بركستليز . وهو بوصفه شاباً
سريع العدو قوى الجسم ، راعى الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التي تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها في كل مكان للتدريب العضلي^(٣٤) . وإذا كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذا كان الشارح السماوي فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف إحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة واخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذي يسترضى فيه أفرديتي فيستولدها ، كما يخبرنا القصاصون ، نخشى (هرمفرديتي Hermaphrodite) ناعم الجسم يرث منها مفاتهما ويشقى اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التي امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلاً عن إلهة العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك في أن أفرديتي كانت في مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفي قبرص موطنها نصف الشرق ، كانت في هذه المواطن أول الأمر إلهة أمّاً ، ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب في الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة نجد في النساء قيمياً غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفرديتي على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعندها اليونان في صور مختلفة : فهي في صورة أفرديتي أورانيا - السماوية - ربة الحب العذري أو المقدس ، وفي صورة أفرديتي بندemos Pandemos - الشعبية - إلهة الحب للدنس بكافة أنواعه ، وفي صورة أفرديتي كليبيجوس Kallipygos فينوس ذات الردين الحميلين . وقد أقامت المومسات في أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذنها راعية لمن ونصيرة . وكانت بعض المدن في بلاد اليونان تحتفل بالأفرديسيا عيدها العظيم في أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسي لكل من شاء^(٣٥) . وكانت هي إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهي المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردة الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

- التي لا تكاد تقل سخريتها عن سخرية التاريخ - زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالانصال بأريس ، وهرمس ، وبوسيدن ، وديونيسوس وبكتيرين من الآدميين مثل أنكيسيز وأدنيس^(٥) . وقد أهدى إليها باريس في مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن نعلمها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد بركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذي جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبتنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين نهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه بوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يعاثل عند اليونان نبتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه في مملكته المائتة أنه ند زيوس وقربنه ، وحتى الأمم التي نعيش في داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذي يهدى المجارى العجيبة التي تسير تحت الأرض إلى طرفها ، والذي يحدث الزلازل بأمواج المد^(٦) . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات . ويشيدون الهياكل على ألسنة الأرض الخطرة الممتدة في البحار ليتقوا بها غضبه . وبشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأنها حتى على جبل أولمبس ، لأنه تجسيد المعاني المجردة لم يكن يقف عند حد . فن هذه هستيا (وهي فستا عند الرومان) إلهة

(٥) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعثها في كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الرسم كل من أفرديتي وپرسفوني إلهي الحب والموت . وحسد أريس أرتيمس على حظوته لدى أفرديتي ففتكر في صورة خنزير يرى وقته . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفرديتي أنهار من الشعر ، وألغى زيوس الإلهين أن تقدم بينهما وقت أدنيس والغاة ، فيق نصف العالم مع پرسفوني في هاديز (الجحيم) ، ثم يعيد إليه في النصف الثاني حياته الأرضية وحيه الدنيوى . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيتييمون له عيد الأودونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب ؛ (لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس) . ويندين موته بأهل أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر بيوم^(٦) .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris (قوس قزح) ورسول زيوس في بعض الأحيان ، ومنها هيبى Hebe إلهة الشباب ، ولإيليا التي تعين النساء على الوضع ، ومنها ديكى Dike أو العدالة ، ومنها تيكي Tyche الفرصة ، وإيروس Eros الحب الذى جعله هزبود خالق العالم والذى سمته سافو « مذيبة الأضلاع ، الحلو - المر ، الوحش الضارى العنيد » (١) . وكان هيمينيوس Hymeneus ، نشيد الزواج ؛ وهينوس Hypnos النوم ؛ وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وجيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe النسيان ؛ وثنانوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطئه الحصر . وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ، ويوتربي Euterpe للشعر الغنائى الذى يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپومنى Melpomene للمآسئ ؛ وترپسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو Erato للشعر الغزلى والمزلى ؛ وبولنیا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا Urania للفلك ، وكليوبي Colliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث إلهات للرحمة لما اثنا عشر تابعاً هى الساعات . وكان من هذه الآلهة الصغار تمسيس الذى يوزع الخير والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من يرتكب جريمة الهبريس hybris - الزهو فى أيام الرخاء . وكان منها الإربنيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التى لا تترك ظملاً إلا انتقمت له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أى مريدات الخير تجملاً منهم لما ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم المويراى Moirai أى ربات الأقدار والحظوظ اللاتى كن ينظمن شئون الحياة تنظيماً لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض فى حظوظ الآلهة والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليونانى ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعى وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكو' الآلهة اليونانية إثارة للتعب ،

وأجبا إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذى لم يقبل بين آلهة أولمبس إلا فى أخريات أيامه . ذلك أنه كان فى أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تنبه تلك البلاد إلى اليونان . وكان فى موطنه الأصلي إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان فى بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السُّكَّر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذى مات لينجى البشر . واختلطت عدة صور وأفاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطورته ، فكان اليونان يتخيلونه فى صورة زجربوس Zagreus أى « الطفل المرقن » ، الذى ولد لزربوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولما حدثته هيرا على منزلته وأغرته الجبابة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلوني Trelownay ، فألقذت قلبه وحملته إلى زيوس ، وأعطاه زيوس إلى سميلي Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور يبعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(*) وقد فسر ديودور الصقل من زمن بعيد يرجع إلى عام ٥٠ ق. م. إلهة تسمى دلي . أنها أسطورة من أساطير الإنيات فقال إن زجربوس ، الكرم ، هواين دمر ، الأرض ، بعد أن لقمها زيوس ، المطر . ويقطع ، أى يشذب ، الكرم كما يتناع الإله ليحيى حياة جديدة ، ويفل عسبر للعنب ليكون ثيبداً . ويولد الكرم مولداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يستمد غذاءه من المطر(٤١) وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مثاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الإديار(٤٥)

في فصل الربيع حين تزهو الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكبرون غير المتدينين في هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن في موكب عجاج تقودهن ميندات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بدونيسس ؛ وكن يرهفن آذانهن لسماع قصته التي يعرفها حق المعرفة ، وما لقيه إلهن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن في أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن احتياجا يتحللن فيه من جميع القيود . وكان محور هذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل في بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه لإربا وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقلدا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن في هذه الحماة القدسية(*) يؤمن بأنهن سيبصحن هن والإله شيئا واحدا ، وأنهن سيفظرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفيا . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبدا ، أو كن يسمين الحالة التي هن فيها الإكستيز ecstases (النشوة) أي خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن في واقع الأمر إلهات . تلك هي الطقوس الانفعالية التي انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء ديني شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع اقلية في أثر إقليم من آلهة أولمبس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحِل محلها دناء طقوسا تشبع شهوة الاحتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التحمس

(*) ولفظ الحماة الإنجليزي enthusiasm مشتق من إثنوس Enthos « إله في الداعل » وكان هذا اللفظ يعني في أول الأمر تماك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلنى أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلنى عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ما كان فى مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس فى زمرة أرباب أولمبس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيدة احتفالا رسمياً ، وتبديل مرح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغاني القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التى تمثل فى عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أهلو ، ولكن أهلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .

الفصل الثالث

أسرار خافية

لقد كان في دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضي ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبي ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفي ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل پلاسجى - ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتها من أصل أخى - دورى ، وثالثهما وثالثتها من أصل مصرى - أسوى . وكانوا يعبدون في المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفي الثانية آلهة سماوية وفي الثالثة آلهة بعثت بعد الموت . وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة - الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية في أثنائه والثالثة بعده . ولم يكده يحل عصر الاستنارة في أيام هركليز حتى كان التخفى أقوى العناصر في الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس في العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو نجى ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعدُّ أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة في بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلوسيس من هذه الناحية . وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخين ، ويبدو أنها كانت في الأصل احتفالا في الخريف بالحرق والزرع^(١٣) . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن ديمتر أرادت أن تكافئ أهل أنكا لعطفهم عليها في نجواها فأقامت في إلوسيس أعظم هيكل من

هياكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمر في أيام أثينة صولون وبيستراتس وهركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التي تقام في فصل الربيع بالقرب من أثينة يتطهرون أولاً بأن يغمرُوا أنفسهم في ماء إلبسس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام في وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلاً في الطريق المقدس إلى إلويسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضي ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلويسيس في ضوء المشاكل ووضع صورة الإله في الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقي من اليوم في الرقص والغناء المقدسين .

تلك هي الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تلوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا في الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس في مثل ذلك الموعد من العام الماضي فكانوا يؤخّلون إلى هو الاندماج في الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السرى . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً لإحياء لذكرى دمر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الخنطة والماء ، ويأكلوا كمكاً مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث في ذلك المكان ، فذلك شر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجا إسكلس التقي نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر في إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف بولتو ليرسفوني ، وتجوّال دمر الخزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأنكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هي زواج خفي بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمر ،

وكان هذا الزواج الرمزي يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل - على ما ينقله لنا المؤرخون - إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ، ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التي تمخضت عنها ديمتر - نتاج الحقل ، ثم يؤخذ العابدون في ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلألأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التي ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم في نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدته الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركوا طمأنينة الاندماج في الألوهية^(٤٤) .

وفي عصر بيسستراتس دخلت أسرار ديونيسس في الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله ياكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفوني ، وطفعت خرافة ديونيسس زجربوس على أسطورة ديمتر^(٤٥) . ولكن الفكرة الرئيسية في هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدية في الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليوناني ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج في الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التي هي أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذي غزت به المسيحية العالم الغربي .

وجاءت إلى بلاد اليونان في القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتساليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً في تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد في بداية هذه الطقوس في عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقي الذى يصفه ديودور بأنه لم يكن يدايه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال فى الثقافة والموسيقى والشعر^(٦) ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسبب إلى الأساطير . فهم يصورونه لنا فى صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، المعطوف ، وهو تارة موسيقى ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا فى العزف على القيثارة وفى الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته . وتزوج أرفيوس من يريديس الحسناء ، وكاد يجن حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر پرسفونى بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يريديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصل إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبراً على هذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى وراءه عند آخر حاجز بينه وبين سطح الأرض ، فراها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلى . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبى أن يسلى نفسه معهن فزقته إربا فى نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنهن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء^(٧) . ودفن رأسه وهو لا يزال يغنى فى لسبوس فى شق صار فيها بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل فى هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها فى أى مكان آخر^(٨) .

وقبل فى العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغاني الدينية ؛ وليس بعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغاني فى عام ٥٢٠ ، كما نشرت

(٥) هى المعروفة فى الفلك بكوكبة السر الواقع . (المترجم) .

القصاصات المومرية قبل ذلك بجيل من الزمان ؛ وفي القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغاني قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلق عليها كثيراً فيما تنطوي عليه من عقائد دينية وفي طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت في جوهرها تأكيداً لعذاب ديونيسس زجريوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يعيشون في حياة مستقبلية يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها . وإذا كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشيء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن في الجسم كأنها في سجن أو قبر ، ولكن في وسع بني الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوي لهذا السبب في روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون في عشاء رباني جماعي لحم ثور نيئاً ، يمثل في اعتقادهم ديونيسس ، لإحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد^(٤٨) .

ويقول علم اللاهوت الأرفي إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلي على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه في هذا الحساب النهائي الشامل ، شأنها في هذا شأن كتاب الموتى عند قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فمن قول إن هذا العقاب أبدي^(٤٩) وهو الذي أخذت منه فكرة النار فيما بعد ، وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أي أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيا حياة أسعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تطهيراً تاماً فيسمع لها بالدخول في جزائر المنعمين^(٥٠) . وهناك قول

ثالث بيعت الأمل في قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذى يلقاه الميت في
الحجيم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه
بعد موته ، وهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ، ويصف
أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه
الصكوك في أثينة في القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المتنبئون المنسولون أبواب الأغنياء ويدخلون في روعهم أنهم
قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب
من التضحية والرقى . . . ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من
الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس . . . يمارسون منها طقوسهم ،
ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتأتى
بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية (الاحتفالات) التى يشغلون بها
ساعات الفراغ التى يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ،
وهم يسمون العمل الأخير (الاحتفالات) طقوساً خفية ، ويدعون أنها
تنجينا من عذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا
من عذاب (٥١) » .

على أن الألفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هى التى
أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهينة فى المسيحية . ذلك أن ما كان
يعزى إلى آلهة أولمبس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون
صارم للسلوك ، وثل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية
أرفيوس الظرفية بنفس الطريقة التى ثل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح
فيما بعد . ودخلت فى التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية
إلى الجسم والروح ، التى تقول إن الجسم خيىث وإن الروح مقدس ،
وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح .
ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة
الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتقشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون في اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم في تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت في جنوبي إيطاليا (٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها في تعارض الجسم والروح ، وبزعتها التزمية ، وبأملها في الخلود ، وفي وسعنا أن نرجع بعض ما في الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفي ، وقد كان في حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساساً للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر والجنة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذي قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الرباني وهو أكل جسم الإله ودمه وقدميته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد في المسيحية التي كانت هي نفسها ديناً ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية ونحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبادات التي تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا في هذه الأيام .

الفصل الرابع

العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعاً واختلافاً من الآلهة التي كانت تحتفل بها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسَكَّن بها غضبها ويُنقَّى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه في الدولة . بيد أن الحياة في بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير في كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعي والاستقرار السياسي . على أنه بينما كان الكهنة في مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة في بلاد اليونان هي التي تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة في الشؤون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار في الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شؤونها موظفون من قبل الدولة^(٥٣) . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان في استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهناً بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التي تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب في كثير من الأحيان يتولاها من يؤدي له أكبر الأثمان^(٥٤) . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم في معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ، ولم يكن للدولة دين رسمي ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائد

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية^(٥٦) ، وكان في وسع أى إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بأله المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان .

ما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً في الأرض يسكنه إله أرضي أو هيكل لإله أولمبي . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً آمناً يحتمون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤنبونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يتقصون على من يستمتع إليهم كيف تصيب التمثال عرقاً في بعض الأحيان أو كيف بكى أو أغمض عينه^(٥٧) . وكان يحفظ في سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة في حياة المدينة أو الجماعة التي تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنيع الذي استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأناشيد، وقربان ، وأدعية ، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً ، ومقنعات ، وجواهر من الممثلين يعملون مجتهدين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس في معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة في الترانيم أو الصلوات ، مدونة في كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يحب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات المحلية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التي ينطقون بها^(٥٨) ولكن النشوة التي يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحي من ذاكرة المحتفلين كل شيء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه في الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ، نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التي ازدانت بها في الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البديئة ، وعواطف سافو الثائرة المستهرة ، وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح - وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالتضحيات والصلوات . وكان في وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شيء قط : - تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان في وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسوفون العشرة الآلاف في أثناء ارتدادهم^(٥٩) . وكان في مقدور الجماعات أن تنهب تمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهي الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يضحي بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجمونون مثلاً بإفچينيا كي تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثني عشر من شباب طروادة على كومة حريق پتركلوس^(٦٠) . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء لأهللو ، وآخرون يهلون إلى ديونيسس في

طشيوز وتندوس ؛ ويقال إن ثمستكلز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس^(٦١) ؛ وكان الأسبارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا Artemis Orthia بجلبد بعض الشبان عند مذبحها جلدأ كان يلوم في بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين^(٦٢) . وظل زيوس في أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثاني بعد الميلاد^(٦٣) . وكان إذا انتشر الوباء في مساليا جرى بمواطن فقير وأطمع من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سينآت مواطنيه^(٦٤) . وكان من عادة أهل أثينة إذا دامهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلاً ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا في كل عام في عيد التارجليا (*) Thargelia^(٦٥) . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخذرون بالخمر ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بلييداس Belopidas القائد البثوني في الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق . م) حلمأ ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلبي الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الممجى المجرى من كل معاني التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عاليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين^(٦٦) » .

(*) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوي Pharmakoi في أثينة وكان معنى هذا اللفظ في أول الأمر السحرة . . ومعنى فارمكون Pharmakon دواء سحري ، ثم أصبح معناها عقاراً شافياً^(٦٦) . والعلماء يحفظون هل كان الفارمكوي يقتلون في الواقع أو لا يقتلون ، غير أنا لا نكاد نشك في أن القتل في أول الأمر كان يحدث فعلاً^(٦٧) .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة كبرى في تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التي سبقت غيرها في هذا التطور في بلاد اليونان هي الثيران والضأن والخنازير ؛ فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها في النصر ؛ وكان مكان انعقاد أية جمعية يظهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حزبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من التضحية إلى الإله إلا عظامها وقليل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقى منها فكان يترك للكهنة وللعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن بزميثيوس Prometheus في عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم التضحية في جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد أتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر^(٦٩) . ولم تكن التضحية تقدم كلها لحملها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله في هذه الحال يحرق في محرقة عامة حتى يصبر رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضي ، لأن هذا قد يغرى الإله بالخروج والاشتراك في الوليمة . أما بعد التضحية للآلهة الأولية فقد كان العباد يأتون على التضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفاً من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعي سرورهم أن يشتركوا في الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التي ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت في التضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الخمر يصب فوق التضحية ، ويصب بعدئذ في كؤوس العابدين ، حكائهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة^(٧٠) . وكانت فكرة الاشتراك المقدس

فى الوجبة الدينية هى الرابطة التى تربط هيئات الإخوان thiosol التى كان
كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها فى أئينة (٧١) .

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة فى جميع أنحاء بلاد اليونان حتى
قضت عليها المسيحية (٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضحية الروحية
والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلاً من
التضحية حتى فى العصور الوثنية . وكان استبدال تسيحات الحمد بالقرايين
الدموية إصلاحاً يشهد بالحذق لفاعليه ، فهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان
فى استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادقات والمآسى فى كل خطواته أن
بتأسى ويتقوى باستعائته بما فى العالم من قوى خفية .

الفصل الخامس

الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوى والسفلى ، الأولي والأرضى ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقة الذين سنشيد بذكورهم فيما يلى من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من الفقراء والسذج الذين لم يكن الدين فى نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للأمال ؛ ولم يكن اليونانى العادى يكتفى بتصديق القصص التى تروى المعجزات كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب فى مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس^(٧٢) ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهى جزء من الشعر المباح المغتفر الذى ينبر به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن فى وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام ثيسوس ، وحرص اسبارطة على أن تسترد من تيجيا Tegio عظام أرسيتيز Orestes^(٧٣) ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذى كان ينبغ بكلكلة على اليونانى الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التى يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف مخبأته ، وأن تتدخل فى شئونه وتلتحق به الأذى ، وأن فى مقدورها أن تفعل به هذا كاه . وكانت هذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تنقمه ، وكان عليه أن يحذرهما ويتقى أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علما من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجراثيم التى نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليونانى أن المريض قد حل فيه روح غريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض يعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » . وليست المكروبات والبكتريا إلا صورا جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه كريس Keres أو الجن الصغيرة^(٧٥) . ومن ثم كان الميت « نجسا » لأن الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليونانى إذا خرج من بيت فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ، وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره^(٧٦) . وقد امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث رغم ما ينتابنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمد) ، وكان الطفل المولود نفسه نجسا . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب فى جسم المصاب به ، وكان يقال إن الجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لابد فى هذه الحالات من القيام باحتفال يظهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ، والمياكل ، والمدن بأجمعها فى بعض الأحيان ؛ تطهر بالماء أو الدخان كما تطهرها نحن الآن^(٧٧) ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول التطهير ، وكان فى مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز ؛ أو بقراءة العزائم ، أو بالسحراً أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراسم الملائمة . ولم تكن التوبة ضرورة محتومة فى مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراسم التطهير قد أسببت اليونانى المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شهاباً عجيباً الشعور بالخطيئة عند طائفة المتطهرين المتزمتين (البيورتان) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتى الضمير والخطيئة لا يكاد يبق له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون فى جو من الأرواح ماثات من الخرافات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسو ، فى جزء من كتابه الأفعال فقال :

يبدو أن الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل المخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع فى فمه قطعة من ورقة شجرة فى معبد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار فى الشارع . وإذا أبصر أفعى فى بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره فى البقعة التى أبصرها فيها ، وإذا مر بأحد الحجارة المساء المقامة فى مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنيتته ولم يواصل السير فى طريقه إلا بعد أن ركع له ويتعبد ، وإذا قرص فأرجعة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، وخلص من النذير المشتم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره (٨٠) .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لا حصر لها من العقاريت . وكانت مدن بأكملها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كمولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين (٨١) . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشومة منتشرة إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون فى هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا يجتمع فيها محكمة ، ولا يبدعون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكفى فى بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاتر على العلول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئى يكفى

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب بكارثة مدلهمة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة عجيبة على إنزال النعمة ممن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة في فنون السحر ، فكان في وسعهم أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواءً مقوياً للباه ، وكان في وسعهم أن يضعفوا ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجوع أو يعقموا المرأة فلا تحمل أبداً^(٨٢) . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره^(٨٣) . فليست الساحرات إذن من اختراع العصور الوسطى ، فهى ذى ميديا في روايات يوربيلز ، وسميثا Simætha في روايات ثيوكريتس وهما ساحرتان . وقصارى القول أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت في خلال أحقاب المدنية لا تكاد تتغير في قواعدها وأصولها ولا في صورها وأشكالها .

الفصل السادس

المتنبئون والمتنبآت

لقد خيل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون في عالم مليء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم في أمرهم ، وكان هؤلاء ينبئون بالمستقبل بالنظر في النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والجوش والدول (٨٤) ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربي القرابين وزاجري الطيور وقارئ الغيب (٨٥) . ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقى ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر في البلاد في أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان في أيونيا بنوع خاص نساء يسمين سييلات Sibyls (أى إرادة الله) يذعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان (٨٦) ، ويقال إن واحدة من أولئك السييلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إيرثرا Erythra ثم استقرت في كومي بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سييلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان في أثينة ، كما كان في رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ في بهو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم (٨٧) . وكان في كثير من الهياكل المنتشرة في جميع أنحاء اليونان متنبئون عمرميون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً في الأيام القديمة متنبئ زيوس في دودونا Dodone

كما كان أشهرهم في العصور التاريخية متنبئ أبلو في دلفي . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل للرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحي من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن في غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة في الأرض تحت الميكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التي قتلها أبلو في ذلك المكان . وكانت الكاهنة التي تستلقى الوحي تجلس على نضد عال ذي ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدر ، فتغيب عن وعيها ويتقلص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحي وهي في هذا الحال ، فتتطرق بالفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائي يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث^(٨٨) . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة في أيدي غيرهم ، وكانوا في بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يحب الراشون أن ينطقوه به^(٨٩) ، وكان صوت المتنبئة ينفق في أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر في بلاد اليونان^(٩٠) . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغب الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فلأنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة في الاعتدال والحكمة السياسية ، فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير في تحرير الرقيق ، وقد اشترى عدداً كبيراً من الأرقاء لكي يحرروهم من الرق ، وإن كنا لا ننكر أنهم تفاضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان يتفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولمبس من فساد خلقي . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليوناني ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا في سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التي تملها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضا القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولى والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة ، وبفضل هذا الأثر الموحد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ، وكانت جامعة المندوبين اليونان — الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic — فى أول أمرها حلفاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكلى دمتى القريب من ممر ترموپلى . وكانت أهم الدول التى تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثيوتس Phthotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبوؤتية ، وعويية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، فى الربيع فى دلفى ، وفى الخريف فى ترموپلى ، وقد تعهدوا بالألا يخرب بعضهم مدن بعض ، وألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، وألا ينهاكوز أهلو فى دلفى أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كومت تساليا جبهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة (١٢) . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلاً عضواً فى عصبه كلوريا Calauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .

الفصل السابع

الأعياد

إن لم يكن في مقدور الدين اليوناني أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح في تخفيف متاعب الحياة الاقتصادية الرثية بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التي قال فيها أرسطوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقدم إلى الآلهة من ضحايا ، وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتمائيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد في كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر ، تقرب للآلهة » (٩٣) . وكانت نفقات هذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة *theorika* ، ومنها تؤدى للشعب رسوم الدخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التي كانت تتماز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثيني تقويمياً دينياً في جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففي الشهر الأول شهر هكسميون *Hecatombaion* (يولييه - أغسطس) يقام عيد الكرونيا *Cronia* (المقابل لعيد الساتورناليا الروماني) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد في وليمة بهجة طرية . وكان يقام في هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتعتقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تلوم أربعة أيام ، يسير الأهليون جميعاً بعدها في موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذي كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ، والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذي اختاره فدياس ليزين به طنف البارثنون . وفي الشهر الثاني المتاجيتيون *Metageitnion* كان يقام المتاجيتيا وهو عيد صغير يقام تكريماً لأبلو . وفي الشهر الثالث شهر بوذرميون *Boedromion* كان سكان أثينة يخرجون إلى إلوسيس لإقامة الطقوس .

الكبرى الخفية . وفى الشهر الرابع شهر الهانيسيون Pyanepsion كان يحتفل بأعياد الهانيسيا والأسكوفوريا Oskophoria والشموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة فى هذا الشهر يعظمن دمر ثموروس (المشرعة) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الحميم والعودة منها ، ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب فى الأرض وفى الآدميين^(٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالى من الأعياد .

وفى شهر پوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإنالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفى شهر جمليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفى شهر أنثسترن Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفى هذا العيد الربيعى الذى يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر^(٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره فى كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتتزوج به فى الهيكل رمزاً إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى فى هذه الطقوس المرحاة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون فى وقار وهذوء وجبة من الطعام لإحياء لذكرى آبائهم ، ويتركون لهم آنية مملئة بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونها ويقولون فيها : « أخرجى من الباب أيها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنثستريا » - وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلاً يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح (*) .

وفى الشهر التاسع شهر إلفيوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده بيستراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل ثيسيس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدحمت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأغلقت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشاركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليويثزا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات تلهى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أنكا تتبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد المنيكيا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البرورونيا Brauronia تكريماً لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفر يون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، ودبوليا Dipolia وبوفنيا Boupbonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى ما لم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقدسة شبيهة بهذه الأيام ، وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الربيع يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوروبا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولوا لها وليلة فى « عيد جيم الأرواح » (٩٦) .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia في ميكالي Mycale وعيد
أبلو في ديلوس ؛ والعيد الهيثي Phthian في دلفي ، وعيد البرزح Isthmiu في
كورنثة ، والعيد النيثي Nemean في أرجوس ، والعيد الأولمبي في إلبيس .
وكانت تقام في هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها
كانت في أساسها أياما مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان
دينها من العناصر البشرية — وأن كان فيها في آخر أيامها من العناصر الإنسانية
الرحيمة — ما يكفي لاقتراحه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ،
واقترانه آخر الأمر بالأخلاق اقتراناً جعله مصدر السرور والإبداع .

الفصل الثامن

الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليوناني لم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق ، فقد كان في أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس في هذا الدين شأن أكبر مما للسواك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلاً طيباً في الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر في النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث في النفوس آمالاً كباراً . وفي ذلك يقول ديوجين الساخر : « سيكون اللص پتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالا من أجسلوس Agesilaus أو أپامينداس لأن پتيكيون قد كرس في إلوسيس » (٩٧) .

لكن الدين اليوناني ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة في أكثر الشئون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمي الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمي بحبوتها قدسية الأيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن يوميندس Eumenides الرهيب كان يقنن

أثر القتاتل ، كما بفعل أرسنيز ، حتى يمن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها — كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة — ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلها لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هذا اتحاداً مقدساً وتتابعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضي السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وتربط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً محوياً يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل في روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقبوره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر في حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعي الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم وميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئاث من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً في الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤله ، وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو للدور القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ، وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تحيط بها الاحتفالات والتضرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليوناني يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الديني في بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ پندار ، وإسكلس ، وسفكليز ينفثون حماسهم الأخلاقية أو فطنهم في العقائد الأولمبية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن پروتجراس كان يشك في الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يأبه بها ، ودمقريطس يحجدها ، ويورپديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذي صاغ الحياة الأخلاقية في بلاد اليونان في القالب الذي وجدت فيه .

الباب التاسع

الثقافة المشتركة لبلاد اليونان

في عهدها المبكر

الفصل الأول

فردية الدولة

بلغت الثقافة الأوربية قمة مجدها في بلدين : اليونان القديمة وإيطاليا في عهد النهضة . ولم تكن تعتمد في كلا العهدين على نظام سياسى أكبر من دويلات المدن : ويغلب على الظن أن الأحوال الجغرافية قد أعانت بلاد اليونان على أن تصل إلى هذه النتيجة . ذلك أن الجبال ومجارى المياه تعرض السائر فيها أينما ذهب ؛ وكانت القناطر فيها قليلة والطرق وعرة وغير معبدة . نعم إن البحر كان طريقا عاما مفتوح الأبواب ، ولكنه كان يربط المدينة بأخواتها من المدن التجارية لا بما يجاورها من المدن . على أن الأحوال الجغرافية لا تفسر وحدها قيام دول المدن ، فقد كان هناك من أسباب الانفصال بين طيبة وبلاتية القائمتين على نفس السهل البؤوى بقدر ما كان بين طيبة واسبارطة ؛ وكان بين سيياريس وكروتونا القائمتين على نفس الساحل الإيطالى من دواعى الانفصال أكثر مما كان بين سيياريس وسرقوسة . إن علينا أن نضم إلى العوامل الجغرافية عوامل أخرى كثيرة ، فاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية باعد بين المدن وجعلها يحارب بعضها بعضا

للحصول على الأسواق أو الحبوب ، أو تكون أخلاقاً متنافسة للسيطرة على المسالك البحرية . ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على هذا الانفصال اختلاف أصول السكان . نعم إن اليونان كانوا يرون أنهم كلهم من عنصر واحد ، ولكنهم كانوا شديدي الإحساس باختلاف القبائل التي ينتمون إليها - الإيولية ، والأيونية ، والآخية ، والدورية - ومن أجل ذلك كانت أثينة واسبارطة تحقد كلتاها على الأخرى حقدا لا يقل عن حقد العناصر المختلفة في هذه الأيام . وقوى اختلاف الأديان الانقسامات السياسية ، كما زادت هذه الانقسامات ما بين الأديان من اختلاف ، فقد نشأ من الطقوس الدينية التي اختلفت بها بعض الأماكن أو بعض القبائل أعياد خاصة ، وتقويم خاصة ، وعادات ، وشرائع ، ومحاكم تختلف باختلاف المدن ، بل إن هذه الطقوس قد أقامت في بعض الأحيان حدوداً بين المدن ، وذلك لأن أحجار الترخوم كانت فاصلاً بين ممالك الإنه ، كما كانت فاصلاً بين المجتمعات البشرية لأن من الواجب المحتوم أن يكون دين الإقليم هو دين حاكمه *cujus regio, ejus religio* . وكانت هذه العوامل مجتمعة هي وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هي التي أوجدت دول المدن اليونانية .

ولم يكن هذا طرازاً جديداً من النظم الإدارية ، فلقد رأينا أنه كانت في بلاد سومر ، وبابل ، وفينيقية ، وكريت ، دول مدن قبل هومر وهركليز بمئات السنين أو آلافها ، وكانت دولة المدينة من وجهة النظر التاريخية هي بعينها مجتمع القرية في مرحلة من الامتزاج أو التطور أعلى من مرحلته القروية - وكان لها سوقها المشتركة ، ومكان اجتماعها ، ومجلس قضائها للفصل في منازعات الأهليين الذين يحرثون ما يجاورها من أرض زراعية ، وكان أهلها من أصل واحد يمدون إليها واحداً .

أما من الناحية السياسية فقد كانت دولة المدينة عند اليونان خير ما يستطيعون

الوصول إليه من وسائل التوفيق بين العنصرين المتناقضين اللذين يتألف منهما المجتمع الإنساني ، واللذين يتناوبان الغلبة عليه ، وتقصد بهما عنصر النظام ، وعنصر الحرية ، فالمجتمع الصغير لا يأمن على نفسه من الاعتداء ، والمجتمع الكبير يصبح مجتمعا استبداديا . وكانت أكبر أمنية للفلاسفة أن تتكون بلاد اليونان من دول - مدن مستقلة ذات سيادة تتعاون كلها داخل نظام فيثاغورى موثلف منسجم . وكانت فكرة أرسطو عن الدولة أنها جماعة من الأحرار يخضعون للحكومة واحدة ، ويستطيعون الالتقاء في جمعية واحدة ، وكان يرى أن الدولة إذا زاد عدد مواطنيها على عشرة آلاف تعجز عن إدارة شئونها . ومن أجل هذا كان لفظ واحد - پوليس Polis - يطلق على المدينة والدولة في بلاد اليونان .

وما من أحد يجهل أن هذا التفتت السيامى قد جر على بلاد اليونان كثيرا من المآسى بسبب ما قام بين أهلها وهم إخوة من نزاع . فقد خضعت أيونيا لسيطرة الفرس لأنها عجزت عن أن تتحد للدفاع عن نفسها ؛ وضاعت في آخر الأمر تلك الحرية التى كان اليونان يعتزون بها ويقدمونها لأن بلاد اليونان لم تستطع الثبات متحدة في وجه أعدائها رغم ما أقامته من أحلاف وعصب . ولكننا نعود فنقول إنه لولا دول - المدن لما كانت بلاد اليونان ؛ ولولا شعور اليونان بالفردية المدنية ، واعتزازهم الشديد باستقلالهم ، ولولا ما كان بين أنظمتهم وعاداتهم وفنونهم ، وآدابهم من تباين ، لما كان ما بينهم من تسابق وتنافس حافزا لهم على أن يحجوا حياة إنسانية كاملة فيها من الهامة والإبداع ما لا نظير له في أى مجتمع آخر . وهل في وقتنا الحاضر نفسه رغم ما فيه من حيوية وتنوع ، وما يمتاز به من آلات ضخمة وقوى جبارة ، مجتمع في حجم المجتمعات اليونانية أو في عدد سكانها يستطيع أن يهب المدينة من النعم قدر ما وهبتها حرية اليونان المضطربة التى كانت هى والفوضى سواء ؟

الفصل الثاني

الكتابة والقراءة

على أنه كان في حياة هذه الدول ، ذات النزعة الانفصالية القوية ، عدة عوامل مشتركة . منها أننا نجد في شبه جزيرة اليونان كلها منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد لغة واحدة تنتمي إلى مجموعة اللغات « الهند - أوروبية » التي تشمل الفارسية والسنسكريتية ، والسلافونية ، واللاتينية ، والألمانية ، والإنجليزية . ولما لنجد لآلاف الكلمات التي تعبر عن العلاقات الأولية في حياة الناس ، أو عن الأدوات التي كانوا يستخدمونها ، أصولا مشتركة في هذه اللغات جميعها ، وهي لا تدل فقط على قدم مسميات هذه الكلمات وانتشارها في البلاد التي تنطق بهذه اللغات ، بل تدل كذلك على ما بين الشعوب التي كانت تستخدم المسميات في فجر التاريخ من قرابة أو رابطة (*) . نعم إن اللغة اليونانية قد تشعبت لهجات مختلفة - الإيولية ، والدورية ، والأيونية ، والأتيكية ؛ ولكن الناطقين بهذه اللهجات المختلفة كان يفهم بعضهم بعضا ؛ ثم خضعت كلها في القرنين الخامس والرابع إلى لهجة مشتركة koine dialektos انبثت معظمها من أثينة ، وكانت تنطق بها الطبقات المتعلمة كلها تقريبا في العالم اليوناني بأكمله . وكانت اللغة اليونانية الأتيكية لغة جزلة ، قوية مرنة ، حلوة النغم ، فيها من الشلوذ مثل ما في أي لغة حية ، ولكنها تقبل في سر كل التراكيب التي تجعلها صالحة للتعبير عن أغراضها ، وفيها التدرج والاختلاف الدقيق في المعاني ، وفيها المبركات الفلسفية الدقيقة ،

(*) قارن في هذه اللغات المختلفة الألفاظ الآتية damas (منزل) في السنسكريتية ، و domos في اليونانية و domus في اللاتينية ، و tim-ber الإنجليزية ؛ و thyra ، davaras ، و fores ؛ و joines ، venas ، و (؟) vianum ، urine ؛ و nave ، navis ، naus ؛ و akshas ، yoke ، iugum ، zygon ، iugam ؛ axis ، axis ، axon . الخ .

وفى جميع أنواع التعبيرات الأدبية السامية الرفيعة من شعر هومر الطنان الرنان إلى نثر أفلاطون المادى الواضح السلس (*) .

وتعزو الرواية اليونانية المتواترة إدخال الكتابة فى بلاد اليونان إلى الفينيقيين فى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وليس لدينا ما ينقص هذه الرواية ، بل إن بين الكتابات اليونانية التى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع وبين الحروف المنقوشة على حجر موآب فى القرن التاسع تشابها كبيرا (٣) . من ذلك أن النقوش اليونانية كتبت على الطريقة السامية من اليمين إلى اليسار ، وفى القرن السادس كانت (كالنقش الذى وجد فى جورتيثنا Gortyna) تنقش من اليمين إلى اليسار فى أحد السطور ثم من اليسار إلى اليمين فى السطر الذى يليه وهكذا دواليك ، ثم أصبحت بعد هذا تنقش من اليسار إلى اليمين على الدوام ، واستلزم هذا قلب وضع الحروف فصار حرفا B ، 3 يكتبان هكذا B ، E . كذلك سميت الحروف بأسمائها السامية مع تعديلات طفيفة (**) ، ولكن اليونان أدخلوا على هذه الأسماء تغيرات أساسية ، أهمها أنهم أضافوا إليها حروفا للحركة لانجدها عند الساميين ، فاستخدموا بعض الحروف السامية الساكنة ، وحروف التنفس لتمثيل الحركات التى تدل عليها a ، e ، i ، o ، u وأضاف الأيونيون فيما بعد حروف المد إيتا eia (e الممدودة ، أو mega-o (تمثل o الممدودة أو o المزدوجة) . وأخذت - شرب أبجديات يونانية مختلفة ينازع بعضها بعضاً ، فكان هذا النزاع

(*) لسانا نعرف كيف كان نطق الألفاظ اليونانية القديمة . وقلما كان اليونان فى عصرهم الزاهر يمتنون بالنبرات التى تضاهيها كثيرا فى هذه الأيام ، ولكنها قد دخلت فى النصوص القديمة على يد أرسقيز البيزنطى فى القرن الثالث قبل الميلاد . ولهذا يجب أن نفعل هذه النبرات حين نقرأ للشعر اليونانى

(**) قارن مثلا الحرف اليونانى ألفا والفينيقى ألف (الثور) ؛ وبينما اليونانية وبت (غيمة) الفينيقية ، ونما اليونانية وجل (جل) الفينيقية ؛ ودلتا ودالت (باب) ؛ 1 - بسلون ، وهى he (نافذة) ، وزيتا وزين (حربة) وهيتا وخت (سيلج وأبوتا ويد (يد) وهكذا .

جزءاً من الحروب القائمة بين دول - المدن ، وتغلبت الحروف الهجائية الأيونية في بلاد اليونان ثم انتقلت منها إلى أوروبا الشرقية وبقيت فيها إلى اليوم ، أما رومة فقد اتخذت الحروف الخلقيدية Chalcidian من كومي وهي التي أصبحت الحروف اللاتينية والحروف الإنجليزية . وكانت الأبجدية الخلقيدية يتقصها حرفا ال e وال o الممدودان ، ولكنها فعلت ما لم تفعله للأبجدية الأيونية فاستبقت vau الفينيقية حرفاً ساكناً (وهي ال v التي بقرب نطقها من نطق حرف w) ؛ ومن أجل هذا كان الأثينيون يسمون النبيذ oinos والخلقيدون يسمونه voinos والرومان يسمونه vinum والإنجليز يسمونه wine . كذلك استبقي الخلقيدون حرف koppa أو q وانتقل منهم إلى رومة ثم إلى اللغة الإنجليزية ، أما أبونيا فقد أهملته واكتفت بحرف k وكتبت أبونيا حرف l بهذه الصورة A ، أما كلسيز فقد كتبت l ؛ وعدلت رومة هذه الصورة الثانية فجعلتها معتدلة وانتقلت منها على هذا النحو إلى أوروبا . وكتب الأيونيون حرف R كما نكتب نحن حرف P أما إيطاليا اليونانية فقد أضافت إلى P ذيلاً فأصبحت R^(٤) .

والراجع أن أولى الأغراض التي استخدمت فيها الكتابة في بلاد اليونان كانت هي الأغراض التجارية أو الدينية ، ويبدو أن الرق والتعاويد التي كان يطلوها القساوسة هي مبدأ الشعر ، وأن ما يكتب في أوراق شحن السفن كان بداية النثر . ثم انقسمت الكتابة نوعين مختلفين أحدهما دقيق منتظم للنقوش وما إليها ، والثاني هو الكتابة الدارجة التي تستخدم في الأغراض اليومية العادية . ولم يكن في كلا النوعين نبرات ، ولم يكن يترك بين الكلمات فراغ ، ولم تكن فيهما علامات ترقيم^(٥) ؛ فإذا أريد الانتقال من موضوع إلى موضوع دلوا على ذلك بشرطة فاصلة أفقية يسمونها برجرافون paragraphon أي علامة « تكتب إلى ناحية » ، وكانت المواد التي تكتب عليها متنوعة

فكانت في بادئ الأمر ، إذا جاز لنا أن نأخذ بقول بلني ، أوراق الأشجار أو لحاءها^(٦) ؛ فإذا أرادوا النقش استخدموا الحجارة أو البرنز أو الرصاص . وكانوا يستخدمون للكتابة العادية ألواح الطين كما كان يفعل أهل ما بين النهرين^(*) ؛ ثم استخدموا ألواحاً من الخشب تغطيها طبقة من الشمع ، وكانت هذه شائعة بين التلاميذ قبل أيامهم^(٧) ؛ فإذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً بقي أمدأ طويلاً استخدموا أوراقاً من البردي كان الفينيقيون يأتون بها من مصر ؛ وفي العهد الذي انتشرت فيه حضارة اليونان في خارج بلادهم ، وفي العهد الروماني ، استخدم الرق المصنوع من جلود المعز والضأن أو أغشيتها الرقيقة ، وكانوا يكتبون على ألواح الشمع بقلم معدني ، وعلى ورق البردي والرق بقلم من الغاب يغمس في الحبر ، وكانت الكتابة على الشمع تحمي بنهاية القلم المعدني السميك ، أما الحبر فكان يحمي بقطعة من الإسفنج ؛ ولذلك أرسل الشاعر ماريئال إلى صديق له قطعة من الإسفنج مع قصائده لكي يمحوها « بضربة واحدة^(٨) » . وإن كثيراً من النقاد في هذه الأيام ليحزنهم أن هذا الأدب الجلم لم يبق له الآن وجود .

وليس ثمة ميدان وصلتنا منه الألفاظ القديمة بالكثرة التي وصلتنا من ميدان الكتابة . فكلمة ورق بالإنجليزية paper مأخوذة من اسم نبات البردي papyrus ، وقد أعادت دورة الفلك الطراز القديم لصنع هذه المادة من النبات المضغوط . وكان السطر من الكتابة يسمى باليونانية stichos أي صفا ، وكان اللاتين يسمونه versus أي عودة إلى الوراء ، ومنها اشتقت كلمة verse الإنجليزية . وكانوا يكتبون ما يريدون في صورة أعمدة على قطعة من ورق البردي أو الرق طولها من عشرين قدماً إلى ثلاثين تلف حول عصا . وكانوا يسمون هذا الملف^(**) بيلوس biblos ، وقد أخذوا هذا الاسم من المدينة الفينيقية المعروفة بهذا الاسم والتي

(*) وكانت كلمة Grapheme التي نترجمها الآن بكلمة الكتابة تعني أولاً الحبر .

(**) وكان اللاتين يسمون الملف volumen - أي الملفوف .

كانت تمد بلاد اليونان بالورق المصنوع من نبات البردى . أما الملف الصغير فكان يسمى بيبليون biblicon . وكان الكتاب المقدس (bible) يسمى في أول الأمر biblia أى الملمات . فإذا كان الملف جزءاً من كتاب أكبر منه سمي tomos أى مقطعاً . وكان الجزء الأول من الملف يسمى بروتوكولون protocollon : أى الشريحة الأولى الملففة بالعصا . وكان طرفا العصا يصقلان بحجر الخفاف وبلونان أحياناً ؛ وكان الملف يوضع أحياناً في غشاء يسميه اليونان diphthera ويسميه اللاتين (*) vellum ، إذا استطاع مؤلفه أداء ما يلزم ذلك من النفقات ، أو كان ما كتب فيه ذا بال . وإذا كان من غير الميسور تداول الملف الكبير أو استخدامه في المراجعة فقد كانت المؤلفات الأدبية تقسم عادة إلى عدة مؤلفات ؛ وكانت كلمة biblos تطلق على كل ملف أو جزء من كتاب كبير . وقلما كان المؤلف نفسه هو الذى يقسم كتابه هذا التقسيم . فقد كان الناشرون المتأخرون هم الذين قسموا تواريخ هيرودوت إلى تسعة كتب ، وكتاب توكيديدس في حرب البلوونيز إلى ثمانية ، وجمهورية أفلاطون إلى عشرة ، والإلياذة والأوديسة إلى أربعة وعشرين جزءاً . وإذا كان نبات البردى غالى الثمن ، وكانت كل نسخة من الكتاب تكتب باليد ، فقد كان عدد الكتب قليلاً عند اليونان والرومان الأقدمين (**). وكان التعلم في تلك الأيام الحالية أيسر منه في هذه الأيام ، وإن يكن كسب الذكاء في الزمن القديم لا يقل صعوبة عن كسبه اليوم . ولم تكن معرفة القراءة ميزة عامة عند الأقدمين ، ولذلك كان معظم العلم يؤخذ بالتلقين من جيل إلى جيل أو من صانع إلى صانع ،

(*) واسمها باللاتينية frontes ومنها جاءت foraspiece الإنجليزية ، ومعناها الصورة التى في أول الكتاب .

(**) لقد استطاع العرب رغم هذه الظروف نفسها أن يكتبوا آلاف الكتب التى امتلأت بها المكتبات في العواصم الإسلامية المختلفة ، وهى التى لم يفرغ العالم العرب والأوربي حتى الآن من طبعتها ، وإن كان عليها ألا نفعل في هذه المفاضلة فرق الزمن واتساع رقعة العالم الإسلامى . (العرب)

وكان معظم الأدب يتلوه بصوت جهورى قراء مدربون على أشخاص يتعلمونه بالسماع (*) . ولم يكن فى بلاد اليونان قبل القرن السابع جمهور كبير من القارئین ، ولم تكن فى البلاد دور كتب قبل أن يجمع پوليكراتس Polycrates وبيستراتس مكتبتيهما فى القرن السادس^(٩) . فلما كان القرن الخامس بدأنا نسمع عن وجود مكتبة خاصة ليورپدیز وأخرى للأركون يوكليدز Eucleides ؛ ثم سمعنا فى القرن الرابع عن مكتبة أرسطاطاليس . ولم نسمع عن وجود مكتبة عامة قبل مكتبة الإسكندرية ، كما لم نسمع بوجود مكتبة فى أثينة قبل أيام هديران^(١٠) . ولعل عظمة اليونان فى أيام هرقليز كان مرجعها إلى أن اليونان لم يكونوا يقرؤون كتباً كثيرة أو يقرؤون أى كتاب طويل .

(*) لا يزال الهدف المقصود من « الأسلوب » فى الكتابة ومن علامات الترقى هو تيسير التنفس للقارئ وحسن وقع الصوت على الأذن ، وإن كنا قد أصبحنا نلقى ثقافتنا وغذاءنا العقل بعد انتشار الطباعة عن طريق العين ، وإن كانت الكتابة قلما تقرأ جهرة . وأكبر الظن أن الأجيال القادمة ستعود إلى ما كان عليه الأقدمون فتلقى غذاءها العقل مرة أخرى عن طريق الأذن .

الفصل الثالث

الأدب

لقد كان الأدب من أسباب فرقة بلاد اليونان كما كان من أسباب وحدتها ، شأنه من هذا شأن الدين سواء بسواء . ذلك أن الشعراء كانوا يغنون بلهجاتهم المحلية ، وكثيراً ما كانوا يصفون مناظر أقاليمهم ، ولكن هلاس كلها كانت تستمع إلى أكثر الأصوات فصاحة ، وكانت من حين إلى حين تستحهم على أن يطرقوا موضوعات أعم وأوسع من تلك الموضوعات المحلية الضيقة . ولقد عدا الدهر كما عدت الأهواء الضيقة على هذا الشعر المبكر فأبادت أكثره حتى لم يعد في وسعنا أن نحس بما فيه من ثراء ، وبما كان يطرقة من موضوعات ، وبما يعزى إليه من جزالة اللفظ وجمال الشكل ، ولكننا حين نطوف بجزائر اليونان ومدنهم في القرن السادس قبل الميلاد لا يسعنا إلا أن نعجب بوفرة ما تطلعننا به هذه الجزائر والمدن من الأدب اليوناني قبل عصر بركليز ، وبجودة هذا الأدب . وإن الشعر الغنائي في ذلك القرن لنتعكس فيه صورة مجتمع أرستقراطي كانت فيه المشاعر والأفكار والأخلاق حرة ما دامت تراعى واجبات الأدب وحسن التربية . وقد أخذ هذا الأسلوب من الشعر الحضري المصقول يخنق شيئاً فشيئاً في عهد الديمقراطية . وكان مختلف المبنى متعدد الأوزان ، ولكنه قلما كان يقيد نفسه بقبود القافية . ذلك أن معنى الشعر عند اليونان أن يحس الإنسان ويتخيل ويعبر عن إحساسه وخياله في لغة موزونة(*) .

وبينا كان أصحاب الشعر الغنائي يتغنون بالحب وبالحرث ، كان الشعراء الجوالون يفسدون في مجالس العطاء الملاحم في وصف ما قام به اليونان من

(*) كان الشعر المقلد مقصوراً في الغالب على أقوال المتنبيين وعلى النبوءات الخفية .

جلائل الأعمال . ولقد أنشأت جماعات المغنين على توالى الأجيال طائفة من القصائد الغنائية تدور كلها حول حصار طيبة وطروادة وهودة المحاربين إلى أوطانهم . وكانت الأغاني شائعة مشتركة بين هؤلاء الشعراء ، وكان كل واحد منهم يؤلف قصته من قطع متفرقة أقدم منها عهداً ، ولم يكن منهم من يدعى أنه هو الذى ألف سلسلة متتابعة من هذه القصص . وقد وجدت فى طشيزو جماعة من أولئك الشعراء أطلقوا على أنفسهم الهومريدى *Homeridae* ، وادعوا أنهم من نسل شاعر يدعى هومر ، وهو زعيمهم مؤلف الملاحم التى كانوا ينشدونها فى شرق بلاد اليونان بأجمعه^(١١) . وقد يكون هذا الشاعر الضرب لا وجود له فى الحقيقة بل كان أباً خيالياً ل قبيلة أو طائفة من الناس ، شأنه فى هذا شأن هلن ، ودورس وأبون^(١٢) . ولم يكن اليونان فى القرن السادس يعزون إلى هومر الإلياذة والأوديسة فحسب ، بل كانوا يعزون إليه كذلك كل الملاحم المعروفة وقتئذ ، والقصائد الهومرية أقدم الملاحم المعروفة فى التاريخ ، لكن جودتها فى حد ذاتها وما فيها من إشارات كثيرة إلى شعراء سابقين ، لتوحيان إلينا بأن هذه الملاحم الباقية هى الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة بدأت بالقصائد البسيطة القصيرة ثم تطورت حتى وصلت إلى هذه الأغاني الطويلة « المحيطة » بعضها فى بعض . وألفت فى أثينة فى القرن السادس قبل الميلاد لجنة حكومية — قد تكون فى عهد صولون^(١٣) ، وقد تكون وهو الأرجح فى عهد بيسستراتس — ، فانتقت الإلياذة والأوديسة من بين الملاحم الأدبية الباقية من القرن الذى قبله ، أو لعلها جمعتما بعد مقابلة النسخ الموجودة منها وقتئذ بعضها على بعض ، ثم عزتهما إلى هومر ، ثم نشرتهما — أو لعلها صاغتهما — فى صورة فى جوهرها صورتها الحاضرة^(١٤) .

ومن المعجزات الأدبية أن تصل قصيدتان مستمدتان من أصول متعددة مختلفة إلى هذه الدرجة الفنية العالية . ولسنا ننكر أن الإلياذة تقصر دون الغاية

في مبناها وفي لغتها ، وأن الصور الإيولية والأيونية تختلط فيها اختلاطاً لا يقدر عليه إلا رجل من أهل أزمير يتكلم عدة لغات ، وأن أوزان شعرها مأخوذة من هذه اللهجة تارة ومن تلك اللهجة تارة أخرى ، وأن حبيكتها قد أفسدها كثرة ما فيها من تناقض ، وتغيير في الحطة ، وتوكيد أهمية حادثة ما في بعض المواضع ثم الاستخفاف بشأنها في البعض الآخر ، وتعارض في أخلاق أشخاصها ، وأن أبطالها يقتلون هم أنفسهم مرتين أو ثلاث مرات قبل نهاية القصة ، وأن موضوعها الأصلي - وهو غضب أخيل ونتائجه - يقطعه ويطنى عليه عشرات القصص والحوادث المأخوذة على ما يظهر من قصائد أخرى أدمجت في الملحمة في أجزاء مختلفة منها ؛ لسنا ننكر شيئاً من هذا ولكن القصة في مناحيها الكبرى قصيدة واحدة ، ولغتها جزلة قوية حية ، والقصيدة في جملتها أعظم ما افترت عنه شفاه بني الإنسان^(١٥) ، ولم يكن مستطاعاً أن تبدأ هذه الملحمة إلا في شباب اليونان الناضر النشيط ، أو أن تختم إلا في إبان نضوجهم الفني . وأشخاص الملحمة يكادون أن يكونوا كلهم من المحاربين أو من نساء المحاربين ، وحتى الفلاسفة منهم أمثال نسطور يقاتلون بشجاعة يحسدون عليها . وكل شخصية من هذه الشخصيات كانت موضع تفكير وعطف من مصورها . ولعل أجمل ما في الأدب اليوناني كله هو نزاهته التي تجعلنا نعطف على هكتور تارة وعلى أخيل تارة أخرى . فأخيل في خيمته شخص قد تجرد من صفات البطولة ، غير محب إلى النفوس ، يشكو إلى أمه أن حظاً لا يتفق مع مقامه نصف الإلهي ، وأن أبحمنون قد سرق منه بريسير البائسة وهي أعز ما يمتلك ، ثم يترك اليونان يحصدهم الموت زمراً وهو غاضب في سفينته أو خيمته يأكل وينام ، ويرسل بتركلوس ليلقي منيته دون أن يجد منه عوناً ، ثم يملأ الجوع عويلاً ونحيباً لا يليق بالرجال . وحين يذهب إلى المعركة آخر الأمر ، لا يذهب إليها مدفوعاً بوطنيته بل لأن حزنه على فقد صديقه قد سلبه عقله ، وينسيه غضبه جميع الصفات

الإنسانية فينحدر إلى الدرك الأسفل من القسوة الوحشية في معاملة ليكاهون Lycaon وهكتور ؛ فهو في حقيقته ذو عقل ناقص غير ناضج ، غير مستقر ولا متزن ، ولا سلطان له على نفسه ، تنغص عليه حياته نبوءات الموت . انظر إلى ما يقوله لليكاهون بعد أن سقط على الأرض وأخذ يسترحه : « لا ، يا صديقي ، مت كما مات غيرك ! ماذا يجديك بكائك الذى لا يرجى منه خير ؟ لقد مات پتركولس وهو خير منك . انظر إلى ألسْتُ وسيا طويل القامة أنجبنى أب كريم ، وكانت أمى التى ولدتنى إلهة ؟ ولكن الموت رغم هذا يحوم حولى وتوشك المنية أن تنشب مغالبها فى . ففى فجر يوم من الأيام أو ظهره أو مسائه تختطفنى من بين الأحياء يد لا أعرفها » (١٦) . ثم يلعن ليكاهون فى عنقه دون أن يهم هذا بمقاومته ، ويقذف بجسمه فى النهر ثم يلقى خطبة من تلك الخطب الرنانة التى تزدان بها مذابح الإلياذة ، ويضع بها أساس البلاغة الخطابية عند اليونان . وقد ظل نصف بلاد اليونان بعد أخيل ويتخذها إله (١٧) ، أما نحن فتقبله على أنه طفل ونعفو عن ذنوبه بهذا الوصف ، ومهما يكن ما يقال فيه فإنه من أروع الصور التى أبدعها خيال الشعراء .

وليس الذى يحملنا على أن نواصل قراءة الإلياذة ، حين لا نضطر إلى دراستها أو ترجمتها ، مقصوراً على تلك الخصائص المتباينة التى يخطها الحصر ، وليس هو أيضاً مقصوراً على تسلسل القصة وصحبها وعجيجها ، بل هو جلال شعرها وتدفقه . ولسنا ننكر أن هوو يكرر أقواله ويشير إليها ، وأن من خطته أن يعيد بعض الصفات وبعض الأبيات كما يفعل المغنون ، فتراه يكرر قوله الحبيب إلى نفسه : « حين بدت بنت الصباح ، الفجر ذات الأصابع الوردية » (١٨) . فإذا كانت هذه عيوباً فإنها تختفى وسط جمال اللغة ووفرة ما تحتويه من الاستعارات والتشبيهات التى تصف جمال الحقول المأدبة فتبعث بذلك فى نفوسنا الطمأنينة والهدوء وسط ما يحيط بنا من عجيج الحرب وصخبها . انظر إلى هذه العبارة التى

تصف تجمع الجيوش اليونانية : « واحتشد اليونان ذوو الشعر الطويل فوق السهل كما تحتشد أسراب الذباب في مزاود الرعاة زمن الربيع حين يملأ اللبن الحديد الدلاء » ، أو إلى العبارة الآتية :

« كما تنشق النار العظيمة طريقها في الأودية العميقة بين الجبال الجرداء ، فتحترق أمامها الأشجار الضخمة السمكية ، ويتمايل الذهب يمنة ويسرة حين تهب عليه الرياح من هذه الناحية أو تلك — هكذا كان ينتقل أخيل وهو غاضب ناثر من جانب إلى جانب في ميدان القتال ، ويدرك ضحاياها أينما كانوا فلا يفلتون منه ، ويغضب الأرض بدمائهم » (٢٠) .

وتختلف الأوديسة عن هذا كله أشد الاختلاف حتى ليظن الإنسان لأول وهلة أن مؤلفها غير مؤلف الإلياذة ؛ وقد قال بهذا بعض علماء الإسكندرية أنفسهم ، ولم يكفهم أفواه المتجادلين إلا أرسناركوس Aristarchus وما له من سلطان قوى بين الناقدين (٢١) . وتتفق الأوديسة مع الإلياذة في بعض العبارات القاسية « أثينة ذات العين الشبيهة بين البومة » « اليونان الطوال الشعر » « قائم كلون النبيذ » « الفجر ذات الأصابع الوردية » — وهي ألفاظ يبدو أنها لم تستعمل إلا بعد جمع الإلياذة أو تأليفها (٢٢) . ففي الملحمة الثانية يتكرر ذكر الحديد على حين أن الأولى تتحدث عن البرنز ، كذلك نسمع فيها عن الكتابة ، وعن الملكية الخاصة للأرض ، وعن العبيد المحررين وتحرير العبيد ، وهذه كلها لا يذكر منها شيء في الإلياذة ، بل إن الآلهة وأعمالهم ليختلفون في إحداها عن الأخرى (٢٣) . ووزن القصيدتين واحد وهو الوزن السداسي الأوتاد المكون كل وتد فيه من ثلاثة مقاطع وهو المنبع في جميع الملاحم اليونانية ؛ ولكن أسلوب الملحمة وروحها ومادتها تختلف كلها عن نظائرها في الإلياذة اختلافا لا يتيسر معه لشاعر واحد أن ينشئ الملحمتين إلا إذا بلغ الذروة في التعقيد ، وكان صاحب السلطان الأعلى على جميع الأمزجة والحالات النفسية المتباينة . وما من شك في أن كاتب القصيدة

الثانية أكثر تضلعا في الأدب والفلسفة ، وأقل عنفا ونزعة حرية من كاتب الأولى ؛ وهو أكثر منه تفكيراً وإدراكاً لذاتيته ، وأملك منه لوقته وأكثر منه حضارة ؛ وقد بلغ من رفته أن ظن بنتلي Bentley أن الأوديسة إنما كتبت لفائدة النساء خاصة (٢٤) .

ترى هل الأوديسة من قول شاعر واحد أو عدة شعراء ؟ ن الجواب عن هذا السؤال أصعب في حالة الأوديسة منه في حالة الإلياذة . إن فيها هي الأخرى شواهد على الإضافة والتلفيق ، ولكن هذه الإضافات كانت من عمل كتاب أعظم حذقا من كتاب الملحمة القديمة ؛ فحبكتها ، وإن كانت كثيرة اللف والدوران ، متناسقة تناسقا عجيباً ، خالية من التناقض ، لا يستحي أن يكتبها كاتب قصصى حديث ، يلمح الإنسان من بدايتها خاتمتها ، وكل حادثة من حوادثها تقرب القارئ من هذه الخاتمة ، وهي تربط كتبها الأربعة فتؤلف منها وحدة كاملة . وأكبر الظن أن الملحمة قد بنيت على قصائد كانت معروفة من قبلها شأنها في هذا شأن الإلياذة ، ولكن عملية التوحيد فيها أتم وأقوى منها في الإلياذة . وفي وسعنا أن نحكم بشيء كثير من التردد والإحجام أن الأوديسة أحدث من الإلياذة بقرن من الزمان ، وأن الجزء الأكبر منها من وضع رجل واحد .

أما شخصياتها فأقل قوة وأقل وضوحاً من شخصيات الإلياذة ، فبنيلي شبح غير واضح ، ولا تبرز واضحة من خلف نسجها إلا في آخر الملحمة ، حين تطوف بعقلها لحظة من لحظات الشك ، أو لعلها من لحظات الندم ، بعد عودة سيدها . أما هلن بطلة الإلياذة فأشد منها وضوحاً ، وهي امرأة فذة منقطعة النظر ؛ فهذه المرأة التي من أجلها أقامت ألف سفينة ولاقى الموت في سبيلها عشرة آلاف من الرجال لا تزال « إلهة بين النساء » ، ناضجة الجمال في سن الكهولة ، أرق أخلاقاً وأهدأ طباعاً مما كانت من قبل ، ولكنها لم تفقد شيئاً من كبريائها وزهوها ، وتتقبل في لطف ورقة كل مظاهر الترحاب والتبجيل التي تحيط بربات التاج ،

وتعدها حقاً لها تنعم بها دون سائر النساء^(٢٥) . وإن تصوير نيسكا ليعد مقالة بديعة تنطق بمقدرة الذكور على فهم الإناث ؛ والحق أننا لم نكن نتوقع أن يرسم يوناني هذه الشخصية الرقيقة الروائية . ولم يصور تلمكس تصويراً قوياً واضحاً ، فهو مصاب بداء التردد كأن به مسام من هملت . أما صورة أوديسيس فهي أكمل صور الشعر اليوناني وأكثرها تعقيداً . وقصارى القول أن الأوديسة رواية بديعة ساحرة في قالب شعري ، مليئة بالعواطف الرقيقة والمغامرات المفاجئة ، تستمتع بها النفس المسالة التي في سن الكهولة أكثر مما تستمتع بالإلياذة الفخمة التي يراق فيها الكثير من الدماء .

وقد أضحت هاتان القصيدتان - وهما كل ما بقي من سلسلة طويلة من الملاحم - أئمن العناصر في تراث اليونان الأدبي كله . وبفضلهما صارت دراسة هومر ، العنصر الأساسى في نظام التعليم اليوناني ، ومستودع الأساطير اليونانية ، ومنبع ألف من المسرحيات ، وأساس التدريب الخلقى ؛ وأعجب من هذا كله أنهما صارتا الكتاب المقدس الذي يستمد منه اليونان دينهم الصحيح .

وفى ذلك يقول هيرودوت - وأكبر الفلن أن في قوله بعض المبالغة - إن هومر وهزود هما اللذان خلعا على الآلهة الأولمبية صورة الأناسى ، واللذان أدخلوا النظام في مملكة السماء الكهنوتية^(٢٦) . وإنا لنجد في آلهة هومر كثيراً من أسباب العظمة والفخامة ، ونحن نحبا لما تتبين فيها من نقائص ، ولكن العلماء قد تبينوا من زمن طويل في الشعراء الذين صوروها تشككاً ومرحاً لا يليق وصفه في كتاب يعد بحق كتاب اليونان القرمى المقدس . فذلك الآلهة تتنازع كما يتنازع الأقارب ، وتفسق كما تفسق البراغيث ، وتشارك مع بنى الإنسان فيما خيل إلى الإسكندر أنه وصمة البشرية - ونعنى بذلك حاجتها إلى الحب وإلى التدم ، ويمحوز عليها كل ما يحوز على الآدميين إلا الجوع والموت . وليس فيها

كلها من يضارع أوديسيس في ذكائه ، أو هكتور في بطولته ، أو أندرمكا في رقتها وحنانها ، أو نسطور في مهابته . ولم يكن في وسع إنسان أن يهزل بالآفة هذا الهزل إلا شاعر في القرن السادس قبل الميلاد ملّم كل الإلمام بتشكك الأيونيين^(٣٧) . ومن مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين اللتين تخصان الآلهة الأولمبية بدور الهازلين ، وتجعلان هذا الدور أهم أدوارها ، إن من مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين كانتا موضع الإجلال في بلاد اليونان كلّها ، وكانتا تعداد دعامة الخلق القويم والعقيدة المحترمة . ولكن هذا التناقض انضح للناس آخر الأمر ، وقضى ما فيهما من هزل على ما توحيان به من عقيدة ، واثارت أخلق الناس بعد تطورها على أخلاق الآلهة وحلت محلها .

الفصل الرابع

الألعاب

إذا كان الدين قد عجز عن توحيد بلاد اليونان ، فإن الألعاب الرياضية الموسمية قد أفلحت في توحيدها . ذلك أن الناس لم يكونوا يذهبون إلى أولمبيا ، ودلفي ، وكورنثة ، ونغيا ليعظموا الآلهة — لأن الآلهة يمكن تعظيمها في أى مكان — بقدر ما كانوا يذهبون لمشاهدوا مباريات البطولة بين الرياضيين المختارين ، والاجتماع العام لطوائف اليونان المختلفين . ومن الشواهد الدالة على أثر هذه المراكز في تاريخ اليونان أن الإسكندر — وهو الذى كان في وسعه أن يشاهد بلاد اليونان من خارجها — كان يعد أولمبيا عاصمة العالم اليونانى .

في هذه الأماكن نجد دين اليونان الحقيقى تسيطر عليه قواعد الألعاب الرياضية وتعاليمها ، وهذا الدين هو عبادة الصحة والجمال ، والقوة . وفي ذلك يقول سمنيدس : « إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة ، ويأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ، ويأتى في المرتبة الرابعة أن يكون الإنسان في نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان » (٢٧) . وتقول الأوديسة (٢٨) « ليس ثمة مجد يستطيع الإنسان أن يناله طوال حياته أعظم مما يناله بيديه وقدميه » . ولعله كان من أوجب الواجبات على شعب أرسطقراطى يعيش بين جماعات من الرقيق أكثر منه عدداً ، ويطلب إليه المرة بعد المرة أن يرد عن حماه المغيرين من أمم أكثر منه . نقول لعله كان من أوجب الواجبات على هذا الشعب أن يحافظ على قوته الجسمية ، ذلك أن الحرب في الزمن القديم كانت تعتمد على القوة والمهارة ، ولقد كانت القوة والمهارة الغرض الأول من المباريات التى طبقت

شهرتها الآفاق في جميع هيلاس . وإن من الخطأ أن تفكر في الرجل اليوناني العادي على أنه طالب علم مولع بإسكلس أو أفلاطون ؛ ذلك أن هذا اليوناني العادي كان كالبريطاني أو الأمريكي العادي مولعا بالألعاب ، وكان أبطالها المحبون هم آلهته على هذه الأرض .

وكانت الألعاب اليونانية أنواعا مختلفة — منها ألعاب خاصة ، وألعاب محلية ، وألعاب بلدية ، وألعاب يونانية جامعة . وإن الآثار القديمة حتى المحطم منها لتكشف عن ثبت طويل تمتع من الألعاب الرياضية . ففي متحف أثينة حجر على أحد وجهيه نقش يصور مباراة في المصارعة ، وعلى الوجه الآخر مباراة لعبة الهكي Hockey^(١٩) . أما السباحة ، وركوب الخيل العارية الظهر ، ورمي القذائف واثقاؤها أثناء الركوب ، فكانت كلها من مستلزمات اليوناني الملهب أكثر منها ألعاباً ومباريات . كذلك أصبح الصيد من ضروب الرياضة بعد أن لم يعد من وسائل العيش الضرورية . ولم تكن ألعاب الكرة أقل تنوعاً أو انتشاراً مما هي في هذه الأيام . وكانت كلمتا شاب ولاعب كرة مترادفتين في اسبارطة . وكانت تبنى في ساحات التمرين حجرات خاصة بالألعاب الكرة يسمونها اسفيرستيريا sphairisteria ، وكان معلموها يسمون اسفيرستاي Sphairistai . ونشاهد على نقش آخر رجلاً ترتد إليهم الكرة من أرض الحجر أو جدارها ، ثم يردونها هم براحة اليد^(٢٠) ، ولسنا نعرف هل كان اللاعبون يفعلون ذلك بالتناوب كما نفعل نحن بكرة اليد في هذه الأيام . وكان من بين ألعاب الكرة لعبة تشبه لعبة اللاكروس Lacrosse الكندية وهي ضرب من لعبة الهكي تلعب بالمضارب ويصفها بولكس Pollex ، وهو كاتب من كتاب القرن الثاني بعد الميلاد ، بعبارات كأنها من عبارات هذه الأيام فيقول :

« يجتمع بعض الشبان ويقسمون أنفسهم جماعتين متساويتين في العدد ويتركون في أرض منبسطة — أعدوها من قبل وقاسوها — كرة مصنوعة من

الجلد ، تقرب من حجم التفاحة ؛ ثم يهجمون عليها ، كأنها جائرة وضعت بينهم ، من نقط الابتداء المحددة لهم ، وفي يمين كل منهم مضرب rhabcon ... ينتهى بانحناء مستو وسطه نسيج من خيوط مأخوذة من أمعاء الحيوان ... مجذولة كالشبكة . وتحاول كلتا الطائفتين أن تدفع الكرة من جزء الساحة المخصص لها إلى طرف الجزء المقابل لها (٣١) .

ويصف هذا المؤلف نفسه لعبة أخرى تحاول فيها فرقة من اللاعبين أن تقذف بالكرة من فوق رؤوس الفرقة المضادة لها أو من بين لاعبيها ، وتستمر في هذا « حتى يرد أحد الطرفين الطرف الآخر إلى ما وراء خط مرماه » . ويصف أثنانيز في جذاذة ناقصة من القرن الرابع قبل الميلاد أحد مهرة اللاعبين الممتازين فيقول : « ولما أخذ الكرة سره أن يعطيها إلى أحد اللاعبين ، ثم تفادى لاعباً آخر ؛ ثم استولى عليها من لاعب وضربها واستحث لاعباً آخر بأصواته العالية . وها هي ذى خارج الملعب ، ثم رمية طويلة ، ثم تمر به من فوق رأسه ، ورمية قصيرة ... » (٣٢) .

ومن هذه الألعاب الخاصة نشأت ألعاب محلية ، وأخرى في مناسبات معينة كما كان يحدث عقب وفاة بطل من الأبطال مثل بتركلوس أو نجاح مشروع عظيم كتحرف رجال أكسانوفون العشرة الآلاف إلى البحر . ثم نشأت بعدئذ ألعاب البلديات التي يمثل فيها المتبارون أماكن أو طوائف مختلفة في داخل إحدى دول المدن . أما ألعاب الحمامة الأثينية التي كانت تقام كل أربع سنين فهي أقرب ما تكون إلى الألعاب الدولية وإن لم ينطبق عليها هذا الوصف كل الانطباق . وقد أنشأها بيسستراتس في عام ٥٦٦ ، وكانت كثرة المشتركين فيها من أنكا ، ولكن غير الأثينيين كان يرحب باشتراكهم فيها . وكانت تشمل ، فضلاً عن الألعاب الرياضية المألوفة ، سباق العربات ، وسباق المشاغل ، وسباق التجديف ، ومباريات موسيقية في الغناء والعزف على القيثارة والتمرار والناي ، والرقص ،

واللقاء أكثر ما يكون من شعر هومر . وكان يمثل كل قسم من أقسام أنكا العشرة أربعة وعشرون رجلاً يختارون من بين أصح السكان أجساماً وأقوام بنية وأجملهم منظرًا ، وكانوا يعطون جائزة للأربعة والعشرين الذين يكون لهم في النظارة أعظم الأثر ، وتسمى جائزة « الرجولة الباهرة » (٢٨) .

وإذ كانت الرياضة ضرورية للحرب ، ولكنها تنعدم إذا لم تعقد لها مباريات ، فقد أنشأت المدن اليونانية الألعاب اليونانية الجامعة لتكون أكبر حافز لليونان أجمعين على إتقان هذه الألعاب . وكانت أولى هذه المباريات الجامعة هي التي تقام بانتظام مرة كل أربع سنين في أولمبيا ، وقد أقيمت للمرة الأولى في عام ٧٧٦ م . وهو أول تاريخ محدد في حياة اليونان بأجمعها . وكانت هذه الألعاب في أول أمرها مقصورة على الإيليين Eleans ، وقبل أن يمضي قرن على بدايتها كان يشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان ، ولم يحل عام ٤٧٦ حتى كان ثبت الظافرين فيها يشمل لاعبين من جميع البقاع الممتدة من سينوب إلى مرسيلية ، وأصبح عيد زيوس على مر الزمن يوماً مقدساً دولياً ، وكان الشهر الذي يقع فيه هذا العيد شهراً حراماً يتهاون فيه المحاربون في جميع بلاد اليونان ، ويفرض فيه الإيليون غرامات على كل دولة يونانية يلحق في أرضها أذى بأي قادم إلى هذه الألعاب . وقد أدى فليب المقدوني هذه الغرامة عن يد وهو صاغر لأن بعض جنوده سرقوا مال أثيني وهو في طريقه إلى أولمبيا .

وفي وسعنا أن نتصور الحجاج واللاعبين يبدؤون رحلتهم من المدن النائية قبل بدء المباريات بشهر كامل ، فإذا ما حان الموعد المحدد اجتمعوا كلهم في صعيد واحد ، وكانت أيام المباريات سوقاً عامة وعيداً في وقت واحد ، وكانت الخيام تنصب في السهل لتقي الزائرين حر شمس يوليه اللافح ، وإلى جانبها المظلات يستظل بها البائعون ويعرضون تحتها بضاعتهم على اختلاف ألوانها ، من خمر وفاكهة وخيل وتماثيل ، وتروى اللاعبون على الحبال والمشعوذين يعرضون

اللاعبين على الجماهير . ففهم من يقذف بالكرة في الهواء ومنهم من يلعب ألعاباً تشهد بالخفة والمهارة ، ومنهم من يأكل النار أو يتلعغ السيف . ذلك أن ضروب التسلية ، كأنواع الخرافات ، قديمة العهد يخلع عليها هذا القدم ثوباً من التقديس والإجلال . وكان أشهر الخطباء أمثال جورجياس ، وأشهر السوفسطائيين أمثال هيباس ، وربما كان أشهر الكتاب أمثال هيرودوت ، كان هؤلاء جميعاً يلقون خطبهم أو يتلون أقوالهم من أروقة هيكل زيوس . وكانت هذه الأيام أعياداً مقدسة للرجال خاصة لأن النساء المتزوجات لم يكن يسمح لهن بالحضور في هذه الساحة ، بل كانت ألعاب خاصة تقوم في عيد هيرا . وقد لخص منتدبر منظر هذه الألعاب في خمس كلمات جامعة « زحام ، وسوق ، ولاعبون ، وتسلية ، ولصوص »^(٣٤) .

ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك في مباريات الألعاب الأولمبية ، وكان المتبارون (Athletes المشتقة من Athlos بمعنى مباراة) يختارون بعد اختبارات محلية وبلدية يستبعد بها غير اللاتقيين ، ثم يلربون بعدئذ عشرة شهور كاملة تدريباً صارماً على أيدي مدربين محترفين يسمون پيدترباى paidotribai (ومعناها اللغوى مدلكو الشبان) ورياضيين يدعون gymnastai (أى العراة) .

فلذا جاءوا إلى أولمبيا اختبرهم موظفون مخصوصون وأقسموا أن يراعوا جميع قوانين الألعاب . ولم يكن يحدث في الألعاب غش أو خروج على السنن الصحيحة إلا القليل النادر ، منها ما قيل من أن يوپوليس Euopolis قد رشا الملاكمين حتى ينهزموا له^(٣٥) ؛ ولكن ما كان يفرض على هؤلاء المخادعين من عقاب ، وما كان يلحقهم من مهانة ، كان كبيراً إلى حد يحول بينهم وبين الإقدام على مثل هذا العمل ، فلذا ماتم استعداد اللاعبين أخنوا إلى ميدان الألعاب ، فلذا دخلوه نادى مناد أسماءهم وأسماء المدن التى بعث بهم . وكان المتبارون جميعاً ، أيا كانت سنهم ومنزلتهم ، يجردون من الثياب إلا من منطقة تحيط بالحقوقين

فى بعض الأحيان^(٣٧) . ولم يبق من هذا الملعب نفسه إلا الألواح الحجرية التى كانت توضع بين أصابع أرجل المتسابقين فى بداية السباق . وكان النظارة البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ يحتفظون بأماكنهم فى الملعب طول النهار يقاسون الأمرين من الحشرات والحر والظما ؛ ولم يكن يسمح لهم بلبس قبعاتهم ، وكان الماء الذى يسقون منه رديئاً غير صالح للشرب ، كما كان الذباب والبعوض يملأ جو المكان كما يملأ أمثاله فى هذه الأيام . وكانت القرابين تقرب مراراً وتكراراً إلى زيوس طارد الذباب^(٣٧) .

وكانت أهم المباريات فى هذه الألعاب هى التى يطلقون عليها اسم المباريات الخمس (pentathlon)^(٣٨) . وأراد اليونان أن يكون اللاعبون متمكنين من هذه الألعاب جميعاً ، فكانوا يحتمون على من يتقدم للمباراة فى واحدة منها أن ينازل غيره فيها جميعاً ، ولا يعد اللاعب متصراً إلا إذا فاز فى ثلاث لعبات من خمس . وكانت أولاهما هى القفز الواسع ، فكان اللاعب يمسك بيديه ثقلين شبيهين بكتل الحديد المستديرة ويقفز بهما من وضع معين ، ويؤكد لنا الكتاب الأقدمون أن بعض القافزين كانوا يقفزون إلى مسافة خمسين قدماً^(٣٨) . ولكننا غير ملزمين بأن نصدق كل ما نقرأ . واللعبة الثانية هى قذف القرص وهولوحة مستديرة من المعدن أو الحجر تزن نحو اثني عشر رطلاً ، ويقال إن أكبر القذفات كانت تصل مسافة مائة قدم^(٣٩) . وكانت اللعبة الثالثة هى قذف الحربة أو الرمح بالاستعانة بشرعة من الجلد متصلة بوسط السهم . وكانت المباراة الرابعة هى الجرى مسافة قصيرة بأقصى سرعة فى الملعب نفسه ، وكانت هذه المسافة تبلغ نحو مائتى ميل فى الغالب . وكانت المباراة الخامسة هى المصارعة ، وهى من المباريات المحبة كثيراً إلى اليونان ، ومنها اشتق لفظ Palaestra نفسه ، وما أكثر ما يروى من القصص عن الأبطال المصارعين .

(٥) وتشمل هذه المباريات المصارعة ، وقذف القرص ، وقذف الرمح ، والقفز ، والجري

وكانت الملائكة من الألعاب القديمة ، وتكاد نوقن أنها مأخوذة عن كريت الميثوية وبلاد اليونان الميسينية . وكان المتبارون ينازل بعضهم بعضاً بكرات للكم معلقة بمحاذاة الرأس ومحشوة بينور التين أو الدقيق أو الرمل ، وفي عصر اليونان الزاهر (أى في القرنين الخامس والرابع) كان الملاكون يلبسون « قفازات لينة » من جلد الثيران ، معالجة بالدهن ، وتكاد تصل إلى المرافق ، وكانت الضربات مقصورة على الرأس ولكنهم لم تكن لديهم قواعد تحرم ضرب اللاعب إذا وقع على الأرض . ولم تكن هناك أشواط أو فترات للراحة ، بل كان الملاكان يواصلان اللعب حتى يستسلم أحدهما أو يعجز عن الملائكة . ولم يكونوا يقسمون حسب أوزانهم ، ومن كان في مقدور أى إنسان مهما يكن وزنه أن يشترك في المباريات . ومن ثم كان ثقل الجسم ذا نفع كبير لصاحبه ، وانحطت الملائكة لهذا السبب في بلاد اليونان وتحولت من مباراة في المهارة إلى منازلة بالقوة العضلية .

وازدادت وحشية اللاعبين على مر الزمن فجمعوا المصارعة والملائكة في مباريات جديدة سموها لعبة القوى مجتمعة (pankration) . وكان يسمح في هذه اللعبة بكل شيء عدا العض وفقاً العين ، وحتى الركل في البطن كان مسموحاً به أيضاً^(٩٩) . وقد وصلت إلينا أسماء ثلاثة من أبطال هذه المباراة هزموا من نازلوهم لأنهم كسروا أصابعهم^(١٠٠) ، وكال أحدهم لغريمه ضربات وحشية بأصابعه الممدودة وأظافره الطويلة القوية التي اخترق بها جلده وانتزع بها أمعاءه من بطنه^(١٠١) . لكن ميلو الكروتوني كان ملاكاً أظرف من هؤلاء وأحب إلى النفوس ، ويروى عنه أنه نمي قوة جسمه بحمل عجل صغير في كل يوم من حياته حتى كبر هذا العجل وأصبح ثوراً كامل النمو . وكان الناس يحبونه لحيله ودهائه ، فقد كان يمسك في يده رمانة ويقبض عليها بقوة لا يستطيع معها أى إنسان أن ينتزعها منه ، ومع ذلك كانت الرمانة تبقى سليمة لا يتألمها أذى ، وكان يقف على قرص من الحديد مدھون بالزيت ويقاوم كل ما يبذل من الجهد ليرحزحه عن مكانه ،

ويربط جبلا حول جبهته ثم يقطع الحبل بوقف نَفَسه ودفع الدم إلى رأسه . وقضت عليه مواهبه هذه آخر الأمر ؛ « ذلك أنه التقى مصادفة بشجرة ذابلة ، كما يقول پوزنياس » دقت فيها أوتاد لتفصل خشبها بعضه عن بعض ، فخيّل إليه أن يفصل هذا الخشب بيديه ، ولكن الأوتاد انخلعت من الشجرة وانطبق خشبها عليه ، وافترسته الذئاب (٤٢) .

وكانت الألعاب تشمل فضلا عن السباق السريع القصير المدى مسابقات أخرى في العدو ، منها مسابقة طولها أربعون ياردة ، وأخرى طولها أربعة وعشرون شوطاً (*) أو ميلان وثلثا ميل ، ومنها سباق مسلح يحل كل عداء فيه ترساً ، وليس لدينا ما نستدل منه على الأرقام القياسية في هذه المسابقات . وكان الشوط يختلف باختلاف المدن ، ولم يكن لدى اليونان آلات يقيسون بها أجزاء الزمن الصغيرة . وتحدثنا الأفاصبص عن عداء يوناني كان يسبق الأرنب ، وعن آخر سابق جواداً من كرونيا إلى طيبة (حوالي عشرين ميلاً) وسبقه ، وعن فيديديس Pheidippides الذي جرى من أثينة إلى اسبارطة ١٥٠ ميلاً - في يومين (٤٤) ، ونقل إلى أثينة بشرى النصر في مرثون التي تبعد عنها أربعة وعشرين ميلاً ، ثم مات متأثراً بما عاناه من التعب . ولكن بلاد اليونان لم تكن فيها « مسابقات مرثونية » .

وقد أنشأت أولمبيا في السهل الواقع في أسفل الملعب مضماراً لسباق الخيل خاصة . وكان للنساء والرجال على السواء أن يتقدموا بخيولهم إلى هذا السباق ، وكانت الجائزة في ذلك الوقت تعطى لصاحب الجواد - كما هي الحال في وقتنا هذا - لا لراكبه ، وإن كان الجواد في بعض الأحيان يجازى بأن يقام له تمثال (٤٥) ، وكانت آخر المباريات هي مباراة المركبات ، وكان يجر كل مركبة

(*) اشوط مقياس يوناني طوله عادة ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدماً إنجليزية ، ولكنه كان يختلف باختلاف المدن . (المترجم)

جوادان أو أربعة جياد تسير جنباً إلى جنب. وكثيراً ما كان يشترك في المباراة الواحدة عشر مركبات في كل منها أربعة جياد ، وكان على كل مركبة أن تدور حول الأنصاب المقامة في الحلقة ثلاثاً وعشرين دورة في آخر السباق ، ولذلك فإن حوادث خطيرة كانت تحدث وقتئذ ، وكانت هذه الحوادث أهم ما يثير المشاعر في الألعاب . وقد حدث في سباق منها بدأ بأربعين مركبة أن لم تتمه إلا مركبة واحدة . وفي وسعنا أن نتصور احتياج النظارة وجلهم حول من يتنافسون ، وأسفهم وهم منعزلون حينما يطوف الظافرون آخر طواف لهم حول الأنصاب .

فلذا انتهت هذه المباريات المجهدة بعد خمسة أيام كاملة ، نالوا جوائزهم ، ولف كل منهم عصا من الصوف حول رأسه ، ثم وضع المحكمون على هذه العصا إكليلاً من أوراق الزيتون البري وأغصانه ، ونادى مناد أسماء الظافرين وأسماء مدتهم . وكان هذا الإكليل الثباتي هو الجائزة الوحيدة التي تعطى في الألعاب الأولمبية . ولكنه مع ذلك كان الشرف الذي يبذل المتبارون بلاد اليونان أقصى جهودهم ليظفروا به . وقد بلغ من أهمية هذه الألعاب وحرص اليونان عليها أن الغزو الفارسي نفسه لم يحل بينهم وبين إقامتها ، فبينما كانت حفنة من اليونان تقف في وجه خشبشار شاي في ترموبيلي كانت آلاف مؤلفة منهم تشهد كمعادنها ثيجينيس Theagenese الثاسوسي ، في اليوم الذي دارت فيه المعركة ، يظفر بإكليل ألعاب القوى المجمع . وصاح جندي فارسي في وجه قائده يقول : « ربه ! أي صنف من البشر أولئك الأقوام الذين أتيت بنا لنقاتلهم ؟ - لأنهم رجال لا يقاتل بعضهم بعضاً من أجل المال بل من أجل الشرف ! »^(١٦) . وما من شك في أن هذا الجندي الفارسي أو اليوناني الذي اخترع القصة ، قد جاوز الحد في الثناء على اليونان بقوله هذا ، وليس ذلك لأنه كان من واجبه أن يكونوا في ذلك اليوم في ترموبيلي بدل أن يكونوا في أولمبيا فحسب ، بل لهذا السبب وغيره من الأسباب ، ذلك أن الظافرين كانوا يحصلون على جوائز أخرى كبيرة من طريق غير مباشر

وإن كانت الجائزة المباشرة التي ينالونها في الألعاب نفسها كانت قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. لقد كانت مدن كثيرة تمنح الظافرين جوائز مالية كبيرة بعد أن يعودوا من الألعاب الأولمبية ، وكان بعضها يعينهم قواداً لجيوشه ، وكانت الجماهير تقدسهم تقديساً يحسد على الفلاسفة ويشكون منه^(١٧) . وكان بعض الظافرين أو أنصارهم يستأجرون شعراء مثل سمندس أو بندار لينشثوا القصائد في مدحهم وتكريمهم ، وكانت هذه الأشعار تغنيها جماعات من الغلمان في الموكب الذي يخرج لاستقبالهم ؛ وكانت الأموال تدفع للمثاليين ليخلدوا ذكراهم بالتمائيل البرنزية أو الحجرية ، وكانوا في بعض الأحيان يطعمون بلائمين في ردهة المدينة . وفي وسعنا أن نقدر ما يتكلفه هذا الطعام إذا عرفنا - من مصدر مشكوك في دقته - أن ميلو أكل عجلة بنت أربع سنوات ، وأن ثيجنيس أكل ثوراً ، في يوم واحد^(١٨) .

وكان القرن السادس هو العهد الذي بلغت فيه الألعاب الرياضية أعظم روعتها وتغلغل حبها في قلوب الشعب إلى أبعد حد . ففي عام ٥٨٢ أنشأ الحلف الاثنا عشرى الألعاب الفيشية في دلتى تكريماً لأپلو . وفي تلك السنة نفسها أنشئت ألعاب البرزخ في كورنثة تكريماً لپوسيدن ، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت أنشئت الألعاب النيمية تكريماً لزيوس النيمى ، وأضحت هذه المواسم كلها أعياداً يحتفل بها اليونان على بكرة أبيهم . وقد نشأت منها ومن الألعاب الاولمبية دورة (Periodos) ، وكان أعظم ما بطمع فيه اليونانى الرياضى أن ينال أكاليل فيها جميعاً . وقد أضيفت مباريات في الموسيقى والشعر إلى المباريات الجسمية في الألعاب الفيشية ، والحق أن هذه المباريات الموسيقية كانت تقام في دلتى قبل إنشاء الألعاب الرياضية فيها بزمان طويل . وكان موضوع المباريات في بادئ الأمر أنشودة يخلد بها انتصار أپلو على الأفعى الدلفية ، ثم أضيفت إليها في عام ٥٨٢ مباريات في الغناء وفي العزف على القيثارة والنفخ في الناي . وكانت مباريات

موسيقية مثلها تقام في كورنثة ، ونيشيا ، وديلوس ، وغيرها من المدن ؛ وذلك لأن اليونان كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بهذه المهارات العامة أن ينموا مقدرة العازفين وذوق الجماهير في وقت واحد . وكانوا يسرون على هذا المبدل نفسه في كل فن من الفنون تقريباً - كصناعة الخزف ، والشعر ، والنحت ، والتصوير ، والغناء الجماعي ، والخطابة ، والتمثيل^(٤١) . وهذه الطريقة وغيرها من الطرق أصبح للألعاب أكبر الأثر في الفنون ، والآداب ، بل كان لها أيضاً أعمق الأثر في كتابة التاريخ نفسه ؛ وذلك لأن أهم طريقة لحساب السنين في كتب التاريخ المتأخرة كانت هي التاريخ بالفترات الأولمبية ، وكانت كل فترة تتميز باسم الظافر في سباق الجري شوطاً واحداً . وكان الكمال الجسمي الذي بلغه الرياضيون البارعون في الألعاب جميعها في القرن السادس قبل الميلاد هو الذي أوحى إلى اليونان بالمثل الأعلى في نحت التماثيل ، وهو المثل الذي بلغ غايته على يدى ميرون Meiron وبليكليتوس . وقد أتاحت ألعاب العراة في مضامير الألعاب وفي أثناء الأعياد للمثال فرصاً لدراسة جسم الإنسان في جميع أشكاله وأوضاعه ، فأضحت الأمة هي نفسها نماذج لفنانها على غير علم منها ، وتعاونت الألعاب الرياضية اليونانية مع الدين اليوناني على إيجاد الفن اليوناني .

الفصل الخامس

الفنون

لقد وصلنا الآن إلى أكمل نتاج الحضارة اليونانية ، ولكننا مع الأسف الشديد لا نجد من بقايا هذا النتاج العظيم إلا التزر اليسير . ذلك أن التدمير الذى عاناه الأدب اليونانى من جراء عدوان الزمان وتحكم ذوى العقول الضيقة الجاهلة ، وتغير الأنماط والأهواء العقلية ، لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى ما وقع على الفن اليونانى من تدمير . ولقد بقى لدينا من عصر الفنون الزاهر قطعة برنزية واحدة هى راكب العربى فى دلفى ، وتمثال واحد من الرخام هو تمثال هرمس من صنع المثال بركستيليز ، أما الهياكل فلم يصل إلينا منها هيكل واحد - ولا هيكل الشبوم نفسه - بالشكل أو باللون الذى كان عليه فى بلاد اليونان القديمة . كذلك لم يكد يبق لدينا شئ من النقوش اليونانية على المنسوجات ، أو الخشب ، أو العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، ذلك أن هذه المواد كانت أضعف أو أئمن من أن تنجو من أيدي الناهبين أو عبث الأيام . لذى كان علينا أن نعيد تصوير هذه الفنون مستعينين على ذلك بما بقى لدينا من آثارها المحطمة القليلة .

وكانت الأسباب التى أدت إلى نشأة الفن اليونانى هى الرغبة فى تصوير الأجسام وتزيينها ، والنزعة البشرية فى الديانة اليونانية ، والروح الرياضية ، والمثُل العليا للرياضيين . ولما ارتقى اليونانى البدائى عن المرحلة التى اعتاد أن يضحى فيها بالآدميين لكى يصحبوا الموتى ويقوموا على خدمتهم ، استبدل بهم التماثيل المنحوتة أو الصور كما فعل غيره من البدائيين . ووضع بعد ذلك صوراً لآبائه فى بيته ، أو وضع فى المعابد صوراً وتماثيل شبيهة به أو بمن يحب ، اعتقاداً منه أن هذه الصور والتماثيل ستتمكن بقوة سحرية من بسط حماية الإله ورعايته على

من مثله . لقد كان الدين المينوى ، والدين الميسينى ، وكانت طقوس اليونان الأرضية نفسها ، عبارات غامضة مبهمه غير شخصية ، وكان فيها أحياناً من الرهبة والسخف ما ينأى بها عن جمال التصوير ، ولكن الخصائص البشرية الصريحة التى كان يتصف بها آلهة أولمبس ، وحاجتهم إلى مواطن وهياكل تقيم فيها على سطح الأرض ، كل هذه قد فتحت أمام اليونان آفاقاً واسعة للنحت والعمارة ولعشرات العشرات من الفنون المتصلة بهما . ولسنا نجد ديناً غير هذا الدين - مع جواز استثناء الديانة المسيحية الكاثوليكية - شجع الآداب والفنون ، وأثر فيهما ، كما شجعهما وأثر فيهما الدين اليونانى . ولا نكاد نجد فيما لدينا من آثار اليونان الأقدمين كتاباً ، أو مسرحية ، أو تمثالا ، أو بناء ، أو مزهرية لا يمت إلى الدين بصلة فى موضوعه ، أو غرضه ، أو الإلهام به .

ولكن الإلهام وحده لم يكن ليرفع من شأن الفن اليونانى إلى الدرجة التى ارتفع إليها ، فقد كان هذا يحتاج إلى البراعة الفنية العالية التى تنشأ من الصلات الثقافية ، وإلى تطور الصناعات اليدوية وانتقالها من طور إلى طور . والحق أن الفن لم يكن عند الرجل اليونانى إلا نوعاً من الصناعة اليدوية ، وارتقى الفنان من الصانع الماهر ارتقاء طبيعياً تدريجياً حتى لم يكن اليونان يميزون أحدهما من الآخر تمييزاً دقيقاً . لقد كان الفنانون فى حاجة إلى العلم بجسم الإنسان لأن نموه الصحى السليم هو الذى يكسبه تناسباً وتناسقاً وجمالاً ، وكانوا فى حاجة إلى حب للجمال عاطفى قوى جنسى يهون معه كل صعب إذا ما أدى إلى تخليد لحظة من لحظاته الحية ، وصورها فى صورة تبقى على مر الزمان . وكانت نساء اسبارطة يضعن فى حجرات نومهن صوراً لأهلوهن ، ونارسس ، وهياسنثس ، أو أى إله آخر وسم حتى يلدن بذلك أطفالاً جمالاً^(٥٠) . وأقام سبسلوس Cypselus مباراة فى الجمال بين النساء من زمن بعيد يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد ، ويقول أثينيوس إن هذه المباراة الدورية استمرت إلى العهد المسيحى^(٥١) . ومن أقوال ثيوفراستوس

Theophrastus في هذا المعنى « إن مباريات تقام » في بعض الأماكن « بين النساء في الخفر ، وحسن التدبير ... كما تقام مباريات في الجمال ، كالمباريات التي تقام ... في تندوس ولسبوس » (٥٢) .

١ - المزهريات

من الأفاصيص الظريفة الشائعة في بلاد اليونان أن أول قدح للشراب قد شكل فوق ثدى هيلن (٥٣) ، فإذا كان هذا صحيحا فإن القالب الذي صنع على هذا الطراز قد ضاع عقب الغزو الدوري ، لأن ما وصل إلينا من الآنية الفخارية من العهود اليونانية القديمة لا يذكرنا قط بهلن ؛ وما من شك في أن هذا الغزو قد أثر أسوأ الأثر في تطور هذا الفن ، وأفقر الصناعات ، وشتت المدارس ، وقضى إلى حين على انتقال أصوله ؛ ذلك بأن المزهريات اليونانية تبدأ من بعد هذا الغزو بسيطة بدائية فجأة ؛ كأن كريت لم تسم بصناعة الفخار فتجعلها فناً جميلاً .

ويغلب على الظن أن مزاج الفاتحين الدوريين الذي كانت تغلب عليه الخشونة هو الذي أخرج مما بقي من قواعد الفن المينوي الميسيني ذلك الطراز الهندسي الذي كانت له السيطرة على أقدم الفخار اليوناني بعد العصر الهومري . لقد محى من هذا الفخار ما كانت تزدهان به الآنية الكريتية من رسوم الأزهار والمناظر الطبيعية ، والنباتات ؛ وكانت الزعرة الصارمة التي أقامت مجد الهياكل الدورية هي التي قضت على صناعة الفخار اليونانية . وليس في الجرار الضخمة التي يمتاز بها هذا العصر ما يمت بصلة إلى الجمال ، فقد كان الغرض من صنعها حفظ الخمر أو الزيت أو الحبوب ، ولم يكن يقصد بها أن تكون متعة للفنان الخبير بصناعة الخزف . ويكاد نقشها كله أن يكون وحدات من مثلثات أو دوائر ، أو سلاسل ، أو خطوط متقاطعة ، ومعينات ، وصلبان ، أو خطوط أفقية متوازية بسيطة تتكرر مرة بعد مرة . وحتى الرسوم الآدمية التي تتخلل هذه الأشكال

كانت رسوماً هندسية ، فجذع التمثال العلوى كان مثلث الشكل ، وفخذه وساقاه كانت مخروطية . وانتشر هذا الطراز الهين من الزينة فى جميع بلاد اليونان ، وكان هو الذى حدد صورة المزهريات الديبلونية *Dipylon* (*) فى أثينة . ولكن الآنية الضخمة (التى كانت تصنع فى العادة لتوضع فيها جثث الموتى) كانت ترسم عليها بين خطوط الأشكال الهندسية صور جانبية لوجوه النائمىن ، وعربات ، وحيوانات غاية فى السهابة . فلما آذن القرن الثامن بالانتهاء رسمت على الفخار اليونانى صور حية أكثر من الصور السابقة ، واستعمل لوانان لأرضية الصور ، واستبدلت الدوائر بالخطوط المستقيمة ، وظهر على الصلصال سعف النخل ، والأزورد ، والجياذ القافزة ، والآساد المصيدة ، وحلت الزخارف الشرقية محل الطراز الهندسى الساذج .

وأعقب ذلك العصر عصر ملء بالتجارب غمرت فيه ميلتس السوق بمزهريات الحمراء ، وساموس بمصنوعاتها المرمرية ، ولسبوس بآنياتها السوداء ، ورودس بآنياتها الحمراء ، وكلزمنى *Clezomenae* بآنياتها الرمادية اللون ، وأصلدت فيه نقراطس الخزف الدقيق الملون والزجاج نصف الشفاف . واشتهرت إريثرا *Erythra* برقة مزهرياتها ، وكليس *Chalcis* بريقها وحسن صقلها ، وسكيون *Sicyon* وكورنث بقوارير الرائحة الدقيقة الصنع ، والأباريق ذات الرسوم المتقنة الأنيقة الشبيهة بمزهريات شيجى *Chigi* فى رومة . وقامت بين صناع الخزف فى المدن المختلفة منافسة قوية ، وكانت هذه المدينة أو تلك تجدهم مشتريين لخزفها فى كل ثغر من ثغور البحر المتوسط ، وفى الروسيا ، وإيطاليا ، وبلاد غالة . وخيل إلى مدينة كورنث فى القرن السابع أنها فازت على منافساتها فى هذه الحرب الخزفية ، فقد كانت مصنوعات فى كل مكان وفى يد كل إنسان ، وكان صناع الفخار فيها قد كشفوا طرقاً جديدة للحفر والتلوين ، وابتكروا كثيراً من الأشكال الجديدة ؛

(*) سميت كذلك لأن الجزء الأكبر منها عثر عليه قر ، باب المدينة المزدهج .

لكن سادة حى الخزافين فى خارج أثينة برزوا الى الأمام حوالى عام ٥٥٠ ق . م وألقوا عن كاهلهم عبء النفوذ الشرقى ، واستولوا بمصنوعاتهم ذات الرسوم السوداء على أسواق البحر الأسود ، وقبرص ، ومصر ، وإثروريا ، وأسبانيا . وأخذ النابغون من صناعات الخزف من ذلك الحين يهاجرون الى أثينة إن لم يكونوا قد ولدوا فيها ؛ ونشأت فيها مدرسة عظيمة وتقاليد ثابتة لأن الأبناء أخذوا يرثون فن الآباء ، وأصبحت صناعة الخزف الجميل إحدى الصناعات الكبرى فى المدينة ، ثم أمست إحدى الصناعات التى تحتكرها أتكنا وتقر لها غيرها من الأقاليم بهذا الاحتكار .

وتحمل المزهريات نفسها من حين إلى حين صوراً لحوانيت الخزافين ، ويرى فيها الصانع يعمل مع صبيانه أو يراقبهم وهم يقومون بالعمليات المختلفة : يخلطون الألوان والطين ، ويشكلون العجينة ؛ ويلونون الأرضية ، ويحفرّون الصور ، ويحرقون الآنية ، ويحسون بالسعادة التى يحس بها من يرون صور الجمال تظهر على أيديهم . ونحن نعرف أكثر من مائة من هؤلاء الخزافين أهل أتكنا ، ولكن الدهر قد عدا على آياتهم الفنية فحطمها ولم يبق لنا إلا أسماء مبدعيها . ونحن نقرأ الآن على كأس الشراب قول الصانع مفتخراً بصنعه *Nikosthenes me poiesen* «صنعتنى نكستينز» (١٥٣) وكان أجزسياس *Execias* أعظم من نكستينز هذا وأجل قلداً . وفى متحف الفاتيكان قارورة فخمة ذات مقبضين من صنعه ، وكان واحداً من طائفة كبيرة من الفنانين يشجعهم أنصار الفن فى عهد بيسستراتس وأبنائه وينعمون بعهد السلم الذى ساد البلاد وقتئذ . ومن أيدي كلتياس *Clitias* وإرجتموس *Ergotimus* خرجت مزهريه فرنسوا المذاقة الصيت التى عثر عليها فى إثروريا عام ٥٦٠ فرنسى يحمل هذا الاسم ، وهى الآن ضمن كنوز متحف الآثار بفلورنس — وهى إناء كبير عليه صفوف من الأشكال والمناظر مستمدة من الأساطير اليونانية يعلو بعضها بعضاً (٥١) . وكان هذان

الصانعان أشهر صنّاع طراز الرسوم السوداء في أتكّا في القرن السادس . ولا حاجة بنا إلى المبالغة في جودة صنع الإناء ، فهو لا يضارع في فكرته ولا في إخراجها خبر الأواني الباقية من عهد أسرة تانج أو سونج الصينيتين ؛ غير أن الفنان الصيني كان له غرض يختلف عن غرض الفنان الشرقي ، فلم يكن همه الأول هو الألوان بل الخطوط ، ولا النقش بل الشكل . ولذلك كانت الرسوم التي على الآنية اليونانية رسوماً صورها العرف ، وثبت طرازها فجعلها ضخمة ضخامة غير عادية في الكتفين دقيقة في الساقين . وإذا كان هذا الطراز قد ظل سائداً طوال عهد اليونان الزاهر فن واجبنا أن نفترض أن الخزاف اليوناني لم يكن يفكر قط في الدقة الواقعية ، فكأنه في فنه هذا يقرض الشعر لا يكتب النثر ، ويخاطب الخيال لا العين ، ولهذا السبب عينه لم يتوسع فيما يستخدمه من المواد أو الألوان . فقد استخدم صلصال السرمكوس Ceramicus الأحمر اللطيف ، وهذا لونه باللون الأصفر ، وصفر الرسوم بعناية ، وملأ ما بين الخطوط باللون الأسود الزجاجي البراق ، فاستحال الطين على يديه آنية موفورة العدد تقتزن فيها المنفعة بالجمال ، منها أباريق ماء وقوارير ذات مقبضين ، ودنان خمر وأقداح ، وآنية خلط ، وقنينات عطر . وكان هو الذي فكر في التجارب ، وابتكر الموضوعات ، وابتدع الأعمال الفنية التي أخذها عنه صانعو البرنز ، والمثالون ، والرسامون . وهو الذي قام بالتجارب الأولى في رسم المناظر فنياً كما تبدو بحجمها الطبيعي للعين ، وفي فن المنظور ، وتوزيع الظلال ، وعمل النماذج (٥٥) . وقد مهد السبيل لنحت التماثيل بأن صنع من الطين المحروق صوراً لما لا يحصى من الموضوعات والأشكال ، وحرر فنه من الرسوم الهندسية الدورية ومن المغالاة الشرقية ، وجعل صور الآدميين مصدر حياته ومحورها الذي تدور عليه .

ومل الخزاف الأثيني قبيل الربع الأخير من القرن السادس الرسوم السوداء عل الأرضية الحمراء ، فعكس الوضع وابتدع طراز الرسوم الحمراء الذي

ظلت له السيادة في إقليم البحر المتوسط مائتي عام . وكانت الصور لا تزال جامدة ذات زوايا ، والأجسام مصورة من جانبها ، والعين في مواجهة الناظر تماماً ، ولكنه كان يستمتع في نطاق هذه الحدود بحرية جديدة ومجال أوسع في التفكير والتنفيذ ، وكان يחדش الخطوط الخارجية للصورة خدشاً خفيفاً بسن رفيع ، ويرسم تفاصيلها بعدئذ بالقلم ، ويملاً خلفيتها باللون الأسود ، ثم يضيف إليها لمساتها الصغرى بمادة زجاجية ملونة . وفي هذا المجال أيضاً خلد بعض كبار الفنانين أسماءهم ، من ذلك أن قارورة ذات أذنين قد كتب عليها : « رسم صورها يوثيميدس Euthymides بن پلياس Pallias رسماً لم يستطعه يفرنيوس Euphronius »^(٦٥) . وكان هذا تمحيداً ليفرنوبوس ودعوة له أن يصنع مثله ، لكن يفرنيوس هذا ظل يوصف بأنه أعظم الخزافين في عصره . ويظن بعضهم أنه هو صاحب الخابية التي صور فيها هرقل يصارع أنتيوس . وتزى إلى معاصره سسياس Sosias زهرة من أشهر المزهريات اليونانية صور عليها أخيل يضمم جرحاً في ذراع پتركولوس . وقد أبرز في هذه الصورة جميع دقائقها ، وأفاض عليها الكثير من حبه وعطفه ، ولم تستطع القرون الطوال أن تتال من منظر الألم الصامت وهو يبدو على ملامح الفتى المحارب . ونحن مدينون إلى أولئك الرجال وغيرهم ممن لا نعرف أسماءهم الآن بكثير من الروائع الفنية أمثال الكأس التي نرى في داخلها صورة إلفة الفجر تندب ولدها المتوفى ، وإبريق الماء المحفوظ في متحف الفن بزيورك والذي رسم عليه جندي يوناني ، قد يكون أخيل يطعن بالحرية امرأة من المحاربات جميلة ذات ثدين . وكان إناء من أمثال هذه الأواني هو الذي وقف أمامه جون كيتس John Keats في يوم من الأيام صامتاً مذهولاً حتى أطلقت خياله « تلك النشوة الجامحة » و « الدفعة المائجة » فأنطقنا لسانه بقصيدة أعظم شأناً من أية قارورة يونانية .

٢ - النحت

كان من أثر استيطان اليونان غربى آسية وفتح مصر للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٦٠ ق . م أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليهما إلى أبونيا وبلاد اليونان الأوربية . ذلك أن مثاليين كرتيين هما ديوثينوس Dippoenus واسكيلوس Scyllus استدعيا حوالى عام ٥٨٠ إلى سكيون وأرجوس ليقوما فيهما بمهمة فنية . ولما أن غادراهما لم يتركا فيهما تماثيل فحسب بل تركا فيهما تلاميذ أيضاً . ونشأت من ذلك الحين مدرسة للنحت قوية فى بلاد الهلويونيز . وكان لهذا الفن أهداف كثيرة ؛ فكان أولاً يخلد الموتى بالأعمدة البسيطة ، ثم برؤوس تماثيل قائمة على قواعد ، ثم بتماثيل كاملة أو لوحات جنازية منقوشة . وكانت التماثيل تصنع للفائزين فى الألعاب الرياضية ؛ فكانوا أولاً ينحتون نماذج لتماثيل هؤلاء الفائزين ، ثم صاروا ينحتون تماثيل لأشخاص هؤلاء الفائزين . وكان خيال اليونان الحى الخصب من أسباب تشجيع هذا الفن ، فقد جعلهم يصنعون للآلهة تماثيل يخططها الحصر .

وكان الخشب هو المادة التى تصنع منها أكثر التحف حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وشاهد ذلك ما نسمعه كثيراً عن صنديق سبيلوس طاغية كورنثة ؛ ويقول بوزنياس إنه صنع من خشب الأرز المطعم بالعاج والذهب ، وزين بالنقوش المعقدة المحفورة . ولما زاد الثراء كانت التماثيل الخشبية تغطى كلها أو بعضها بالمواد الثمينة . وبهذه الطريقة صنع فيدياس تماثيله الذهبية والعاجية لأثينا پارثنوس ولزيوس الأولمبي . وظل البرنز ينافس الحجر فى صنع التماثيل إلى آخر عصر اليونان الزاهر .

وقد صهر العدد الأكبر من هذه التماثيل البرنزية ولم يبق منها إلا القليل ، ولكن فى وسعنا أن نستدل من تماثيل سائق العربات الخاضع الدليل المحفوظ فى

متحف دلتى (حوالى ٤٩٠ ق . م) على ما بلغت صناعة التماثيل المحفوة من الإنقان الذى يقرب من الكمال مذ أدخلها ريكوس Rhoeus وثيودورس الساموسيان فى بلاد اليونان . وقد صبت مجموعة التماثيل الأثينية للطاغيتين (هرمودبوس Harmodius وأريستوجيتون Aristogeiton) ، وهى المجموعة الذائعة الصيت ، من البرنز على يد أنتنور Antenor فى أثينة بمد قليل من طرد هيباس . وكان مثالو أثينة يستخدمون أنواعاً كثيرة من الحجارة اللينة قبل أن يعمد مثالو اليونان إلى تشكيل الحجارة الصلبة المختلفة الأنواع باستخدام المطرقة والأزميل ، فلما أن عرفوا كيف يستخدمون هاتين الأداتين كادوا يأتون على كل ما فى نكسوس وباروس من رخام . وكثيراً ما كانت التماثيل فى العهد القديم (١١٠٠ - ٤٩٠) تطلّى بالألوان ، ولكنهم وجدوا فى آخر سنى ذلك العهد أن ترك الرخام المصقول من غير طلاء اصطناعى أوقع فى النفس وأدنى إلى تمثيل بشرة النساء الرقيقة .

وكان يونان أيونيا أول من عرفوا فوائد جعل الثياب عنصراً من عناصر صناعة النحت . ذلك أن الفنانين فى مصر والشرق الأدنى كانوا يجعلون الأثواب جامدة ملتصقة بالجسم ، ولم تكن تزيد على مئزر حجرى كبير يحنى الجسم الحى ، ولكن المثالين اليونان فى القرن السادس أدخلوا الثنايا فى الأقمشة ، واستخدموا الثياب للكشف عن مصدر الجمال الأول وطرازه وهو الجسم البشرى الصحيح السليم . غير أن أثر المصريين والأسويين فى الفن اليونانى ظل له من القوة ما جعل التماثيل فى كثير من آثار النحت اليونانية العتيقة ثقيلة جامدة خالية من الرشاقة ، وجعل الساقين مشدودتين حتى فى حالة الراحة ، والذراعين مسترخيتين متدلّيتين على الجانبين ، والعينين لوزيتى الشكل مائلتين أحياناً كميون معظم الشرقيين ، والوجه ذا شكل ثابت لا يتغير فى جميع التماثيل خالياً من الحركة والعاطفة . وكانت التماثيل اليونانية فى ذلك العهد تتبع القاعدة التى جرى عليها المصريون فى صنع تماثيلهم ، وهى أن يصنعوها على الدوام متجهة بوجوها نحو

الناظر إليها ، ومتناسبة الجانبين أدق التناسب ، حتى لو أنك رسمت خطأ عموديا في وسطها لمز هذا الخط في منتصف الأنف ، والقم ، والسرة ، وأعضاء التناسل لا يجحد عن ذلك قيد شعرة إلى اليمين واليسار ، ولا يتأثر موضعه بحركة الجسم أو سكونه . ولعل العرف هو سبب هذا الجمود المقبض الممل ، فقد كان قانون الألعاب اليونانية يحرم على الفائز فيها أن يصنع له تمثال أو يرسم له صورة إلا إذا كان قد فاز في جميع المباريات ذات الألعاب الخمس ، ويقولون إن الفائز فيها جميعاً هو وحده الذى يستمتع بانمو الجسماني المتناسق الخلق بأن يكون أنموذجا للجسم البشرى السليم (٥٧) .

وهذا السبب مضافا إليه في أغلب الظن أن العرف الدينى قبل القرن الخامس كان هو المسيطر على تمثيل الآلهة في اليونان ، كما كان مسيطراً عليه مصر ، هو الذى جعل المثال اليونانى يقتصر على عدد قليل من الأوضاع والأنماط ، ويصرف كل جهوده ومواهبه في إتقانها .

وكان أهم ما صرف فيه جهوده وأنقذ دراسته نمطان من التصوير هما تصوير الشباب العارى إلا من قليل الذى لا يستحق الذكر من الملابس ، ذى اليدين المقبوضتين والوجه الهادئ الصارم ؛ وتصوير العلاء المصففة الشعر ذات الوقفة والثياب المتواضعة ، تمسك ثوبها بإحدى يديها ، وتقرب القربان للآلهة باليد الأخرى . وقد ظل المؤرخون إلى عهد قريب يسمون التماثيل الأولى «أبلو» ؛ ولكنها كانت في أغلب الظن تماثيل للرياضيين أو تماثيل جنائزية ، وأشهر هذا النوع هو أبلو تينه Tenea ، وأكبرها حجماً تمثال أبلو سونيوم Sunium ، وأدناها على الضاخر عرش أبلو فى أمكل Amyclae قرب اسپارطة ، ومن أجملها كلها تمثال أبلو استرانج فورد Strangford المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وأجمل منه أبلو شوازل جوفيه Chaiseul Gouffier ، وهو صورة رومانية مأخوذة عن التمثال الأصل الذى صنع فى القرن الخامس (٥٨) . وتماثيل العذارى أوقع فى عين الذكور

على الأقل من تماثيل الرجال : فأجسامهن رشيقة هيفاء ، ووجوههن تعلوها ابتسامة ظريفة أشبه بابتسامة صورة مونا ليز Mona Lisa ، وثيابهن قد بدأت تتحرر من الجمود العرقى . وبعض التماثيل المحفوظة فى متحف أثينة خلقت بأن يعد من روائع الفن فى أى قطر آخر من أقطار العالم^(٥٩) . ومنها تمثال نستطيع أن نسميه عذراء طشيوز^(*) ، وهو يعد آية فنية فى بلاد اليونان نفسها ، وإن ما فى هذه التماثيل من مسة أيونية شهوانية لينى عنها بعض ما بها من جمود مصرى وصرامة دورية كالتى نشاهدها فى تماثيل « أبلو » . وقد ابتدع أركرموس Archermus الطشيوزى طراز آخر من التماثيل ، أو لعله أعاد إلى الوجود طرازاً منسياً منها ، فى تمثال النصر المقام فى ديلوس . ومن هذا الطراز نشأ فيما بعد طراز تماثيل النصر الحميلة التى صنعها پثنيوس Poenius فى أولبيا ، وتماثيل النصر المجنحة المقامة فى سمثريس Samothrace ، وصور الملائكة المجنحة فى الفن المسيحى^(٦٠) . وقد نحت مثالون مجهولون بالقرب من ميليتس طائفة من تماثيل النساء المكسوة الجالسة لتوضع فى هيكلى البرنشىدى Branchidae ، وهى تماثيل قوية ، لكنها فجئة ، مهيبة لكنها ثقيلة ، عميقة لكنها ميتة^(**) .

وقد بلغت صناعة الحفر درجة من القدم يسرت لإحدى القصص الظريفة أن تصف منشأها . وتقول هذه القصة إن فتاة من كورنثة رسمت على جدار الخطوط الخارجية ظل رأس حبيبها الذى يلقبه ضوء مصباح على جدار . ثم جاء أبوها بوتاديس Butades وهو فخرانى فلأ ما بين هذه الخطوط بالصلصال ، وضغطة حتى جمد ، ثم رفعه ، وحرقه ، ويؤكد لنا بلى أن هذه هى الطريقة التى نشأ بها النقش القليل البروز^(٦١) . وأصبح هذا الفن أكثر أهمية من صناعة التماثيل فى

(*) هو التمثال رقم ٦٨٢ فى المتحف الأمل بأثينة .

(**) وهو الآن فى المتحف البريطانى ، وتوجد نماذج منه فى المتحف الفنى بنيويورك .

والبرنشىدى هم كهنة الهيكل الذين يتوارثون مناصبهم فيه .

تزيين الهياكل والقبور ، وقد صنع أرسطاطاليس نقشاً جنازياً لأرسينيون في عام ٥٢٠ ق . م وهو تحفة من التحف الثمينة الكثيرة المحفوظة في متحف أثينة . وإذ كانت هذه النقوش البارزة تلون على الدوام تقريباً ، فقد كانت فنون النحت والنقش والتصوير وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، وكانت كلها تستخدم في العمارة ، وكان معظم الفنانين مهرة في هذه الفنون جميعها ، وكانت يروز الهياكل وأطنافها ، وما بين هذه الأطناف ، وما وراء القواصر — كانت هذه كلها تطل عادة بالألوان ، على حين أن البناء الرئيسي كان يترك عادة بلون الحجارة الطبيعي . أما الرسم الملون بوصفه فناً مستقلاً فليس لدينا من آثاره في البلاد اليونانية إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ؛ ولكننا نعرف من بعض أقوال الشعراء أن التصوير على الخشب بالألوان المزوجة في الشمع السائع كان من الفنون التي مارسها اليونان من عهد أنكريون (١٣) . وكان هذا الفن آخر ما ازدهر من الفنون في بلاد اليونان وآخر ما اندثر منها .

وجملة القول أن القرن السادس لم يبلغ فيه أى فن من فنون اليونان ، إذا استثنينا فن العمارة ، ما بلغت الفلسفة اليونانية وما بلغه الشعر اليوناني في هذا القرن نفسه من جرأة في التفكير وكمال التصوير . ولعل مناصرة الفنون كانت بطيئة النشأة بين أرسقراطية كانت لا تزال ريفية فقيرة ، أو بين طبقة رجال الأعمال التي كانت لا تزال ناشئة لم يخلق فيها الثراء حاسة النوق . ومع هذا فقد كان عهد الطغاة فترة تحفز وتحسين في كل فن من الفنون اليونانية — وبخاصة في عهد بيسستراتس وهيباس في أثينة . وفي أواخر هذا العهد بدأ الحمد القديم الذي كان يلزم فن النحت يزول شيئاً فشيئاً ، وقضى على القاعدة القديمة قاعدة نحت التماثيل مواجهة لناظرها ، وأخذت الساقان تتحركان ، والذراعان يتبعدان عن الجانبين ، واليدان تفتحان ، والوجه ينم عن الإحساس والأخلاق ، والجسم ينثنى ويتخذ أوضاعاً مختلفة تكشف عن دراسات جديدة في التشريح والحركة . وكان هذا

الانقلاب العظيم في فن النحت ، وما بعثه في الحجارة من حياة حادناً خطيراً في تاريخ اليونان ؛ كما كان التحرر من المواجهة في التماثيل من أجل أعمال اليونان الفنية . ومن ذلك الحين نبذ الفن اليوناني تأثير المصريين والشرقيين ، وأصبح فناً يونانياً خالصاً .

٣ - العمارة

استعاد فن البناء على مهل ما خسره بسبب الغزو الدوري ، ورفع اسم الدوريين إلى أكثر مما يستحق . وانتقلت أسس العمارة المسيحية إلى بلاد اليونان خلال العصور المظلمة القديمة الممتدة من عهد أبجمنون إلى تريبندر ، فاحتفظت روائع الفن اليوناني بطراز البناء المستطيل . القائم الزوايا ، وباستخدام العمود في داخل البناء وخارجه ، وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط ، وبالأروقة المعمدة ، والوجهات ذات الحزوز . غير أن العمارة المسيحية كانت عمارة مدنية غير دينية ، منصرفة كلها إلى تشييد القصور والدور ، أما العمارة اليونانية في عصر اليونان الزاهر فتكاد تكون كلها دينية ، فقد استحال القصر الملكي معبداً مدينياً بعد أن اضمحلت الملكية ، وعمل الديز والديمقراطية على توجيه عواطف اليونان إلى تعظيم المدينة في شخص إلهها .

وشيدت أقدم الهياكل اليونانية من الخشب أو اللبن ، وهما أنسب المادتين إلى العصر المظلم الفقير ؛ ولما أن صار الحجر المادة الأصلية في تشييد الهياكل ، بقيت المظاهر المعمارية كما كانت في عهد البناء بالخشب ؛ وظل جسم المعبد الأصلي المستطيل ، والعمد المستديرة ، « والعارضة الرئيسية » المركبة على العمود ، والحزوز الثلاثية في طرف العارضة ، والسقف ذو « الحملون » بقيت هذه كلها شاهدة على الأصل الخشبي الذي استمدت منه شكلها الأول . بل إن الشكل اللولبي الأيوني كان كما يبدو من صورته رسوماً لنباتات وأزهار على كتلة من الخشب^(١٣) ، وكثر استعمال الحجارة بازدياد ثراء اليونان وكثرة أسفارهم ، وكان الانتقال أسرع

ما يكون بعد أن فتحت مصر أبوابها للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، وكان حجر الجير المادة الشائعة الاستعمال فى أنماط البناء الجديدة قبل القرن السادس ، ثم بدأ استعمال الرخام حوالى عام ٥٨٠ ، وكان يستخدم أول الأمر فى الأجزاء التى يزين بها الهيكل ، ثم استخدم بعدئذ فى تشييد واجهته ، واستخدم آخر الأمر فى بناء الهيكل كله من قاعدته إلى سقفه .

وفى بلاد اليونان نشأت « مراتب » العمارة الدورية ، والأيونية ، ثم الكورنتية فى القرن الرابع قبل الميلاد . وإذا كان داخل الهيكل مخصصاً للإله والكهنة القائمين على خدمته ، وكانت العبادات كلها تؤدى فى خارجه ، فقد استخدمت « المراتب » الثلاث كلها فى تجميل الهيكل من خارجه وجعله ذا روعة ومهابة . وكان ذلك التجميل يبدأ من الأرض نفسها ، وهى عادة مكان مرتفع ، فيبنى الأساس من طبقتين أو ثلاث طبقات من الحجارة كل منها أقل مساحة من التى تحتها ، وفوق الطبقة العليا مباشرة يقوم العمود اللوزى دون أن تكون له قاعدة خاصة — ويزدان بحزوز ضحلة ، محدودة الجوانب ، ثم يتسع العمود اتساعاً ظاهراً فى وسطه ويتكون منه ما يسميه اليونان « امتداداً » له . ثم تقل سعة العمود الدورى بعض الشيء كلما قرب من قمته ، فيكون أشبه بالشجرة ومناقضاً للطراز المينوى — الميسينى (وجسم العمود الذى لا تنقص سعته — وأسوأ منه الذى يضيق كلما اتجه إلى أسفل — يبدو ثقيلًا فى أعلاه غير جميل فى منظره ، على حين أن القاعدة المتسعة ، تزيد شعور الإنسان باستقرار العمود ، وهو الشعور الذى يجب أن تبعثه فى النفس جميع العناصر . على أن العمود الدورى قد يكون مفرطاً فى الثقل ، مفرطاً فى سمكه بالنسب إلى ارتفاعه ، مفرطاً فى الصلابة والقوة لغرقاً يدل على البلاءة) ، وفى أعلى العمود الدورى يقوم تاجه البسيط القوى ويتكون من « عتق » أو رباط مستدير ، ويزود دائرى محذب كأنه

وسادة يرتكز عليها التاج ، وفي أعلاه التاج المربع نفسه وقد اتسع ليقوى
العمود على تحمل العارضة .

وبينما كان هذا الطراز من البناء ينمو ويتطور على أيدي الدوريين ،
ويتكيف في أغلب الظن بأبهاء العمدة التي في الدبر البحري وبنى حسن
المتقدمة على العصر الدورى ، كان اليونان الأيونيون يبدلون هذا الشكل
الأساسى نفسه بتأثير الطرز الآسيوية ، ونشأ من هذا التطور طراز أيونى
يقوم فيه عمود رفيع على قاعدة له خاصية ، ويبدأ من أسفله كما ينتهى
في أعلاه بطوق ضيق ، وكان في العادة أكثر ارتفاعاً وأصغر قطراً من
جسم العمود الدورى ، وكان ما فيه من نقص في سمكه من أسفل إلى أعلى
قليلاً لا تكاد العين تدركه . أما الخروز فكانت غائرة ، نصف دائرية
تفصلها بعضها عن بعض أطراف منبسطة ، وكان رأس تاج العمود الأيونى
يتكون من وسادة محدبة ضيقة ، ويعلوها تاج أضيق منها ، وبينهما تبرز
تلفيفة لولبية مزدوجة تكاد تخفيهما عن العين كأنها ملف مطبوق نحو
الداخل . وذلك عنصر مأخوذ عن الأشكال الحثية ، والآشورية ، وغيرها
من الأشكال الشرقية^(٤٦) . وهذه الخواص إذا أضيفت إليها النقوش البديعة
الحكيمة التي في الأروقة لا يستبين منها الرأى طرازاً في العمارة فحسب
بل يستبين منها كذلك خواص صنف من الناس . فهي تمثل في الحجارة
ما يمتاز به الأيونيون من وضوح ، ودماثة ، وقوة عاطفة ، ورشاقة ،
وولع بالتفاصيل الدقيقة ؛ كما أن الطراز الدورى يعبر عن تحفظ الدوريين ،
وكبريائهم ، وضخامتهم وقوتهم ، وبساطتهم الصارمة ؛ ولقد كانت تماثيل
الجماعات اليونانية المتنافسة ، وآدبها ، وموسيقاها ، وأخلاقها ، ووثابها ،
تختلف لتنسجم مع أنماط عمارتها ؛ فالعمارة الدورى رياضة ، والعمارة
والأيونية شعر ، وكتلتها تنشئ الخلود في الحجارة ، والأولى «نوردية»
أما الثانية فشرقية ، وهما معاً تكوينان الذكورة والأنوثة في صورة متناسقة
منسجمة في جوهرها .

وتمتاز العمارة اليونانية بأنها قد تطور فيها العمود حتى صار من عناصر الجمال كما صار دعامة يستند إليها البناء ، وكان العمل الأساسى للعمد هو حمل طنّف السقف وإراحة جدران المعبّد الداخلى من قوة دفع السقف ذى « الجمالون » إلى الخارج . وفوق العمد يقوم الرواق أى الطابق العلوى من البناء . وفيه أيضاً ، كما فى الأجزاء الساندة ، كان فن العمارة اليونانى يحرص على إظهار الفوارق بين العناصر اليونانية كما يحرص على إظهار الصلات الواضحة بينها . فقد كانت العارضة - أى الحجر الكبير الذى يصل تيجان الأعمدة بعضها ببعض - فى الطراز الدورى بسيطة أو كانت تحمل فوقها طنفاً بسيطاً ملوناً ، أما فى الطراز الأيونى فكانت تتكون من ثلاث طبقات تبرز كل منها تحت ما فوقها ، وكان فى أعلاها حلقة من الرخام مقسمة فلها بينها نقوش كبيرة مختلفة الأنواع . وإذا كانت الكتل المائلة التى يتكون منها إطار السقف فى الطراز الدورى تنحدر إلى أسفل ، وكان ما يمسكها هو الكتل الأفقية التى عند الطنّف ، فإن أطراف الكتل الثلاث مجتمعة كان يتكون منها - فى الخشب أولاً ثم فى الحجر المقلد للخشب بعدئذ - سطح مقسم ثلاثة أقسام ، وقد ترك بين كل قسم والذى يليه فراغ تتكون منه نافذة مفتوحة إذا كان السقف من الخشب أو من قطع القرميد المحروق ؛ فإذا ما استعملت فيه قطع مسطحة من الرخام فإن هذه « النوافذ » كانت تغطى بالواح من الرخام منقوشة نقشاً قليل البروز ، وفى الطراز الأيونى كانت هناك حلقة أو طنّف من النقوش البارزة حول الجدران الخارجية العليا لجسم المعبّد ، وكثيراً ما كان النوعان من النقوش - نقوش « النوافذ » ونقوش الطنّف - يستخدمان فى البناء الواحد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما نشاهد فى بناء البارثنون . وقد وجد المثال فى القواصر - وهى المثلثات المكونة من السقف ذى « الجمالون » من الأمام ومن الخلف - أحسن الفرص لإظهار فنه . وكان فى وسعه أن ينقش فيها الصور نقشاً كبير البروز ، وتكبر بحيث يستطيع

أن يراها من يقف في أسفل البناء ؛ وكانت الأركان المتجمعة - أو الطول عند المماربين - وسيلة تختبر بها مهارة الفنان العظيمة . وكان في الاستطاعة أن يجعل السقف نفسه تحفة فنية نجماء قطع القرميد الزاهية الألوان والمتقفات التي تستخدم لتصريف مياه الأمطار ، وتتخذ في الوقت نفسه قواعد للتماثيل العليا ترتفع من زوايا القواصر . وقصارى القول أنه كان في الهيكل اليوناني ، وبين العمد ، وعلى الجدران ، وفي داخل البناء نفسه ، ما يزيد على الحاجة من التماثيل والنقوش . وكانت للرسام أيضاً يد في زينتها : فقد كان الهيكل يطل كله أو بعضه بما فيه من تماثيل وبروز ونقوش . ولعلنا في هذه الأيام نغالي في الإكبار من شأن اليونان بعد أن عمت الأيام الطلاء عن معابدهم وآلهتهم وخلفت أكاسيد الحديد على الرخام ألواناً طبيعية لا يحصى عديدها تظهر بريق الحجارة تحت سماء اليونان الصافية . ومن حقنا أن نتوقع أن يصبح الفن الحديث نفسه وبالطريقة عينها جميلاً في يوم من الأيام .

وازدهر الطرازان المتنافسان ازدهاراً عظيماً في القرن السادس وبلغا ذروة الكمال في القرن الخامس . وقد قسما بلاد اليونان من الناحية الجغرافية قسمه ضيزى . فكان للفن الأيوني السيادة في بلاد آسية اليونانية وفي بحر إيجه ، وكان للفن الدوري السيادة في أرض اليونان نفسها وفي غربها . وكان أعظم ما أبدعه الفن الأيوني في القرن السادس هو معبد أرتميس في إفسوس ، ومعبد هيرا في ساموس ، وتماثيل البرنشيدي بالقرب من ميليتس . ولكن جميع المآثر الأيونية التي أنشئت قبل مرثون قد عدا عليها الزمان فلم يبق منها إلا أنقاضها . وأجل المباني الباقية من القرن السادس معابد بستوم Paestum وصقلية القديمة وكلها من الطراز الدوري . وقد بقي من الهيكل العظيم الذي شيد في دلفي بين عامي ٥٤٨ ، ٥١٢ تصميم ناعده نعرفه من رسوم المهندس اسپنثاروس Spintharus الكورنثي ، ما الهيكل نفسه فقد دمره زلزال وقع في عام ٣٧٣ ، ثم أعيد بناؤه بالنظام

عينه ؛ وكان لا يزال قائماً بهذه الصورة حينما طاف بوزنياس ببلاد اليونان ، وتكاد العمارة الأثينية في هذه الفترة أن تكون كلها دورية الطراز . وبه بدأ يبسستراتس حوالي عام ٥٣٠ معبد زيوس الأوبى الضخم في السهل لقائم عند أسفل الأكروبوليس . وهاجر مئات من الفنانين الأيونيين إلى أتكابعد أن فتح الأرس أبونيا في عام ٥٤٦ ، وأدخلوا في أثينة طراز العمارة الأيونية أو عملوا على إنمائه . وقبل أن ينصرم هذا القرن كان المهندسون الأثينيون يستخدمون الطرازين وكانوا قد وضعوا جميع الأسس الفنية لعصر بركليز .

٤ - الموسيقى والرقص

كان معنى لفظ Mousike عند اليونان أول الأمر هو الولاء لأية إلهة من إلهات الفن Muse ؛ وكان مجمع أفلاطون العلمى يسمى Museion أى متحف Museon ، ومعناه مكان مخصص لربات الفن Muses وأوجه النشاط الثقافى الكثيرة التى تناصرها . وكان متحف الإسكندرية جامعة تجرى فيها ضروب النشاط الأدبى والعلمى ولم تكن مكاناً تجمع فيه التحف . وكانت الموسيقى بمعناها الضيق الحديث منتشرة بين اليونان بقليل انتشارها بيننا في هذه الأيام إن لم تكن أكثر انتشاراً . وكان الأحرار جميعاً في أركاديا يواصلون دراسة الموسيقى إلى أن يبلغوا الثلاثين من عمرهم ، وكان كل واحد منهم يعرف استعمال آلة من الآلات ، وكان العجز عن الغناء يجلب العاجز العار^(٦٥) . وقد سمي الشعر الغنائى بهذا الاسم في بلاد اليونان لأنه كان يقرض ليتغنى به على القيثارة اليونانية والصنج والنأى ؛ وكان الشاعر عادة يقول الشعر ويلحنه ويغنى أشعاره ؛ ولهذا كان قرص الشعر الغنائى في بلاد اليونان أصعب كثيراً من قرص الشعر لقراءته قراءة صامتة في عزلة كما يحدث في هذه الأيام . وقبلما كان هناك أدب يونانى قبل القرن السادس الميلادى غير متصل بالموسيقى ، فقد كان التعليم والأدب

والدين ، والحرب ، وثيقة الاتصال بالموسيقى ؛ وكان للنغمات الحرية شأن عظيم في التدريب العسكري ، وكان كل ما يحفظ أو جملته يلحن شعراً وقبل أن يحل القرن الثامن قبل الميلاد كانت الموسيقى اليونانية قد أصبحت من الفنون القديمة وأصبح لها مئات الأنواع والأشكال .

أما آلاتها فكانت بسيطة ، وكانت الأسس التي تقوم عليها هي بعينها الأسس التي تقوم عليها في هذه الأيام : القرع ، والنفخ ، والأوتار . فأما القرع فلم تكن آلاته واسعة الانتشار . وقد ظل الناي شائع الاستعمال في أثينة حتى سخر القيادس من خدى معلمه المتفخين وأبى أن يستخدم هذه الآلة السمجة ، وتزعم حركة مقاومتها بين شباب اليونان . (وهذا إلى أن البوثيين ، كما يزعم الأثينيون كانوا أبرع منهم في استخدام الناي ، ولهذا كانوا يعدون هذا الفن من الفنون المرذولة)^(٦٦) . وكان الناي البسيط قصبة من الغاب ، أو الخشب المثقوب ، ذات مبسم منفصل عنها ، ومثقوبة بثقوب للأصابع يراوح عددها بين اثنين وسبعة ، يمكن أن توضع فيها نغمات تعدل درجة الصوت . وكان بعض الموسيقيين يستخدمون الناي المزدوج - ويتكون من ناي « ذكر » أو غليظ النغمة في اليد اليمنى وناي « أنثى » أرفع النغمة في اليسرى ، يرتبط كلاهما بالقم برباط حول الحدين ، وينفخ فيهما معاً في توافق بسيط . ثم أوصل اليونان الناي بكيس قابل للتمدد فأوجدوا بذلك موسيقى القرب ، وجمعوا عدداً منها وكونوا منه ما يعرف بأنبوبة بان ؛ ثم أطالوا طرف الناي وسدوا ثقوب الأصابع فكان البوق^(٦٧) . ويقول هوزنياس إن موسيقى الناي كانت في العادة مقبضة ، وكانت تستخدم على الدوام في ترانيم الدفن والمرأى ؛ ولكننا لانظن أن الأولترداى Auletredai أو الفتيات اليونانيات المسامرات النافحات في الناي كن مبعث الكتابة والانتفاض . أما الآلات الوترية فكان العزف عليها مقصوراً على شد الأوتار بالإصبع أو المنقر ، ولم يكن العازف ينحن

في أثناء العزف . وكان ثمة أنواع مختلفة من القيثارات صغيرة وكبيرة ولكنها كانت في جوهرها شيئاً واحداً ، فكانت كلها تتكون من أربعة أوتار أو خمسة مصنوعة من أمعاء الضأن ومشدودة على قنطرة فوق جسم رنان من المعدن أو صدفة سلحفاة . وكانت القيثارة صنجاً (كنجاً) صغيراً يستخدم أثناء غناء الشعر القصصى ، وكانت القيثارة اليونانية الصغيرة تستخدم مع الشعر الغنائي والأغاني بوجه عام .

ويروى اليونان قصصاً عجيبة عن كيفية اختراع الآلة هرمس ، أبولو ، وأثينا ، لهذه الآلات ، وكيف تحدى أبولو بقيثارته أبواق مارسياس (وهو كاهن الإلهة الفريجية سيبيلا) ونابه وغلبه - بطريقة غير شريفة في ظن مارسياس - بأن أضاف صوته إلى صوت الآلة ، وختم المباراة بأن أمر بسلخ جلد مارسياس حياً ؛ وعلى هذا النحو تمثل الأساطير غلبة القيثارة على الناي . وثمة قصص أطرف من هذه القصة تحدث عن الموسيقيين الأقدمين الذين أوجدوا فن الموسيقى أو عملوا على تقدمه : عن أولمبس تلميذ مارسياس الذي اخترع السلم ذا المسافات القصيرة (*) حوالى عام ٧٣٠ ق . م ، وعن لينوس Linus معلم هرقل الذي اخترع العلامات الموسيقية اليونانية وأوجد بعض الدرجات (٧٠) ، وتحدثنا عن أرفيوس التراقي كاهن ديونيسس ، وعن تلميذه موسيوس Mausaeus الذي قال إن الغناء من أحلى الأشياء للأدميين (٧١) . وتوحي هذه القصص بأن الموسيقى اليونانية استمدت أشكالها في أغلب الظن من ليديا ، وفريجيا (٧٢) ، وتراقية (**).

(*) وهو سلم يحتوى على أربع نغمات هي : سى سى فالاسى سى - دوى ، والشرطة التي فوق العلامة تدل على أنها ربع نغمة .

(**) لقد كان لموسيقى هيلاس سلام مختلفة أكثر عدداً وأشد تعقيداً من موسيقانا . ذلك أن سلمنا الموسيقى لا يحتوى على أسطر من نصف نغمة ، ويكون اثنا عشر نصفاً من أنصاف النغمات الحلقية السلبية معنا ؛ أما اليونان فقد كان لديهم أربع نغمات ، وكان لهم -

وكانت الموسيقى من مستلزمات الحياة اليونانية لانكاد تخلو منها ناحية من نواحيها ، فكانت لديهم ابتهالات لديونيسس ، وتهايليل لأپلو ، وترانيم لكل إله من آلهتهم . وكانت لديهم مدائح للأغنياء ، وأغاني نصر لأبطال الرياضة ، وأناشيد تغنى على الطعام والشراب ، وللمحب ، والزواج ، والحزن ، والدفن . وكان للرعاة ، والحاصدين ، وعاصري الحُمور ، والغزاليين والنساجين ، هم أيضاً أغانيهم ، وأكبر الظن أن الرجل في السوق أو في النادي ، وأن السيدة في بيتها والمرأة في الطرقات ، كل هؤلاء كانوا يغنون أغاني لم يكن خطها

= نخبة وأرهمون سلاً ، في كل منها ثمان عشرة نغمة (٧٣) . وكان يتألف من هذه السلام ثلاث مجموعات : مجموعة السلام المتصلة للنغمات وأساسها الأربعة الأصوات : م ، دى ، دو ، سى ، والسلام القائمة على م دو ، والسلام البارعى ، والسلام ذات المسافات القصيرة وأساسها م دو دو سى . وقد نشأت السلام الكنسية في الصور الوسطى من السلام اليونانية بتوحيدها ، ومن هذه السلام الكنسية نشأت السلام الموسيقية الحالية .

وقد وجدت في داخل السلم المتصل النغمات في الأربعة الأصوات سبع درجات ، وذلك بتعديل الأوتار لتغير موضع أنصاف النغمات في الحلقة السلمية ، وأهم هذه الدرجات هي الدرجات الثورية : م رى دو سى لاصول فامى ، وهى النغمات الحرة الرصينة وإن كانت من طبقة صفرى ، والبيدية (دوسى لاصول فامى دى دو) الرقيقة المرفة وإن كانت من طبقة صفرى كذلك ، والأريجية (رى دو سى لاصول فامى رى) وهى من طبقة صفرى وصفاة انفصالية قوية (٧٤) ؛ ومن التعريف المتبع أن يقرأ الإنسان ما دار من الجدلى للفتيف حول ما يعزوه اليونان - وخاصة فلاسفتهم - لأنصاف النغمات من أثر نافع أو ضار في الموسيقى والأخلاق والطب . فهم يقولون لنا إن الموسيقى الدورية تبعث في الرجال الشجاعة والمهابة ، وإن اليديه تجعلهم عاطفين ضماذاً ، والفريجية سريعى التهيج مماندين . أما الأملاطون فيرى أن معظم الموسيقى تبعث على الترف الخفث والفساد الخلق الطلق ، ويجب أن يخرج جميع الموسيقى الآلية من دولته المثالية (٧٥) . غير أن ثيوفراستوس لا يعدم كلمة طيبة يقولها عن جميع أنواع الموسيقى حتى الموسيقى الفريجية ؛ فهو يقول مثلاً إن الأمراض المستعصية تزول آلامها بعزف نغمة فريجية بالقرب من الجزء العليل .

ولم تكن اللامات الموسيقية اليونانية دوائر وذيولا تكتب على مجموعة من السطور ، بل كانت هى الحروف الهجائية اليونانية مقلوبة أو مستعرضة أومزيدة عليها فقط أو شرط لتجمل منها أربماً وستين علامة توضع فوق ألفاظ الأغنية . ولقد وصلت إلينا قطع صغيرة من هذه اللامات نعتزى بها من الكثير الذى فقدناه منها ؛ وهى تنبئ عن أنغام أقرب إلى الموسيقى الشرقية منها إلى الأوربية ، تطبقها آذان الخنود ، أو الصينيين ، أو اليابانيين أكثر مما تطبقها آذان الغربيين البليدة التى لم تنمود أرباع النغمات .

من العلم كحفظ أغاني سمنيدس ؛ وما من شك في أن الأغاني الخلية والأغاني الراقية قد جاءت كلتاهما إلينا من أقدم العصور .

وكانت أرقى أنواع الموسيقى في اعتقاد اليونان وفي حياتهم العملية الغناء الجماعي ؛ وقد أكسبوا هذا النوع من الغناء عمق الفلسفة ، وتعقيد التركيب ، وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهما مكاناً في السمفونية والمقطوعات الموسيقية ، وكان في كل احتفال — سواء أكان احتفالاً بمحصاد ، أم بنصر ، أم بزواج ، أم بيوم مقدس ، مكان لجوقة غنائية ؛ وكانت المدن والجماعات المختلفة تقيم من حين إلى حين مباريات في الغناء الجماعي تعد له العدة في معظم الأحيان قبل موعده بزمان طويل ، فيعين مؤلف لكتابة الألفاظ والموسيقى ، ويطلب إلى رجل مثر أن يتكفل بالنفقات ، ويستأجر المغنون المحترفون ، ويعنى كل العناية بتدريب الجوقة . وكان المغنون كلهم يغنون نغمة واحدة ، كما نشاهد الآن في موسيقى الكنيسة اليونانية ، ولم يكن هناك « صوت منفرد » في الفرقة سوى ما حدث في القرون المتأخرة من ارتفاع صوت المصاحب تحسباً فوق الصوت ، أو انخفاض عنه بهذا القدر ، أو من معارضته . ويبدو أن هذا هو أقرب ما وصل إليه اليونان في التوافق والألحان التوافقية البسيطة (٧٨) .

أما الرقص في أرقى صورته فقد مزج بالغناء الجماعي حتى صاراً فناً واحداً ، كما أن كثيراً من أنواع الموسيقى الحديثة ومصطلحاتها كانت فيما مضى متصلة بالرقص (*) ، ولم يكن الرقص يقل في قدمه وانتشاره عن الموسيقى عند اليونان . ولما عجز لوسيان عن تتبع نشأته على سطح الأرض حاول أن يجدها في حركة النجوم المنتظمة (٨٠) . ولا يكتفى هومر بأن يحدثنا عن المرقص الذي صنعه ديدلوس

(*) من ذلك أن الكلمة الإنجليزية foot المقابلة للوتر في الشعر مأخوذة في الأصل من الرقص المصاحب للموسيقى (٧٩) ؛ وكان يونان يفهمون من لفظ أركهترا طوراً لرقص على هيئة مسرح في المادة .

Daedalus لأدرياني Adrians ، بل يحدثنا أيضاً عن راقص ماهر بين المحاربين اليونان أمام طروادة يدعى مريونيس Mereiones ، كان يرقص وهو يحارب فكانت الحراب لهذا السبب تعجز عن إصابته^(٨١) . ويصف أفلاطون الرقص (orchesia) بأنه « الرغبة الفطرية في شرح الألفاظ بحركات الجسم كله » - وهو ما تفسره به بعض اللغات الحديثة . وخير من هذا ما وصفه به أرسطاطاليس إذ قال إن الرقص « تقليد الأعمال ، والأخلاق ، والعواطف ، بطريق أوضاع الجسم والحركات الإيقاعية^(٨٢) » . وكان سقراط نفسه يرقص ، وهو يمدح هذا الفن لأنه يهب الصحة لكل جزء من أجزاء الجسم^(٨٣) ، وهو يقصد الرقص اليوناني بطبيعة الحال .

فذلك أن هذا الرقص كان يختلف عن الرقص عندنا ، فهو ، وإن كان في بعض أشكاله يثير الغريزة الجنسية ، قلما كان يجعل الرجال يلتصقون بالنساء ، بل كان رياضة فنية ، لا عنافاً في أثناء المشي ، وكان كالرقص الشرقي تستخدم به الذراعان واليدان ، كما تستخدم الساقان والقدمان . وكانت أنماطه لا تقل اختلافاً عن أنماط الشعر والغناء ، وقد ذكر الثقات الأقدمون مائتين من هذه الأنماط ، من بينها رقصات دينية كالتى كان يقوم بها عباد ديونيسس ، ورقصات رياضية كرقصات الاسبارطيين في احتفال الشباب العرايا ، ورقصات حربية كالرقص الپيرى يتعلمه الأطفال فيما يتعلمون من التدريب العسكرى ؛ ومنها المهرشما Hyporchema الفخمة أى الترنيم أو اللعب الذى يقوم به اثنان من المغنين أحدهما يغنى ثم يرقص واثنيهما يرقص ثم يغنى ؛ ثم يتناوب الاثنان بعد هذا الرقص والغناء ؛ ومنها الرقصات الشعبية التى ترقص عند كل حادثة هامة من حوادث الحياة وكل فصل أو عيد من فصول السنة أو أعيادها . وكانت لديهم مباريات في الرقص ، كما كانت لديهم مباريات في كل شئ سواه ، تشمل في العادة أغاني جماعية . وكانت هذه الفنون كلها - الشعر الغنائى ، والأغاني ، والموسيقى الآلية ،

الرقص - وثيقة الصلة بعضها ببعض عند اليونان الأولين ، وكانت تؤلف في كثير من مظاهرها فناً واحداً ، ثم دخل فيها التفرع والتخصص المهني على توالى الزمن ، وبدأ ذلك في القرن السابع ، فترك الشعراء الجوالون الأغاني واستبدلوا بها التلاوة ، وفضلوا الشعر القصصي عن الموسيقى (٨٦) . وكان أرشيلوقوس Archilochus يغنى أشعاره دون أن يستعين بآلات موسيقية (٨٧) ، وبدأ ذلك التدهور الطويل الأمد الذى نزل بالشعر آخر الأمر فجعله أشبه بملك صامت حبس سقط من السماء . ثم تفرع الرقص ذو الغناء الجماعى فكان منه غناء من غير رقص ، ورقص من غير غناء ، لأن « الحركات العنيفة تسبب قصر النفس ، ولذلك أثر سيئ في الغناء » كما يقول لوسيان (٨٨) . وظهر بهذه الطريقة عنها موسيقيون لا يغنون ، نالوا إعجاب مستمعهم بمحافظتهم الدقيقة على أرباع النغمات (٨٩) . وقد غالى بعض مشهورى الموسيقيين وقتئذ ، كما يغالى أمثالهم الآن ، في أجورهم . من ذلك أن أميوس Amoebeus المغنى والعاظ على القيثارة كان يتقاضى وزنة (ثالثتا) أى نحو ٦٠٠٠ ريال أمريكي عن كل حفلة (٩٠) . وما من شك في أن الموسيقى العادى لم يكن ينال من الأجر إلا ما يسد به رمقه ، وذلك لأن الموسيقى ، كغيره من الفنانين ، ينتمى إلى مهنة كان لها شرف القضاء على أهلها جوعاً في كل جيل من الأجيال .

وأما الذين نالوا أوسع الشهرة فهم أمثال تريندر ، وأريون ، وألكان ، واستيكورس ، الذين برعوا في جميع أنواع الموسيقى ، والذين مزجوا الغناء الجماعى ، والموسيقى الآلية ، والرقص ، فجعلوا منها فناً واحداً معقداً متوافقاً ، لعله كان أبجل وأجلب للسرور من التمثيلات الغنائية والفرق الموسيقية في هذه الأيام . وكان أريون أشهر أولئك الأساتذة كلهم . ويروى عنه اليونان أنه كان يقوم برحلة من تاراس Taras إلى كورنثة ، فسرق منه الملاحون نقوده ، ثم خبروه بين القتل طعناً أو غرقاً . فما كان منه إلا أن غنى أغنية أخيرة

ثم ألقى بنفسه في البحر ، فحمله دلفين على ظهره (ولعل الذى حملهُ هو عوده) وأوصله إلى البر . وهو الذى جعل من أناشيد المغنين السكارى ، الذين كانوا يرتجلون الأغاني الخمرية الديونيسية ، أغاني جماعية مدربة غير مخمورة ، تتألف من خمسين صوتاً ، تغنى على أحد جانبي المسرح وترد عليها فرقة أخرى على الجانب الآخر . وكان موضوع الأغنية في العادة ما لاقاه ديونيسس من العذاب والموت ، وكان المغنون ينكرون في العادة في زى جن الحراج القرية الشبه بشكل المعز تكريماً لخدم الإله كما تصورهم القصص المتواترة . ومن هذه الأغاني والحفلات نشأت المأسى اليونانية باسمها ومعناها .

٥ - نشأة التمثيل

امتاز القرن السادس بما ازدهر فيه من أسباب العظمة المتعددة التي انتشرت في كثير من البلاد . وكان تاج مميزاته كلها أن وضع فيه أساس التمثيل . لقد كان هذا القرن من فترات الإبداع الخلاقة في التاريخ . ومبلغ علمنا أن الناس قبله لم ينتقلوا من المسرحية الصامتة التي تعتمد على الإشارة ، أو من الطقوس الدينية ، إلى المسرحية الناطقة الدنيوية .

ويقول أرسطاطاليس إن الملهاة قد تطورت من أولئك الذين كانوا يقودون موكب عضو التذكير . ذلك أن جماعة من الناس يحملون عضو تذكير مقدس وينشدون أناشيد لديونيسس أو لغيره من آلهة الزرع ، كان يطلق عليهم في اللغة اليونانية اسم كوموس أو الطرب . وكان رمز الصلات الجنسية من مستلزمات هذا الموكب لأنه كان ينتهى بزواج رمزي يهدف إلى تشجيع الإنبات بوسائل سحرية^(٩٢) . ومن ثم كان الزواج والتناسل المرتقب هو الخاتمة الطبيعية للملهاة اليونانية القديمة ، كما هو خاتمة معظم الملاحى والروايات القصصية الحديثة . وقد ظلت الملاحى اليونانية إلى آخر أيام منتدر Menander بذينة فاحشة لأن نشأتها

كانت الصلوات الجنسية الصريحة ، ولأنها كانت في بدايتها احتفالا مرحا بقوى التناسل ، فكان القائمون بها يتحللون من كثير من القيود الأخلاقية في المسائل الجنسية ، وكانت قواعد الآداب وقوانينها يقف العمل بها في يوم الاحتفال ، فتباح حرية الكلام بأفحش الألفاظ Parthasia^(٩٣) . وكان كثير من المحتفلين يزيرون بزي جنيات الحراج الديونيسية ، ويضعون في ثيابهم ذيل ماعز وعضو تذكير اصطناعي طويل من الجلد الأحمر . ثم أصبح هذا هو اللباس التقليدي على المسارح التي تمثل الملامى ، وكان في عهد أرسطو عادة دينية لا يمكن التحلل منها . والحق أن عضو التذكير ظل رمزاً ملازماً للمهرج في الملهاة حتى القرن الخامس في أوروبا الغربية ، وحتى آخر أيام الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا الشرقية^(٩٤) . وكان يصحب عضو التذكير في الملهاة القديمة ذلك الرقص الفاحش الخليج المعروف برقص الكرداكس^(٩٥) Kordax .

ومن أغرب الأشياء أن تحوّل مرح الإنبات الرينى إلى الملهاة التمثيلية قد حدث أولاً في صقلية . ذلك أن رجلاً يدعى سوزريون Susarion من أهل مجارا هبليا Megara Hyblaea القرية من سرقوسة هو الذى حول موكب الطرب إلى مسرحيات قصيرة مليئة بالهجاء الفاحش واللهو^(٩٦) . ثم انتقل هذا الفن الحديد من صقلية إلى البلوونيز ومنها إلى أتكنا . وكان الممثلون المتنقلون ، أو الهواة المحليون ، يمثلون الملامى في القرى . ومر قرن كامل قبل أن يعنى ولاية الأمور - على حد قول أرسطاطاليس^(٩٧) - بالملهاة عناية جدية فيبيحوا تمثيلها في الأعياد الرسمية (٤٦٥ ق . م) .

ونشأت المأساة - Tragoidia - أو أضحى الماعز - بالطريقة عينها من محاكاة المحتفلين رقصاً وغناء بعيد ديونيسس ، المتشبهين بجنيات الغابات ، والمرتدين جلود الماعز^(٩٨) . وقد ظلت هذه المحاكاة جزءاً أساسياً من المسرحيات الديونيسية إلى أيام يورپديز ، فكان ينتظر من كل مؤلف لمأساة من ثلاثة فصول أن يراعى

العادة القديمة فيضيف إليها فصلاً رابعاً هو عبارة عن مسرحية قصيرة تعرض فيها جنيات الغاب تكريماً لديونيسس . وفي هذا يقول أرسطاطاليس (٩٩) : « ولإذ كانت المأساة قد تطورت عن مسرحية جن الغابات فإنها لم ترتفع من الحبيكات القصيرة ، والعبارات المضحكة ، إلى مكائنها الرفيعة الكاملة إلا في زمن متأخر جداً » . وما من شك في أن عوامل أخرى كان لها شأن في نشأة المأساة ، وأن هذه العوامل قد قويت وظهر أثرها في ذلك الوقت ؛ ولعلها قد استمدت شيئاً من عبادة الموتى واسترضائهم (١٠٠) ، ولكن أهم ما استمدت منه منذ نشأتها هو الحفلات الدينية الرمزية كتمثيل مولد زيوس في كريت أو أرجوس أو ساموس ، وكزواجه الرمزي بهيرا ؛ أو حفلات ديمتر وپرسفوني في إليوسيس وغيرها ، وأهم من هذا كله ما كان يحدث في البلويونيز وأتكا من حزن ومرح لموت ديونيسس وبعثه ، وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم *Dromena* — أى أشياء تعمل ، ولفظ *Drama* ذو صلة بهذا الاسم ومعناه — أو ما يجب أن يكون معناه — « العمل » . وقد ظلت فرق الغناء في سكيون حتى أيام الطاغية كليشئيز تحيي ذكرى « عذاب أدراستوس *Adrastus* » ملكها القديم . وفي إيكاريا *Icaria* التي شب فيها تسييس كان يضحى بعز لديونيسس ، ولعل « أغنية العز » الذي اشتق منها اسم المأساة اليوناني كانت أغنية تغنى حين تقطيع هذا الرمز أو هذا التجسيد للإله التمثيل (١٠١) . وقصارى القول أن المسرحية اليونانية كالمسرحية الإنجليزية استمدت أصلها من الطقوس الدينية .

ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية ، مأساة كانت أو ملهاة ، كانت تمثل على أنها جزء من حفلات ديونيسس بإشراف الكهنة في دار التمثيل تسمى باسمه ، وعلى يد ممثلين يسمون « الفنانين الديونيسيين » . وكان يوثى بتمثال ديونيسس إلى مكان التمثيل ، ويوضع أمام المسرح لكي يستمتع بمشاهدة التمثيل ، وقبل البدء به يضحى بجيوان للإله . وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة . فإذا

ارتكبت فيها جريمة عوقب مقترفها لأنه ارتكب خطيئة دينية أكثر مما ارتكب جريمة مدنية . وكما أن الملهاة كان لها مقام الشرف على مسرح مدينة ديونيسيا ، كذلك كان للملهاة المكانة الأولى في الاحتفال بعيد لينيا ، ولكن هذا الاحتفال نفسه كان احتفالا ديونيسيا في صبغته . ولعل موضوع التمثيل كان في بادئ الأمر كالعشاء الرباني عند المسيحيين ، أى عذاب الإله وموته ؛ ثم أذن للشعراء على توالى الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية . وربما كانت المأساة في صورتها الأولى مراسم سحرية تهدف إلى الوقاية من المآسى التى تمثلها أو إلى تطهير المستمعين من الشرور تطهيراً أكثر مما يفهم من هذا اللفظ عند أرسطاطاليس ؛ وذلك بتمثيل هذه الشرور كأنها قد نشأت وانتهت على المسرح^(١٠٢) ، ولقد كانت هذه النشأة الدينية للمأساة اليونانية من الأسباب التى وضعتها فى مستوى أرقى من مستوى المأساة الإنجليزية فى عصر الملكة إليزابث .

وأضحى فرقة المغنين والراقصين ، التى جعلها أريون فرقة من المقلدين والمحاكين ، أساس الحركات التمثيلية ، وظلت جزءاً أساسياً من المأساة اليونانية حتى آخر مسرحيات يورپديز . وكان الممثلون الأولون يسمون بالراقصين لأنهم جعلوا مسرحياتهم رقصاً جماعياً قبل كل شئ ؛ وكانوا فى واقع الأمر معلمى رقص^(١٠٣) . ولم يكن هذا التمثيل الرقصى والغنائى الجماعى ليجتاج لأكثر من شئ واحد ليصبح مسرحية بالمعنى الصحيح ، ذلك هو وجود ممثل يقابل هذه الجماعة ، ويقوم أمامها بأعمال ، أو يتحدث إليها بأحاديث . وقد خطرت هذه الفكرة لواحد من معلمى الرقص ومدربى المغنين هو ثيسبيس Thesbis الإيكاريوى - من إيكاريا Icaria وهى بلدة قريبة من مجارا البلوونيز حيث كانت تمثل فى كل عام طقوس دتمر ، وپرسفونى ، وديونيسس زجربوس . وقد انفصل ثيسبيس هذا من فرقة الراقصين والمغنين ، مدفوعاً إلى هذا من غرشك بتأثير

(١٠٢ - ١ - ٣٠١ - ٢٠٤)

الأنانية التي تحرك العالم وتعمل على تقدمه ، ووضع لنفسه عبارات يقولها بمفرده ، وأوجد فكرة المقابلة والنزاع مع سائر الفرق ، وقدم للتاريخ المسرحية بمعناها الدقيق ، وقام بأدوار مختلفة من هذا القبيل أصابه التوفيق فيها تارة والإخفاق تارة أخرى ؛ ولما أن مثَّلت فرقته في أثينة غضب صولون أشد الغضب على ما أظنه خداعاً للجمهور ، وندد بهذه البدعة الفنية ، وسماها فساداً خلقياً (١٠٤) — وتلك تهمة طالما اتهم بها التمثيل في كل جيل . وكان بيسستراتس أوسع من صولون خيالاً ، وشجع المباريات التمثيلية في عيد ديونيسس ؛ وقد فاز ثيسبس في إحدى هذه المباريات . وتطورت المسرحية في شكلها الجديد تطوراً سريعاً استطاع معه كوريلوس Choerilus بعد جيل واحد أن يمثل مائة وستين مسرحية . ولما أن عاد إسكيلوس ، وعادت أثينة ، ظافرين من معركة سلاميس بعد خمسين سنة من حياة ثيسبس ، كان المسرح قد نهياً لاستقبال العصر المجيد في تاريخ المسرحية اليونانية .

الفصل السادس

نظرة إلى الماضي

إذا عدنا بتفكيرنا إلى الحضارة المتعددة النواحي التي صورنا بعض قسمها في الصفحات الماضية ، بدأنا ندرك ما كان اليونان يدافعون عنه في مرثون . ذلك أن بحر إيجه يبدو كثول من النخل اليوناني العامل ، المتنازع ، اليقظ ، المبتدع ، يستقر معانداً في كل ثغر ، وينتقل باقتصاده من الحرث والزرع إلى الصناعة ثم إلى التجارة ، ويتبدع كل ذى روعة من الأدب والفلسفة والفن . وما يثير الدهشة والإعجاب أن تنضج هذه الثقافة الجديدة بهذه السرعة وتنتشر هذا الانتشار الواسع ، وأن تضع في القرن السادس جميع الأسس التي قامت عليها أعمال القرن الخامس الهجيدة . ولقد كانت هذه الحضارة من بعض نواحيها أبجل وأرق من حضارة عصر بركليز - فقد كانت أرق منها في شعر الملاحم والشعر الغنائي ، ينعشها ويزينها ما كان للنساء من حرية أوسع ونشاط ذهني أعمق مما كان لمن في عصر بركليز . ولقد كان هذا العصر المتقدم أحسن حكماً من بعض الوجوه من العصر المتأخر الذي كان أكثر منه ديمقراطية ، بل إن أسس الديمقراطية نفسها قد وضعت في ذلك القرن ؛ ذلك أنه قبل أن ينتهي كان حكم الطغاة قد علم اليونان من النظام ما يكفي لجعل الحرية اليونانية مستطاعة الوجود .

وكان تحقيق الحكم الذاتي حدثاً جديداً في العالم ، لأن الحياة من غير الملوك لم تكن قد جروء عليها مجتمع كبير في العلم قبل ذلك الوقت . ونشأ من هذا المعنى الجليل ، معنى الاستقلال الفردي والجماعي ، حافظ قوى لجميع مغامرات اليونان . وكانت حريتهم هي التي ألهمتهم ما أبدعوه في الفنون والآداب ،

والعلوم والفلسفة ، من روائع لا يكاد يصدقها العقل . ولسنا ننكر أن جزءاً كبيراً من عامة الشعب، كان يؤمن بالخرافات ، والأوهام ، والمعتقدات الخفية الغامضة ، والأساطير ، ويعشقها كما يؤمن بها الناس ويعشقونها على الدوام . ولكن الحياة اليونانية قد أصبحت على الرغم من هذا حياة دنيوية إلى حد لم يسبق له مثيل في التاريخ ؛ وانفصلت السياسة ، والشرائع ، والآداب ، والبحوث ، واحدة بعد واحدة من السلطة الدينية ، وتحررت من سلطانها ، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان ، جسمه وروحه ، تفسيراً مستنداً إلى أسس طبيعية ؛ ووضع العلم ، الذي لم يكد يكون له من قبل (*) وجود . وقوانينه الأولى الجريئة ، فوضعت قواعد الهندسة الإقليدية ، وأضحى وضوح التفكير وتنظيمه ، وصدقه ، المثل الأعلى الذي تنشده أقلية من الرجال هي التي أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم . وبذلت جهود جسمية وروحية جبارة للمحافظة على هذه المثل وما تبعته من آمال ، وإنقاذها من أيدي الاستبداد الأجنبي المميت ، ومن الضياع في دياجير الغموض والتصوف القديم ، فكسبت للحضارة الأوربية ما تستمتع به من ميزة الحرية التي كلفتها الشئ الكثير .

(•) لعل المؤلف قد نسي ما قاله من قبل عن علوم الأمم القديمة كالمصريين والبابليين ، أو لعل في قوله « لم يكد » إشارة إلى هذه العلوم . (انترجم)

الباب العاشر

الكفاح في سبيل الحرية

الفصل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « في أثناء حكم دارا ونخشيارشاي وأرتخشس لاقت بلاد اليونان من الأهوال ما لم تلقه في العشرين جيلا السابقة على هذا العهد^(١) » وكان لابد أن يلقي أهلها جزاء نمامهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم في كل مكان لابد أن يؤدي عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذا كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسبانيا الشرقى غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائي الأوربي - الذي يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية - ينافس الطريق الشرقى البري والبحري - الذي يخترق الهند وفارس وفينيقية - ويفوقه في الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يحمد أواره قط كان لابد أن يؤدي إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق في تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التي لم تكن معارك لادي Lade ، ومرثون ، وبلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالي Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأرييلا ، وكاني ، وزاما إلا أحداثاً منها صغيرة ، وانتصر الأوروبيون على الشرقيين في هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحري أقل نفقة من النقل البري ،

ومنها أن من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الخشن ذا الزعة الحربية ، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

في عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوديا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمال الهند ، والتركستان ، وأرض الحريرة ، وشمال بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرق بحر إيجه وتراقية ، ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التي شهدتها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحيها في المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى في خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هي أمة اليونان ، التي لم يكدها دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ، وقد سأل مرة عن « الأثينيين — من هم ؟ » . وحدث في عام ٥٠٦ أن قامت ثورة في أثينة انتهت بخلع الطاغية هيبياس ، ففر إلى المرزبان الفارسي في سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكما من قبل الفرس .

وكان ذلك لإغراء قوياً زاده قوة تحرش مؤقت . ذلك أن المدن اليونانية التي ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجأة على ولايتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرسنجراس الميليقي إلى اسبارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح في بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهي المدينة الأصلية التي نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلح عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون في هذه الأثناء يعملون بصنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

في كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة ثائرة تجيش جيوشها ولكنها تسبقها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميلي ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الخاف الأيوني أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عقدت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسي ، فلما أن التمت العمارة البحرية الفارسية بالعمارة الأيونية عند لادى في عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية في التاريخ ، انسحبت سفن ساموس الخمسرين دين أن تشارك في القتال ، وحدث حلوها كثير من أقسام الأسطول الأيوني^(٣) . وهُزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تقف الحصار الأيونية بعدئذ لإفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميلتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أيونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة في شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبناتها من المدن الأيونية ، وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكأ .

و عام ٤٩١ خاض أسطول فارسي قوامه ستائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجه من جزيرة ساموس ، ووقف في طريقه ليخضع جزائر سكليديس ، ووصل إلى ساحل عويية يحمل مائتي ألف محارب . واستسلمت عويية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذي يفصلها عن أتكأ ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هيباس قد نصحهم بأن في وسعهم أن يستخدموا في هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً^(٤) .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل في مقدور أمة ضعيفة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف في وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية في الوقوف في وجه هذه الجيوش الحارقة ، واستعدت اسبارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلانية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيداس العبيد في أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيشين اليوناني حوالي مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها في أغلب الظن حوالي مائة ألف^(٥) . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يالفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان في الدفاع والهجوم الجماعين بصفوفهم المتراسة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الماحقة بالمثل الذي ضربه لهم أرسنديس Aristides إذ نزل عن القيادة للملتيداس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولوا كل واحد يوماً^(٦) . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندي القوي الحشن الطباع أن توقع بالحقاقل الفارسية لحرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التي لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا في مرثون ٦٤٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسبارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثثوا على الفائزين .

الفصل الثاني

أرسطيديز وثمستكليز

إن سيرة ملتيا دس وأرسطيديز بعد معركة مرثون لتوضيح ما في أخلاق اليونان وما في تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولتحدث أولاً عن ملتيا دس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولا من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا يتازعه في ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) وإلا أفنأهم عن آخرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنه سيمون Cimon الذي صار فيما بعد منافس بركليز^(٨) .

وعاش الرجل الذي تخلى لملتيا دس عن مكانه في مرثون ونجا من المزالق التي توجد عادة في طريق الظافرين . ذلك أن أرسطيديز كان في حياته وأخلاقه اسبارطياً يعيش في أثينة ؛ وقد استحق بحلقه الهادئ الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التي لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل ، ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهي هدفه في أعماله ، ومن عقله تنفجر ينباع الحكمة والفطنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرسطيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحي لهذه الصفات^(٩) . ولما أن استولى اليونان على معسكر الفرس في مرثون ، ووجدوا في خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرسطيديز المحافظة

عليها « فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يفتال منها شيئاً » (١٠) . ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا في أداء جزية سنوية إلى خزنة الحلف في ديلوس ليستعان بها في الدفاع عن بلاد اليونان عامة ، اختير أرستيديز ليقدر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه . وكان صديقاً حميماً لكليستينز الذى وسع نطاق الديمقراطية إلى حد بعيد ، ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى اضطراب النظام . وكان يندد بالفساد أينما وجده ، وخلق بذلك لنفسه كثيراً من الأعداء . واتخذ الحزب الديمقراطي الذى يرأسه ثمستكليز نظام نقي عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من أرستيديز ؛ وفى عام ٤٨٢ نفي الرجل الوحيد في تاريخ أثينة كله الذى جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه في أوج مجده . والعالم كله يعرف القصة التى تقول - وقد تكون هى الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة - إن أرستيديز نقش اسمه على اللوحة التى يكتب عليها اسم من يراد نفيه (الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمى لا يعرفه ولكنه لم يعد يطبق سماع لقب العادل يطلق عليه ، فحقده عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط الناس عادة على العظماء . ولما أن عرف أرستيديز أن الجمعية قررت نفيه قال إنه يرجو ألا يأتى اليوم الذى تذكره (١١) فيه أثينة (*) .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين في الشؤون العامة في أثينة كانوا يتصفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العرب :

سيذكرني قومي إذا جد جدم وفى الليلة الظلماء يفقد البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل في ذلك عن ألقبيادس الذى عاش في عصر متأخر عنه . ويقول فيه توكيديدس^(١٢) وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خلقت بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظر » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتبادس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ، وكان في مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن في وسعه أن يقهر ما في نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمحض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصيح لتقوم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ، لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ، أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية في هذه الأمور^(١٣) . وكان من سوء حظ أثينة أن تمسكليز وأرستيديز قد أحبا معاً فتاة واحدة هي استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزُل بعد أن زال الجبال الذى أشعل النار في قلبيهما^(١٤) . بيد أن تمسكليز كان هو الذى أعد العدة للنصر في سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع إنشاء مرفأ جديد لأثينة في يبريه ، وشرع في إنشائه بالفعل ، وفي عام ٤٨٢ أقنع الأثينيين بأن يزلوا عن نصيبهم في مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة في لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة صفوف من المجاذيف . ولولم ينشأ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاي .

الفصل الثالث

خشيارشای أو أخشويرش (*)

توفي دارا الأول في عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشای الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا يخطئ من يظن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والمهملية . وحسبنا دليلاً على هذا تلك الحادثة التي وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسبارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فإما كان من المدينتين كلتيهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوالت نذر الشؤم على اسبارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المريعة ، وطلبت إلى أهلها أن يتقدم منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيها . وتطوع اسپرثياس Sperthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة في المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشای وعرضا عليه أن يقتلهما ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشای « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدونيون ، حين قتلوا رسله واعتلوا بعملهم هذا على القوانين التي يشترك الناس كلهم في التقيد بها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبه » .

وأخذ خشيارشای يستعد لهجومه الثاني على اليونان استعداداً كاملاً بطيئاً . فقضى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العتاد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ، ولما أن بدأ الزحف أخيراً في عام ٤٨١ كان جيشه في أغلب الظن

(*) أو زكسبر كما يسميه اليونان .

أكبر جيش في التاريخ كله قبل هذا القرن الذي نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٦٤١٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهنسين والأرقاء ، والتجاء ، ورجال التكوين والعاهرات . ويقول — ولعله هو نفسه لم يكن مؤمناً بقوله — إن جيش خشيارشاي كان إذا ورد الماء ليشرب جفت أنهار برمتها^(١٦) . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميديون ، وبابلليون ، وأفغان ، وهنود ، وبكتريون ، وسجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلشيون ، وسكوذيون ، وبيونيون ، وميسيون ، وفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، وبووثيون ، وإبوليون ، وأبونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكلبيون ، وقصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، وليديون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفاً ومائتي سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس في معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشاي أمره وعما عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسبارطة مدى استعداده ، فإن ما بقي من بلاد اليونان سوف يستسلم له^(١٧)

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الهلسنت (الدردنيل) في عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذا جاز لنا مرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المحاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجذافاً ، قد صفت صفين في عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ، وثبتت في مكانها بهلب ثقيل . ثم مد الصناع حبالاً من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبمعكس اتجاهها وربطت بهذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ، ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق المهد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حدا يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر^(٩) . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الحمر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهليين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشائ هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاطمة بصاعقة واحدة^(١٩) .

وزحف الجيش سرا مجتازاً تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتاليا بينا كان الأسطول الفارسى يلازم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجه بالسير جنوباً مجتازاً قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلاً وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعمائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشائ يوماً واحداً^(٢٠) . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكا إما خوفاً من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جحافل خشيارشائ ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا بلاتيا وثسبيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور في هذه الأيام ما استولى على ايونان الجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتبايل الألسنة الذى لا يبقى ولا ينذر ؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حق وجنون ، لأن الدول التى ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن فى وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاى ؛ وعملت أثينة واسبارطة للمرة الأولى معا وتعاونتا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة فى البلوبونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسبارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاى عند ترموبلى . والتقى الأسطولان عند أرتميزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمال . ولما رأت قواد الأسطول اليونانى ضخامة الأسطول الفارسى فكروا بالانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس فى بلادهم ، فأرسلوا إلى ثمستكايز قائد القسم الأثينى رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠.٠٠٠ ريال أمريكى) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح ثمستكايز فى إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم^(٢١) . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة لينقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسى يرجونهم فيها أن يفروا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيرين بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاى إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الميلينيين في المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتعادين طوال النهار ، فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتمزيوم والفرس إلى أفيتي Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين في عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموبيلي أبحر الجزء الباقي من الأسطول اليوناني نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان في هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التي تعد أروع مقاومة في التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشبارشاي على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسي من هذا الطريق ليهاجوا الاسبارطيين من الخلف . وقتل في المعركة التي نشبت وقتئذ ليوننداس والثلاثة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ، ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا في انقراض أمة أسرة اسبارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما في معركة بلاتية ، وشق الثاني نفسه اعتقادا منه أن نجاته نجلاه العار (٢٢) . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا في المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزيد على ثلاثة (٢٣) . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية المذاعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبي السلمونيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم (٢٤) » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصددهم عن أثينة أعلنوا في المدينة أن من واجب كل أثيني أن يعمل على نجاة أسرته بخير وسيلة يراها . ففهم من فرلى لإيجينا ، ومنهم من فرلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرتمزيوم . ويصور لنا أفلو طرخس^(٢٥) صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة في المدينة وهي تسير خلف أصحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلأت السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثيوس Xanthippus والد بركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء^(٢٦) . وفي وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من احتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف في الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فإذ كان من مواطنيه إلا أن قتلوه في التور والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجعن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى يهلكوا^(٢٧) . ولما أقبل خشيارشاي على المدينة ألفاها خاوية على عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسي المؤلف من اثنتي عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المخلفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض في المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسي في معركة فاصلة . وأراد مُستكيز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاي عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعزمون الفرار في أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليوناني ، وعمل خشيارشاي بالنصيحة . ووجد اليونان في صباح اليوم الثاني أن المسالك كلها قد سدت في وجوههم ، فلم يروا بداً من القتال . وجلس خشيارشاي في أبهة وجلال عند سفح جبل إيجلبوس Aegaleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شعاعة بمنازة . وانتهت

(٣١ - ١٣ - مجلد ٢)

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم في أساليب الكر والفر ، وفي ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثته في صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التي عاقبتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتي سفينة مقابل أربعين خسرهما المدافعون ، ولكننا لا نعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التي خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين في السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم^(٢٨) . وفرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسي إلى مضيق الهلسنت (الدردنيل) ، وأرسل الداهية ثمستكليس عبده مرة أخرى إلى خشيارشاي ليقول له إنه قد أقتع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسي . وترك خشيارشاي ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلاً كبير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات في الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزحار .

وفي العام الذي انتصر فيه اليونان في سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجيين في هيميرا Himera - وقد يكون ذلك في نفس اليوم الذي دارت فيه رحى القتال في سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاي ومن أملوا سفته بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب في وقت واحد^(٢٩) . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العمارة القرطاجية وصل إلى Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندي ، ومنها سارة محاصرة هيميرا ، وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسي ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كمادة قواد الفينيقيين ، وأخذ يحرق القرايين للآلهة ورحى الحرب دائرة ،

ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، ألقى بنفسه في النار . وأقيم له قبر في تلك البقعة نفسها ، وفيها قتل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يوناني انتقاماً منهم لجنده (٣٠) .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) تم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا في وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس - وكان يعيش مطمئناً من خبرات البلاد - كان قد ضرب خيامه قرب پلاتيه في سهول بوئيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠,٠٠٠ رجل بقيادة پونياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين في انتظار فآل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية في هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب في جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسية التي تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تنزلزلق أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزرراً لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلاً ، بينما كان عدد القتلى من الجيش الفارسي ٢٦٠,٠٠٠ (*) . وفي اليوم نفسه - كما يؤكد اليونان - التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسي أمام شاطئ ميكالي وسط الجزائر الأيونية كلها وملتنى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطم فيها الأسطول الفارسي ، وتحمرت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الملسينت والبسفور ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعائة عام .

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام التي يذكرها هيرودوت إنما أُلحِق بها عليه فورة من فورات الخيال الوطني . وحاول أفلاطرخس أن يكون نزيباً في إيراد الحوادث فرغ غسارة اليونان على ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقل - وهو الرجل لتكريم على الدوام فيما يذكر من الأرقام - بخسارة الفرس إلى ١٠٠,٠٠٠ (٣٢) . ولكن أفلاطرخس وديودور لنفسها كانه من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع في تاريخ أوروبا ، ولولاها لما قامت لأوروبا قائمة . فهي التي أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التي أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبطل كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمى نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة في الحرية ، وحفظت العقل اليوناني ثلثائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثيني أو جزؤه الذي بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ، وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التي أمكنتها من أن تنفرع لنشاطها الثقافى من عهد بركليز . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الحرارة قد بعث العزة في نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التي أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية في عصرها الذهبي المجيد .

(انتهى الجزء الأول)

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على توفيقك ونصلي ونسلم على نبيك الكريم وعلى جميع أنبيائك ورسلك . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثاني من مجلدات قصة الحضارة التي يصدرها الكاتب الأمريكي ول ديوارانت . وهذا المجلد الثاني هو المعروف « بحياة اليونان » ، وقد تمت ترجمته بعون الله ، وسيصدر تباعاً في ثلاثة أجزاء . وقد تمت كذلك ترجمة المجلد الثالث الخاص بحضارة الرومان ، والذي سماه المؤلف « قيصر والمسيح » ، وسيصدر إن شاء الله بعد الفراغ من نشر المجلد الثاني . ولقد بدأنا منذ بضعة شهور ترجمة المجلد الرابع من هذه السلسلة العظيمة ، وهو الذي سماه المؤلف « عهدهم الربيع » ، والذي يصل بالقصة إلى العصور الوسطى . ونرجو أن نفرغ من هذه الترجمة قبل أن ينشر المؤلف المجلد الخامس الخاص بعصر النهضة ، والذي يقول إنه سيصدر في عام ١٩٥٥ . فإذا ما مد الله في حياتنا ورزقنا صحة الجسم وراحة البال ، بدأنا ترجمة هذا المجلد عقب صدورهِ ، فلا يبقى بعد هذا لكي تتم القصة إلا المجلد السادس « عهدهم العقل » الذي سيصدر بالإنجليزية في عام ١٩٦٠ . فإذا ما ترجمناه هو الآخر فاعتقادنا أننا نكون قد دينا لهذا الوطن العزيز واللغة العربية حقهما علينا ونكون قد آن لنا وللمؤلف كما يقول عن نفسه أن نستريح .

هذا والفضل كل الفضل فيما صدر من قبل من هذا الكتاب الحليل الشأن وما سيصدر بعد من مجلداته الستة إلى الإدارة الثقافية في جامعة

الدول العربية فبمعونتها وثقتها ترجمنا ما ترجمناه منها ، ثم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تولت أعمال الطبع والنشر وتحملت نفقاتهما ، ثم إلى القراء في مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على أجزاء المجلد الأول الخمسة إقبالا كان له أكبر الأثر في تشجيعنا على بذل ما يتطلبه هذا العمل الضخم من جهد ، وتحمل ما يسببه من عناء .

ولقد كانت طريقتنا في الترجمة هي بعينها الطريقة التي اتبعناها في كل ما ترجمناه من قبل ، وهي التقيد التام بالأصل المترجم لم نشذ عنه في شيء ، فلم ننقص منه ولم نزد عليه ، اللهم إلا شروحا وتعليقات قليلة في هوامش الصفحات .

أما تعريب الأعلام فقد اتبعنا فيه نطقها الذي ثبته المؤلف في آخر الكتاب ، عدا أسماء قليلة نطق بها العرب على غير ما ينطق بها الأوروبيون ، كأفلاطون وأرسطو ، وسقراط ، وأسماء أخرى ورد ذكرها في كتب العرب الأقدمين ، وإذا كان قد فاتنا شيء منها في هذا الجزء فرجأونا ألا يفوتنا في الجزأين التاليين ، وزيادة في الدقة قد رأينا أن نثبت أسماء الأشخاص والأماكن حين يرد ذكرها أول مرة بالحروف الإنجليزية حتى يسهل النطق بها على الوجه الصحيح ، وإنا لرحب بكل تنبيه لما عساه أن يكون قد خفى علينا من هذه الأسماء ، ونعد بالاستفادة منه في الأجزاء التالية مع خالص الشكر لأصحابه ، ونرجو ألا يطول انتظار القراء لهذه الأجزاء .

فهرس الجزء الأول من المجلد الثانى

الصفحة	الموضوع
ط	مقدمة الترجمة
١	مقدمة المؤلف
	الكتاب الأول - تمهيد فى حضارة بحر إيجة
٧	أهم الحوادث فى الكتاب الأول مرتبة حسب تواريخها
٥	الباب الأول : كريت
٩	الفصل الأول : البحر الأبيض المتوسط
١٣	الفصل الثانى : كشف كريت اثنى
٢٠	الفصل الثالث : حضارة تستمد من بقاياها
٢٠	١ - النساء والرجال
٢٤	٢ - المجتمع
٢٨	٣ - الدين
٣١	٤ - العقافة
٤٢	الفصل الرابع : سقوط كنوس
٤٩	الباب الثانى : قبل أحمون
٤٩	الفصل الأول : شليان
٥٥	الفصل الثانى : قصور الملوك
٦١	الفصل الثالث : الحضارة الميسينية
٦٧	الفصل الرابع : طراودة
٧٥	الباب الثالث : عصر الأبطال
٧٥	الفصل الأول : الآخيون
٧٧	الفصل لثانى : خرافات الأبطال
٨٦	الفصل الثالث : الحضارة الهومرية
٨٦	١ - المال
٩٢	٢ - الأخلاق
٩٧	٣ - الرجال والنساء

الموضوع	الصفحة
٤ - الفنون	١٠٠
٥ - الدولة	١٠٢
الفصل الرابع : حصار طراودة	١٠٥
الفصل الخامس : العودة إلى الوطن	١١٢
الفصل السادس : فتح اندوريين	١١٨

الكتاب الثاني - نهضة بلاد اليونان

أهم الحوادث في الكتاب الثاني مرتبة حسب تواريخها ١٢٥

الباب الرابع : اسبارطة

١٢٩	الفصل الأول : البيئة المحيطة ببلاد اليونان
١٣٥	الفصل الثاني : أرجوس
١٣٩	الفصل الثالث : لكونيا
١٣٩	١ - توسع اسبارطة
١٤٢	٢ - عصر اسبارطة الذهبى
١٤٧	٣ - ليقسورغ
١٤٩	٤ - دستور لديمونيا
١٥٣	٥ - القانون الاسبارطى
١٦١	٦ - ما لاسبارطة وما عليها
١٦٥	الفصل الرابع : الدول المسيحية
١٦٨	الفصل الخامس : كورنثة
١٧٣	الفصل السادس : مجارا
١٧٩	الفصل السابع : لميجينا، إيدورس

الباب الخامس : أثينة

١٨٣	الفصل الأول : بطوتية هزبود
١٩٣	الفصل الثاني : دلى
١٩٦	الفصل الثالث : الدول الصغرى
٢٠٠	الفصل الرابع : أتكا
٢٠٠	١ - ما حول أثينة
٢٠٣	٢ - أثينة في عهدا الأجركى
٢٠٩	٣ - الثورة الص لونية
٢٢٠	٤ - دكتاتورية بيستراتس
٢٢٦	٥ - قيام الديمقراطية

٢٣٣

الباب السادس : الهجرة الكبرى

٢٣٣	الفصل الأول : أسبابها ووسائلها
٢٣٨	الفصل الثاني : السكندرية الأثرية
٢٤٥	الفصل الثالث : الفيض الدور
٤٧	الفصل الرابع : الاثنتا عشرة مدينة الأيونية
٢٤٧	١ - ميليتس والمطن الأول للفلسفة إلى نانية
٢٥٨	٢ - بوليكتاتيز السامسى
٢٦١	٣ - هرقلطس الإفوسى
٢٦٩	٤ - أنكريون إلى سى
٢٧٢	٥ - طليوز ، أزير ، فسياس
٢٧٦	الفصل الخامس : سافو السمية
٢٨٤	الفصل السادس : الإمبراطورية اشغالية

٢٨٩

الباب السابع : اليونان في الغرب

٢٨٩	الفصل الأول : السياردين
٢٩٣	الفصل الثاني : فيثاغورس الكراتونى
٣٠٢	الفصل الثالث : زيفانيز الإيلاقى
٣٠٥	الفصل الرابع : من إيطاليا إلى أسبانيا
٣٠٨	الفصل الخامس : صقلية
٣١٥	الفصل السادس : اليونان في أفريقية

٣١٧

الباب الثامن : آلهة اليونان

٣١٧	الفصل الأول : أصل الشرك
٣٢١	الفصل الثاني : سجل الآلهة
٣٢١	١ - الآلهة الصغرى
٣٢٧	٢ - الآلهة الأولمبية
٣٤١	الفصل الثالث : أسرار خافية
٣٤٨	الفصل الرابع : العبادات
٣٥٤	الفصل الخامس : الخرافات
٣٥٨	الفصل السادس : المتنبتون والمتنبئات
٣٦١	الفصل السابع : الأعماد
٣٦٥	الفصل الثامن : الدين والأخلاق

الموضوع	الصفحة
الباب التاسع : التضافه المشتركة لبلاد اليونان في عهدھا المبكر	٣٦٨
الفصل الأول : فردية الدولة	٣٦٨
الفصل الثاني : الكتابة والقرأة	٣٧١
الفصل الثالث : الأدب	٣٧٧
الفصل الرابع : الألعاب	٣٨٥
الفصل الخامس : الفنون	٣٩٦
١ - المزهریات	٣٩٨
٢ - الحت	٤٠٣
٣ - اعمارة	٤٠٨
٤ - المسيقى والرقص	٤١٣
٥ - نشأة الفتحيل	٤٢٠
الفصل السادس : نظرة إلى الماضي	٤٢٥
الباب العاشر : الكفاح في سبيل الحرية	٤٢٧
الفصل الأول : مرثون	٤٢٧
الفصل الثاني : أ ستيديز وتمتكلیز	٤٢٧
الفصل الثالث : خشیارشای أو أخشوریش	٤٣٤
الفصل الرابع : سلامیس	٤٣٧

فهرس الاشكال والصور

شكل ١	هيجيا إلهة الصحة	في أول انكتاب
٢	الساقي	أمام صفحة ٣٢
٣	الإلهة الأفعى	٣٢
٤	مظلم على جدا وعرش مينس	٤٠
٥	كأس من فافيه	٨٨
٦	قناع أجمنون	٨٨
٧	سارب	١٠٠
٨	ملهى أيدروس	١٧٨
٩	ملهى پوسيدن في پيسم	١٨٤
١٠	مزهرية عليها نقش يمثل أثينا وهرقل	٢٢٠
١١	مزهرية بوثلند	٢٢٢
١٢	مزهرية قرانسوا	٢٢٢
١٣	عذراء	٢٤٨
١٤	أبل	٢٤٨
١٥	بركلز	٢٨٤
١٦	أبياتور	٢٨٤
١٧	أرفيوس ، ويورپديز ، وهرمس	٣٤٠
١٨	مولد أفرديتى	٣٥٢
١٩	عرش لدفيز (القاعدة اليمنى)	٣٦٠
٢٠	عرش لدفيزى (القاعدة اليسرى)	٣٦٠
٢١	الدياد منس	٣٨٠
٢٢	أبلو قاتل الحظايا	٣٨٠
٢٣	قاذف لآترم	٤٠٠